العشرة المبشرون بالجنة

رضي الله عنهم

أبو بكر الصديق

عمر بن الخطاب

عثمان بن عفان

علي بن أبي طالب

طلحة بن عبيد الله

الزبير بن العوام

سعد بن أبي وقاص

عبد الرحمن بن عوف

أبو عبيدة بن الجراح

سعيد بن زيد

محمد على قطب

دار الدعوة


العشرة المبشرون بالجنة

الطبعة الرابعة
١٤٢٧ هـ - ٢٠٠٦م

رقم الإيداع القانوني
١٩٩٣ - ٥٧٢٦

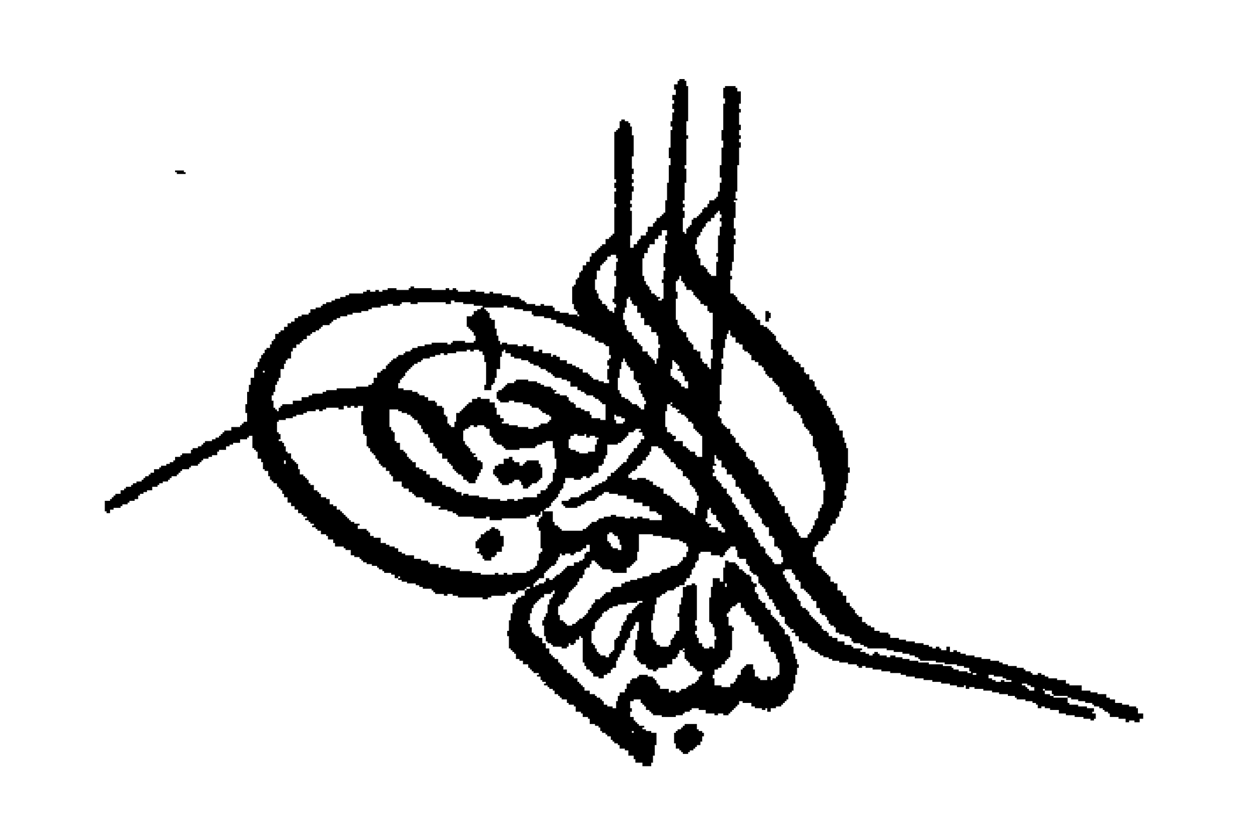
الترقيم الدولي : 6-40-253-977

دار الدعوة للطبع والنشر والتوزيع
٢ شارع منشا - محرم بك - الأسكندرية
تليفون : ٣٩٠١٩١٤ - فاكس : ٥٩٠١٦٩٥

العشرة المبشرون بالجنة

محمد علي قطب

دار الدعوة
للطبع والنشر والتوزيع





الصدّيق (أبو بكر بن أبي قحافة) رضي الله عنه

- الصديق الوفي والحميم لرسول الله ﷺ قبل الإسلام.
  وأوّل المسلمين والمؤمنين من الرجال.
- وأوّل الدعاة إلى الله بعد رسُول الله ﷺ.
- وأكثر المنفقين في سبيل الله.
- وأكثر الناس عتقاً للرقاب.
- وأوّل الصّحابة مُصاهرة لرسول الله ﷺ.
- والوزير الأول ، والمستشار المؤتمن.
- وصاحب الباب الذي لم يُغلَق إلى المسجد النبوي
- الشريف.
  والإمام الذي ائتم به رسول الله ﷺ في الصلاة.
- وأوّل الخلفاء الراشدين.
-

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

قال الله تعالى:

﴿وَالَّذي جاءَ بالصِّدْقِ وَصَدَّقَ به أُولَئكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾ سورة (الزُمر) الآية (٣٣).

وقال عزَّ وجَل: ﴿وَسَيُجَنَّبُهَا الأَتْقَى ﴿١٧﴾ الَّذي يُؤْتِي مَالَهُ يَتَزَكَّىٰ ﴿١٨﴾ وَمَا لأَحَدٍ عِندَهُ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَىٰ ﴿١٩﴾ إلاَّ ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الأَعْلَىٰ ﴿٢٠﴾ وَلَسَوْفَ يَرْضَىٰ﴾ سورة اللَّيْل الآيات (١٧-٢١).

وقال سبْحانَهُ: ﴿ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا﴾ سورة التوبة الآية (٤٠).

عزيزي القارئ:

يقول أكثر المفسرين - رحمهُم الله تعالى - أنَّ المعني بهذه الآيات الشريفة هو سيدنا «أبو بكْر الصدِّيق» - رضي الله عنه -.

١- فالَّذى جاءَ بِالصِّدْق - فرقاناً وقرآناً - هو إمام المرسلين، وخاتم النبِّيين سيدنا وإمامنا وقُدوتنا «محمد بن عبد الله» - صلوات الله وسلامه عليه -؛ وكان «أبو بكر» - رضي الله عنه - أوّل من صدَّق بِهِ وآمَنَ واتَّبَع.

٢- والأتْقى الذى يُؤتى ماله يتزكَّى، هُوَ الصِّدِّيق - أيضاً - رضي الله عنه -، فما من أحد من الصحابة - رضوان الله عليهم أجمعين - جاءَ بماله وجَنَّدَ كُل درهم ودينار مِمّا يملك فى سبيل الدَّعْوة، يبلغ رُتْبَة «أبى بكر»..!!

٣- ولقد كانت هِجْرتُه - رضي الله عنه - رفيقاً وأنيساً وصاحباً، لسيِّد الخلق، نَبِيِّنا المصطفى «صلى الله عليه وسلم»، من أعْظم الشهادات لهُ عند الله تعالى؛ ومن أعظم القُرُبات.

«أمُّ الخير»

انشرح صَدْرُ أم الخير (سلمى بنت صخر بن عامر) وعلاها البِشْرُ والسرور - وحق لها ذلك - فلقد رُزِقَت بغلام بعد أن طال انتظارها زمناً طويلاً.

فقد تزوجت بـ«أبى قحافة» - (عثمان بن عامر) منذ أمدٍ بعيد، ولم يكن يعيش لهما ولد، فنذرت إن رُزِقت بغلام أنْ تُسمّيه: «عبد الكعبة»..!.

وها هى تضع مولودها، فيرقص البيت كله طرباً ويعمُّه الفرح والحيوية، فتفى بنذرها وتسمِّى طفلها «عبد الكعبة»، تَيمُّناً بهذا البيْت العتيق الذى حماه الله ودافَعَ عنه، حين رَدَّ عَنْهُ «أصحاب الفيل»[1].

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ ۝ أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ ۝ وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ[2] ۝ تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ[3] ۝ فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ[4]﴾[سورة الفيل].

وكنّته بـ« أبى بكر»، لأنه أوَّلُ من بكَّر فى الحياة من أبنائها.

عاش «أبو بكر» فى رفاهيةٍ من العيش، ورغدٍ من الحياة، ورعتهُ أُمُّه رعايةً صالحة، واعتنت به عناية طيبة، فلقد كانت سليلة بيتٍ عريقٍ فى المجد والسؤدد.

فلمّا بَلَغَ أَشُدَّهُ عَمِلَ بزّاراً يبيع الثياب.

وكانَ «أبو بكر» أَبْيضَ اللَّون، نحيفاً، خفيف العارضين، معروق الوجْه غائر

---

(١) أصحاب الفيل: جيش أبرهة الحبشى الذى قدم به إلى مكة يريد هدم الكعبة فأهلكه الله تعالى هو وجنده.

(٢) أبابيل: جماعات.

(٣) سجيل: حجارة شديدة صغيرة صلبة، ملتهبة.

(٤) العصف: أغصان النبات والشجر وقد ذهب ورقه.

العينين[1]، ناتىء الجبهة، عارى الأشاجع[2].

وتعلَّم، فقـرأ وكتب، وكان ذلك وقْـفاً على بيوتاتِ أهل مكة من قـريش؛ فنشأ عالماً بأنساب العرب، محيطاً بتـاريخ قريشٍ خاصةً، والعرب عامة، وله إلمام واسع بآداب العرب وأشعارهم، وكان من أعلم الناس بتعبير الرؤى، وتفسير الأحلام.

وكان رجُلاً كريم الخلق، رقيق الطبع، لا يغلبه الهوى ولاً تملكه الشهوةُ، حسن الحديث، لطيف المعاشـرة، مألفاً[3] لقومه، يحـبونه لعلمه، وصِدْقـه فى تجارته، وحسن معـاشرتِه، معروفـاً بينهم بالوفاء والأمانة، وصفـاء النفس، لذلك نجحت تجارته نجاحاً كبيراً، وبَلَغَ مُدَّخره قبل الإسلام أربعين ألْف دِرْهم - وكان هذا المبلغ فى حينه يعتبر ثروة كبرى -.

وكان لرزانتـه ورجاحة عقله لا يشـارك قومه فى كـثير من عاداتهم وعـقائدهم الجاهلية، فلم يشرب خمراً - مثلاً - على ما كان من حُبِّ القرشيين للخمر.

ولقد بلغ من كرامته على قريش أنها عهدت إليه بأمْرٍ من أمورها الجليلة، وهو ولاية الحمـالات أو الدِّيات، وهو منصب مرمـوق من مناصب السؤدد، ووظيـفة عظيمة من وظائف الشـرف. . ، فكان إذا احتمل «أبو بكر» منها شيـئاً، صدَّقوه، وأمْضُوا حِمالته، وإن احتملها غيره خَذَلوه.

صلته بـ« محمد بن عبد الله ﷺ »

كان «أبو بكر» يصغُـرُ النبى ﷺ بسنتينِ وأشهُرٍ قلائل، وكلاهمـا كان يعمل فى التجـارة، واشتركا مـعاً فى «حِلْف الفُضُـول»، الذى عُقِد لإقـرار العدالة فى «مكة» قبل الإسلام.

---

(١) غارت عيناه: دخلت فى رأسه.

(٢) الأشاجع: أصول الأصابع التى تتصل بعصب ظاهر الكف.

(٣) جاء هذا المعنى فى حديث شريف لرسول الله ﷺ.

فجمع بَيْنهما هذا التقارب فى السّن والإشـتراك فى العمل، وجعلهما صديقين حميـمين، وزاد فى توثيق عرى المودَّة بينَهمـا اتفاقهمـا فى حُسن الخُلُق، وسكينة النفس، وصفاء الروح، والرغـبة عَما تزاول قريش من عادات وتقـاليد، فالأرواح جُنودٌ مَجـنَّدة ما تعارف منـها ائتلف وما تـناكر منها اخـتلف[1]، والطُّيورُ على أشكالها تقعُ، لذلك كـانا صديقين حميمين مـتلازمينْ، وصاحبين لا يفـترقان إلاّ لضرورةٍ من عملٍ أو سَفَرٍ، أو خاصَّة حاجةٍ.

النبوّة والإسلام

بينما «أبو بكر» جالساً ذات يومٍ بفناء داره، إذ طرق البـاب صديقه ـ محمد بن عبدالله ـ، فأذن له فدخل، وجلس إلى جواره، فـتحدث إليه، وأخبره بأنَّه أُوحَى إلَيه، ودعاهُ إلى الإيمان بالواحـد الأحد، خالق الأرض وما عليهـا، ورافع السماء بلا عَمَدٍ، المحْيى المميت، . .

إنها مفاجأة !!.

وخبـر غريب عجـيب . . ، غير مألوف عـند العرب، يحتـاجُ إلى تأمُّل وتفكير وتدبُّر، وطُول أناةٍ.

لكنَّ «أبا بكر» ـ رضي الله عنه ـ بما عَـرف مَن صدْق صاحِـبه، وسـمُوَّ أخلاقـه، ورَوْعة فضائله، وصفاءِ رُوحه، ونزعته إلى الملأ الأعلى . لم يتلكأ أبداً.

فلم يتردَّد ـ رضي الله عنه ـ فى إجـابةَ داعى الله فكان أول الرجال إسلاماً، وأسـرعهم استـجابةً، لدعْوة الـرسُول ﷺ ، ولم يكن يُتَوقَّعُ منه غـير ذلك، فـهو الرجل الوحيـد الذى عرف «محـمداً» حق المعرفـة ـ قبل الرسالة ـ ووقف من خـصائص النبوَّة ومعالم الرسالة على ما لم يقف عليه غيره من ذلك.

وحسْبه من الشرف ـ فى هذا المقام ـ شهادة الرسول الكريم لهُ بقوْله:

---

(١) جاء هذا المعنى فى حديث شريف لرسول الله ﷺ .

{ما كلَّمْت أحـداً فى الإسلام إلا أبى علىَّ وراجـعنى فى الكلام، إلا «ابن أبى قُحافة» فإنِّى لم أكلِّمه فى شئٍ إلاْ قبله واستقام عليه}.

وسماه النبىُّ ﷺ : «عَبْدَالله» ـ بَدَلاً من «عبد الكعبة». وزاد صِدْقُ «أبى بكرٍ» فى الإيمان بـ«محمد» ﷺ ورسالته، العلاقة بين الرَّجلين متانةً.

قالت «عائشة» رضي الله عنها :

{ما عَقِلْتُ أبَوَاى إلا وهُما يدينان الـدِّين، وما مرَّ علينا يوم قط إلا ورسول الله ﷺ يأتِينا بكرةً وعشياً}(١).

مشاركته فى الدعوة إلى الله تعالى

منذ أن شرح الله صَـدْر «أبى بكرٍ» للإسلام وقف إلى جـانب الرسول ﷺ، وشـارك فى الدعوة إلى دين اللهْ، وكـان إلْف قومـه بالجلوس إليْه، والاسـتمـاع لحديثه، ذا أثر كبير فى استجابة كثير من المسلمين الأوَّلين لدعْوة الإسلام.

فقد دعـا إلى الإسلام خاصة إخوانه وصَفْـوةَ أهل وُدّه، فأسلم على يديه رهطٌ كبير من عظماء الإسلام، منهم:

«عثمان بن عفان» و«سعـد بن أبى وقاص» و«عبد الرحمن بن عوْف» و«طلحة بن عبيد الله» و«الزُبَيْر بن العوّام» و«أبو عبيدة عامر بن الجراح»، وكثير غيرهـم من أهل «مكة».

«أبو بكر» وضُعفاء المسلمين

لم يقف «أبو بكر» ـ رضي الله عنه ـ من تأييد الدعـوة عند حدّ التحدُّث إلـى أصحابه، ودعوتهم إليْهـا، وإقناعهم بها، بل أخذَ ينفق من حُرِّ ماله فى سـبيل الله ويختص بهـذه النفقـة أولئك البؤسـاء والضعـفاء الذين هداهم الله إلى الإسـلام، فيـعين المحتاجين، ويفك رقاب الأرقاء من المسلمين.

(١) (مسلم وأبو داود والترمذى والبيهقى).

رأى «أبو بكر» ـ رضي الله عنه ـ «بلالاً» الحبشى وقد ألقاه سيدهُ «أميَّةُ بن خَلَف» على الرمْل فى لظى الشمس، ووضع حجراً ضخماً على صدره وتركه ليموتَ لأنه أسلَمَ واتَّبع «محمداً» ﷺ . .

و«بلال» يردد: أحَدٌ أحَدٌ . .

فتقدَّم «أبو بكر» إلى «أميَّة» سيد «بلال»، فاشتراهُ منه بما أراد من ثمنٍ، ثم أعتَقهُ حُراً لوجه الله تعالى؛ وكانت بيْن الرجلَيْن صداقة قديمة وطيدة، زادها الإسلام متانة، والإيمان قُوَّةً.

ولقد زاد عدد الَّذين أعتقهم «أبو بكر» ـ رضي الله عنه ـ مِنْ حُرِّ ماله، عن العشرة، ما بيْن ذكرٍ وأنثى.

وكانَ والدُهُ «أبو قحافة» ما يزال على شِركه، شيْخاً طاعناً فى السِّن، ضريراً . . ، خَشِن القلْب والعاطفة، فكان يؤنِّب ولده على ما يَفْعل، وينْحى عليه باللائمة.

تحمل الأذى

على أن «أبا بكر» ـ رضي الله عنه ـ لم يَسْلَم من أذى قريش، فقد غالتْ فى العُدْوان عليه، وأخذوا يَضربونه (عند فناء الكعبة) حتى سالت منه الدماء، وسارَع «بنو تيمْ» ـ رهطُ «أبى بكر» وقومه إلى استنقاذه منهم، وهو ـ رضي الله عنه ـ بين الموت والحياة.

بَلْ لم يَسلم النبى ﷺ من هذا الأذى، على جلال قدره ومكانته من قومه ومنْع «بنى هاشم» له.

ولم ير «أبو بكر» قريشاً تؤذى رسول الله ﷺ إلا وقف دونه يدافع عنه، ويعرِّض حياته دونه فبينما النبى ﷺ يصلّى فى المسجد الحرام ذات مرَّة، إذ هجم عليه «عُقبَةُ بن أبى معيط» وهو ساجد، فخنقه بثوبه، فقام «أبو بكر» دونهُ وهو يبكى، وخلَّصه، وهو يقول: ﴿أَتَقْتُلُونَ رَجُلاً أَن يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ وَقَدْ جَاءَكُم

---

(١) (مسلم وأبو داود والترمذى والبيهقى).

بِالْبَيِّنَاتِ مِن رَّبِّكُمْ﴾ سورة «غافر» الآية (٢٨).

الهجرة إلى الحبشة

لمّا رأى رسول الله ﷺ ما يصيب أصحابه من البلاء وعدم قدرته على منع الأذى عنهم، قال لأصحابه:

[لو خرجْتم إلى أرض الحبشة فإن بها ملكاً لا يُظلَم عنده أحد، وهى أرض صِدْقٍ، حتى يجعل الله لكم مخرجاً مما أنْتُمْ فيه]. فخرج عند ذلك المسلمون من أصحاب رسول الله ﷺ إلى أرض الحبشة، مخافة الفتنة، فراراً إلى الله بدينهم، فكانَت أول هجرة فى الإسلام.

حينئذ استأذَنَ «أبو بكر» ـ رضي الله عنه ـ رسول الله فى الهجرة، فأذن له، فخرج ـ رضي الله عنه ـ مهاجراً.

حتى إذا سار من مكة لقيه «ابن الدغنه» (وهو يومئذ سيد الأحابيش)(١) فقال«ابن الدغنَّة»: أيْن تريد يا «أبا بكْر»؟ فقال: أخرجنى قومْى وآذونى وضيَّقُوا علىَّ، فأريد أن أسيح فى الأرض فاعبد ربى..، قال: ولِمَ؟ فوالله إنك لتزين العشيرة، وتعين على النوائب، وتفعل المعروف، وتكسب المعْدوم، إرْجعْ. فأنت فى جوارى.

فرجع معه، حتى إذا دخل مكة قام «ابن الدغنَّة» فقال: يا معشر قريش إنى قد أجرت «ابن أبى قحافة» فلا يعرض له أحد إلا بخير.

فقالوا له: مُرْهُ فليعبد ربه فى داره، ولا يؤذنا بذلك ولا يستعلن به، فإنا نخشى أن يفسد نساءنا وشبابنا، فذكر ذلك لأبى بكر، فقبل ذلك، فكفوا عنه.

رجع «أبو بكر» إلى داره وأخذ يعبد الله فيها، ثم ابتنى لنفسه مسجدا (مُصَلَّى)

---

(١) الأحابيش: قبائل تحالفت بواد يقال له: الأحبش، بأسفل مكة.

بفنائها، فكان يُصَلّى فيــه، وكان رجلا رقيقا، إذا قرأ الـقرآن استبكى[1]، فيقف عليه الشبان والصبيان والعبيد والنسـاء ويجتمعون عليه، ويصغون فى إعجاب إلى قراءته.

فعلمت قريش بذلك فهـرعت إلى «ابن الدغنه» فقالوا له: يا «ابن الدغنه» إنك لم تُجِـر هذا الرجل ليـؤذينا، إنه رجل إذا صلى وقرأ بمـا جاء به «مـحمـد» يرق ويبكى، فنحن نتخـوف على شبابنا ونسائنا أن يفـتنهم، فَأْتِهِ فمره أن يدخـل بيته فليصنع فيه ما يشاء..

فمـشى «ابن الدغنّه» إليه فقـال له: يا «أبا بكر» إنى لم أُجِرك لتـؤذى قومك، إنهم قد كـرهوا مكانك الذى أنت فيـه وآذوا بذلك منك، فإما أن تدخـــل بيتك فتصنع فيه ما أحببت، وإما أن تُرجع إلىَّ ذمتى...!؟.

فقال «أبو بكر»: فإنى أرد عليك جـوارك وأرضى بجوار الله تعالى. فقام «ابن الدغنه» وقال: يا معـشر قريش إن «ابن أبى قحافة» قد رد علـى جوارى، فشأنكم وصاحبكم.

وبذلك عاد «أبو بكر»- رضي الله عنه - بنفس مطمئنة إلى مقارعـة طغيان قريش وتحمُّل أذاها.

خطبة مباركة

حين بلغ رسول الله ﷺ الخمسين من عمره الشريف توفيت زوجته «خديجة بنت خويلد»- رضي الله عنها - فحـزن عليها أشد الحزن، ثم خطـب «عائشة بنت أبى بكر» - رضي الله عنها - فغمرت الفرحة قلب «أبى بكر» وسرى السرور إلى جميع أهله وذويه.

وكان ﷺ قد رأى «جبريل»- عليه السلام - يحمل إليه صورة «عائشة» - رضي الله عنها - على سُرقة[2] من حرير، وقال له: إنها زوجتك فى الدنيا والآخرة.

(١) استبكى: قرأ فأبكى. (٢) السرقة: القطعة.

الصِّدِّيق رضي الله عنه

لم يأت هذا اللقب الكريم لـ«أبى بكر» عَفْواً، أوْ من فراغ بل كان له سبب يذكر، ويسجل بأحْرُفٍ من نور، ومداد من ضياء على صفحات التاريخ.

لما عاد النبىُّ ﷺ من رحلتى الإسراء والمعراج، غدا فى الصباح إلى مجتمع قريش عند المسجد الحرام (الكعبة)، فمر به «أبو جهل» وهو جالس يفكر، فقال ساخراً مستهزءاً:ـ هل من خبر جديد؟ فقال ﷺ : نعم؛ قال «أبو جهل»: ما هو؟ قالَ: قَدْ أُسْرى بى الليْلَة؟. قَال: إلى أين؟ قال: إلى بيت المقدس.

قال: ثم أصبحت بين ظهرانينا؟ قال: نعم. قَال: أرأيت إن دعوتَ قومَكَ، أتحدثهم بما حدثتنى به؟ قال: نعم.

فراح «أبو جهل» ينادى بطون قريش، فأقبلوا يجتمعون، ثم تحلَّقُوا حول رسول الله ﷺ فقص عليهم قصة الإسراء، فدهشوا وتعجبوا، واستنكروا ذلك، وأخذوا يسخرون ويكذبون، وظنوا به الظنون، حتى إِن بعض المسلمين من السامعين شكوا وارتدوا..

فذهب بعضهم إلى «أبى بكر» وقالوا له: إن صاحبك يزعم أنه جاء هذه الليلة بيت المقدس وصلى فيه ورجع إلى «مكة»!.

فقال «أبو بكر»ـ رضي الله عنه ـ: لئن كان قد قال ذلك فقد صدق..، فما تعجبكم من هذا؟ فوالله إنه ليخبرنى أن الخبر يأتيه من السماء، فى ساعة من ليل أو نهار فأصدقه، فهذا أبعد مما تعجبون منه.

ثم أقبل على مجلس رسول الله ﷺ وقال له: يا نبى الله أحدثت القوم أنك أتيت بيت المقدس الليلة؟ فقال: نعم..، فقال: أشهد إنك لصادق. ثم قال بعض الحاضرين: إذا كنت قد جئت بيت المقدس كما تزعم فَصِفْه لنا؛ يريدون بذلك التحدى والإحراج..!.

لكن الله تعالى جلّى لنبيه ﷺ صور بيت المقدس أمام عينيه فجعل رسول الله ﷺ يصفه. . ، و«أبو بكر» - رضي الله عنه - يثنى على أقواله ويقول: صَدَقْتَ. . صَدَقْتَ. . أشهد أنك لرسول الله. . ، حتى انتهى ﷺ من الوصف، والقوم سكوت وجوم كأن على رؤوسهم الطير، ثم التفت ﷺ إلى «أبى بكر» وقال: أنت يا «أبا بكر» الصِّدِّيق. . !.

واستحق - رضي الله عنه - منذ ذلك اليوم هذا اللَّقب العظيم، كما استحق ثناء الله تعالى عليه، بقوله سبحانه: ﴿وَالَّذِي جَاءَ بِالصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِ أُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾سورة «الزمر» الآية(٢٣).

فالذى جاء بالصِّدْق «محمد»ﷺ ، والذى صَدَّق به هو «أبو بكر» -رضي الله عنه-.

الفرج بعد الشدة

استمر «أبو بكر» - رضي الله عنه - مع رسول الله ﷺ فى احتماله أذى الكفار وصبره على ما يناله منهم.

وأخذ يرعى تجارته وينفق جلَّ وقته فى صحبة الرسول ﷺ يتلقى عنه ما يوحى إليه فيذيعه بين الناس، وينفق من حُرِّ ماله كل ما يستطيع ليعين من أسلم ويهدى من لم يسلم.

ولقد بلغت مدخراته قبل الإسلام أربعين الف درهم، أنفقها وأنفق معها أرباحه من تجارته بعد إسلامه فى سبيل نصر الإسلام، وعون الضعفاء من المسلمين.

وما كان أحوج المسلمين فى هذه الفترة إلى هذه الرعاية من «أبى بكر» فقد كان النبى ﷺ مشغولا بأمر الدعوة، وإيجاد السبيل إلى إذاعتها ونشرها، وتبليغها وكفالة النجاح لها ،بعد أن يئس من استجابة أهل «مكة»؛ فوجه همه إلى القبائل الأخرى، يعرض نفسه عليها ويدعوها إلى الله تعالى.

أخذ النبي ﷺ يعرض الإسلام على وفود الحجاج فى المواسم، فمنهم من يرده رداً جميلاً، ومنهم من يرده رداً غير جميل، حتى هيأ الله له وفد أهل «يثرب»، الذى تلقى الدعوة بالقبول، وحل الإسلام من قلوبهمّ محل الرضى، فانشرح صدر النبى ﷺ وأصحابه بهؤلاء الإخوة الطيبين الذين بايعوا النبى ﷺ عند «العقبة»[1] على مؤازرتِه وتأييده ونصره.

وبهذه المبايعة انفتح لرسول الله ﷺ والذين آمنوا معه باب الرجاء فى حُريةِ الدعوة إلى عقيدتهم، وانفتح لهم بابُ حُريةِ القيام بفرائض دينهم ودعوة غيرهم إلى الانضمام إليهم.

لذا أمر الرسول ﷺ عقب هذه البيعة أصحابه أن يلحقوا بإخوانهم اليثربيين، على أن يتركوا «مكة» متفرقين حتى لا يثيروا ثائرة قريش عليهم.

وبدأ المسلمون بالهجرة إلى «يثرب» فرادى، ثم فطنت قريش للأمر، فحاولت أن ترد كل من استطاعت رده إلى مكة لتفتنه عن دينه، أو لتعذبه وتنكل به، وبلغت من ذلك أنها كانت تحول بين الزوج وزوجته، وأنها كانت تحبس من تستطيع حبسه.

لا تعجل..

أقام الرسول ﷺ بمكة بعد أصحابه المهاجرين، ينتظر أن يؤذن له فى الهجرة، ولم يتخلف معه بمكة أحد إلا من حُبِس أو افتُتِن، إلا «على بن أبى طالب» و«أبا بكر الصديق»..

وكان «أبو بكر» ـ رضي الله عنه ـ كثيراً ما يستأذن الرسول ﷺ فى الهجرة فيجيبه: لا تعجل.. لعل الله يجعل لك صاحباً.

ففهم «أبو بكر» من ذلك أن الرسول ﷺ يؤخره ليصحبه فى الهجرة.

(١) العقبة: مكان فى وادى «منى»؛ هُو الآن مَوْضع الجمرات الثلاث التى يرميها الحجّاجُ بالحصى.

أخذت قريش تشدد الرقابة على النبى ﷺ ، وائتمرت فيما بينها، ثم أجمعت على قتله، وقررت أن تشترك كل عشيرة من عشائرها بفتى جَلْدٍ، فى العدوان عليه، حتى يتفرق دمه فى القبائل، ومن ثم يعجز بنو هاشم عن مواجهة قريش كلها.

وبينما كانت قريش تعد العدة لهذا الغدر الرهيب، كان «أبو بكر» ـ رضي الله عنه ـ يتخذ الأهبة للهجرة، فيشترى رواحل السفر، ويستأجر الدليل الذى سيقود الرحلة، ويجند أبناءه وبناته ومواليه فى ذلك!.

ولقد كان التوفيق من الله تعالى حليفه، والنجاح رائده، فَحَظِىَ بصحبة الرسول الكريم ﷺ فى أعظم رحلة عرفها التاريخ ـ القديم والحديث ـ.

وأعدت قريش فتيانها يتربصون ببيت رسول الله ﷺ ، بأيديهم السيوف المشرعة ليضربوه بها إذا خرج عليهم، ضربة رجلٍ واحد.

لكن الله تعالى كان فى حماية رسوله ﷺ من أذى الكفار والمشركين، فأخبره بمؤامرة قريش: ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ﴾ سورة الأنفال: الآية (٣٠).

لذلك أمر النبى ﷺ «على بن أبى طالب» ـ رضي الله عنه ـ أن يتسجى ببرده الحضرمى[1] الأخضر، وأن ينام فى فراشه؛ وقبل «على» كرم الله وجهه، القيام بهذه المهمة، والمغامرة الجريئة، فضحى بنفسه فى سبيل الله، وافتداء الرسول الأعظم ﷺ ؛ وهو يعلم أنهم لن ينالوه بأذى كما أخبره النبى ﷺ ، وأن الله يحفظه من كل سوء.

فلما كان الثلث الأخير من الليل، خرج ﷺ فى غفلة من فتيان قريش وهو

---

(١) البُرد: العباءة، والحضرمى: نسبه إلى «حضرموت» فى اليمن؛ وكانت صناعة المنسوجات بها من أجْود ما عُرِف آنذاك.

يردِّد قولَ الله تعالى: ﴿فأغشيناهم فهم لا يبصرون﴾ ثم اتجه إلى دار «أبى بكر» ـ رضي الله عنه ـ، فإذا هو يقظ ينتظره، ثم خرجا سوياً من خوخة[1] فى ظهر الدار، وانطلقا جنوباً نحو غار «ثَوْر» ليَختبئا فيه.

وكان «أبو بكر» ـ رضي الله عنه ـ أثناء الطريق، يمشى مرة أمام رسول الله ﷺ، ومرة خلفه، وتارة عن يمينه وأخرى عن شماله، فسأله النبى ﷺ متعجباً: ما هذا يا «أبا بكر».. ما أعرف هذا عنك؟ فقال: يا رسول الله أذكر الرصد[2] فأكون أمامك، وأذكر الطلب فأكون خلفك، ومرة عن يمينك ومرة عن شمالك.. لآمن عليك.

..وانتهى الرسول ﷺ وصاحبه إلى باب الغار، فدخل «أبو بكر» قبل رسول الله إلى الداخل يقيه بنفسه من المخاطر.

وبينما هما فى غفوة بعد عناء وسهر، أحس «أبو بكر» برسول الله يتقلب، فقال: ما بالك؟ بأبى أنت وأمى؟.

فقال ﷺ: جُحْر رأيته قد انهار فخشيت أن تخرج منه هامة تؤذيك أو تؤذينى، فقال «أبو بكر»: فأين هو يا رسول الله؟ فأخبره، فسده «أبو بكر» بعقبه، فقال له ﷺ:

ـ رحمك الله مِنْ صِدِّيق، صدقنى حين كذبنى الناس، ونصرنى حين خذلنى الناس، وآمن بى حين كذبونى، وآنسنى فى وحشتى، فأى مِنَّةٍ لأحدٍ علىَّ كمنتك[3].

وكانت عنكبوت قد نسجت على باب الغار فسترته، وجاءت يمامتان بريتان فوقفتا بفَمِ الغار..

---

(١) الخوخة: الباب الصغير فى الباب الكبير.
(٢) الرَّصد: المتربصون.
(٣)رواها ابن كثيرٍ فى السيرة النبوية؛ نقلاً عن ابن إسحاق المطلبىّ.

ولما أصبح فتيان قريش من غفلتهم، دخلوا الدار، وأقتحموا الفراش فلم يجدوا فيه رسول الله ﷺ، بل وجدوا «عليا» ـ كرم الله وجهه ـ مكانه فسقط فى أيديهم. . ، وتراجعوا مخذولين مدحورين مَذْمومين .

ثم خرجوا من «مكة» ومعهم «أبو جهل» إلى دار «أبى بكر»، وسألوا ابنته «أسماء» عن أبيها وعن رسول الله ﷺ فقالت: لا أدرى، فلطمها «أبو جهل» لطمة شديدة أطارت قرطها (١) .

ثانى اثنين إذ هما فى الغار..

وأطلقت قريش فتيانها فى كل ناحية يبحثون عن «محمد» ﷺ وصاحبه، وجعلت فيهما مائة ناقة لمن يردهما حيين أو ميّتَيْن، فراحوا يقتفون الأثر حتى وصلوا إلى جبل «ثور»، فتسلقوه وأرسلُوا إلى باب الغار بعضهم ليروا ما بداخله. . ، فلما أحس «أبو بكر» بوقع الأرجل التصق برسول الله ﷺ، وتصبب منه العرق، وسالت دموعه، وهمس إلى رسول الله ﷺ قائلاً:

ـ لَوْ نظر أحدهم تحت قدميه لرآنا . .

وكان الرسول ﷺ فيما كان فيه من ذكر الله تعالى والاطمئنان إلى عونه وحمايته، فلما رأى ما بصاحبه، همس له يا «أبا بكر» ما ظنك باثنين الله ثالثهما. . لا تحزن إن الله معنا . .

وأدار فتيان قريش أبصارهم . . ، فلما رأوا ما على باب الغار من خيوط العنكبوت قفلوا راجعين يقولون: إن عليه العنكبوت من قبل أن يولد محمد

ثم أنصرفوا من حيث أتوا خائبين .

﴿إلاَّ تنصُرُوهُ فَقَدْ نصرَهُ اللَّهُ إذْ أَخرجَهُ الَّذينَ كفَرُوا ثَانيَ اثْنَيْنِ إذْ هُمَا فِي الْغَارِ إذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لا تَحْزَنْ إنَّ اللَّهَ مَعَنَا فَأَنزَلَ اللَّهُ سكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا

(١) قرط : الحلق ، حلية الأذنين .

وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَىٰ وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ [التوبة الآية رقم ٤٠] .

أقام الرسول ﷺ وصاحبه بالغار ثلاثة أيام وكان «عبدالله بن أبى بكر» يقضى نهاره مع قريش يسمع أخبارهم وما يأتمر به القوم، وما يقولونه فى شأن الرسول ﷺ وأبيه، ثم يأتيهما إذا أمسى، فيخبرهما بكل كبيرة وصغيرة .

وكان «عامر بن أبى فهيرة» - مولى «أبى بكر» - يرعى فى رعيان أهل مكة، فإذا حل الغروب أراح عليهما[1] غنم «أبى بكر»، فاحتلب لهما ليشربا، فإذا عاد «عبدالله بن أبى بكر» من عندهما إلى مكة، تبعه «عامر» ليقفّى على آثار أقدامه .

فلما مضت الأيام الثلاثة، وسكن عنهما الطلب، خرج الرسول ﷺ وصاحبه من مخبئهما، وقد جاءهما الدليل «عبد الله بن أريقط» راكباً بعيره ومعه الراحلتين اللتين أعدهما «أبو بكر» من قبل للسَّفَر .

وقدم واحدة للرسول ﷺ وهى أفضلهما[2]، فاعتلاها، وركب «أبو بكر» الأخرى، وجاءتهما أيضا «أسماء بنت أبى بكر» - رضي الله عنها - بسفرتها[3]، ونسيت أن تجعل لها عصاما[4]، فحلت نطاقها وشقته نصفين، ثم علقت السفرة بأحدهما وتمنطقت بالآخر، فسماها رسول الله ﷺ : ذات النطاقين، وبشرها أن الله سوف يبدلها بنطاقها هذا نطاقاً غيره فى الجنة .

وحمل «أبو بكر» - رضي الله عنه - جميع ما بقى له من ماله، وهو خمسة آلاف درهم.

فلما بلغا المدينة تلقى الناس الرسول ﷺ وصاحبه بالبشر والترحاب، والأناشيد والزغاريد. . ، وأشرقت المدينة بحلوله ﷺ فيها؛ وسرى السرورفى جنباتها، ونزل ﷺ عند « أبى أيوب الأنصارى»[5] ضيفاً حتى بنى مسجده

(١) أراح عليهما : جاءهما عند الرواح بالغنم، وهو وقت الغروب.
(٢) هي « القصواء» .
(٣) السفرة : الزاد من طعام وغيره .
(٤) العصام : الرباط .
(٥) اسمه : «خالد بن زيد»

وحُجراته من حوله .

ونزل «أبو بكر» ب«السنح» من ضواحى المدينة على «خارجة بن زيد» من بنى الحارث من الخزرج، فلما آخى النبى ﷺ بين المهاجرين والأنصار، كان «أبو بكر» و «خارجه» أخوين .

ولقد توطدت العلاقة بينهما حتى إن « أبا بكر» تزوج من ابنة «خارجة» (حبيبة)، التى ولدت له ابنته «أم كلثوم» .

ولقد لحق بـ«أبى بكر» أهله وأولاده، وفيهم زوجته «أم رومان» وابنته «عائشة»، وأقاموا بدار تجاور دار «أبى أيوب الأنصارى» .

خيرمقام

وأصبح النبى ﷺ وأصحابه بين أناس هم أعز عليهم من أنفسهم، وأكرم عليهم من بَنيهم، أولئك هم أنصار الله ورسوله من الأوس والخزرج، الذين أثنى الله عليهم بقوله الكريم : ﴿ وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ(١) وَالإِيمَانَ(٢) مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ(٣) وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ(٤) فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾[الحشر الآية: ٩]

الوزير

وصار «أبو بكر» - رضي الله عنه - بمنزلة الوزير الأول لرسول الله ﷺ يستشيره فى كل أمر، ويعرض عليه كل تدبير، وينتدبه لمهام الأمور و الشؤون ، ويعرض عليه كبريات المسائل، فلم تمر حادثه، أو يناقش أمر، إلا ولأبى بكر فيه رأى و تفكير.

كما كان «عمر بن الخطاب» - رضي الله عنه - بمثابة الوزير الثانى، وندر أن يرد اسم «أبى بكر» على لسان النبى ﷺ فى شأن من شؤون الدين والدنيا إلا وردفه اسم

(١) الدار : المدينة : (٢) أي : يمكن الإيمان من قلوبهم
(٣) الخصاصة : الفقر والحاجة (٤) الشح : شدة البخل .

«عمر بن الخطاب» .

وبنى[1] الرسـول ﷺ بـ«عائشـة» فازداد «أبو بكر» مـلازمة للرسـول ﷺ وملاصقة له؛ وقُرْباً منه .

شهد «أبو بكر» ـ رضي الله عنه ـ جـميع الغزوات، لم يتخلف عـن واحدة منها، ولم يبعـد عن موقف، وكان مكانُهُ فى جمـيعها لصـيق رسول الله ﷺ ، على رأس جماعة من المهاجرين والأنصار، يلتفون حوله، ويؤلفون من أنفسهم درعاً لوقايته .

فى بدر

وفى يَوْم غزوة «بدر الكُبْرى» استشار النبى ﷺ أصحابه، بعد أن أفْلتْ قافلة «قـريش»، وصمَـمِّت هى على القـتال، فـأشـار «أبو بكر» بالذهاب إلى «بدر»، والتقدم للحرب، وكذلك «عمر»، وسائر الصحابة ـ رضي الله عنهم أجمعين ـ .

وفى أول المعركة قرر النبى ﷺ أن يكون فى أول الصفوف، ولكن الصحابى الجليل «سعد بن معاذ» أشار عليه أن لا يفعل ذلك، لأنه حينئذٍ سيكون أول هدف لسهام قريش، وقال :

ـ يا نبى الله نبنى لك عريشاً[2] تكون فيـه، لتدير المعركـة منه، ولكى تشرف على الميدان، فتستطيع تدبير ما يلزم . فنزل النبي ﷺ على مشورته .

وكان «أبو بكر» ـ رضي الله عنه ـ مـن حراس العريش، مـلاصقاً لـرسول الله، ليكون فداءً له .

فلما اسْـتَعَرتْ نيـران القتال اشـتغل رسوله الله ﷺ بالدعـاء إلى الله تعالى واشتدَّتْ ضراعتُهُ حتى سقط رداؤه من فوق كتفيه، وأشفق أبو بكر الصديق عليه، فقـال له : يا رسول الله بَعْضَ مـناشَدَتِكَ ربّك، فـإن الله منْجِزٌ لك مـا وعدك، واستـجاب الله تعـالى دعاء نبيــه ونداءه، فأيده بملائكتـه، وثبتـه ونصره . . ﴿ إذْ

---

(١) بنى : تزوَّج .   (٢) العريش : الخيمة .

تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ ﴾ [الأنفال الآية: ٩] .

وانتصر المسلمون نصراً مؤزرا، ورجعوا إلى المدينة ومعهم سبعين أسيراً من قريش .

كان «أبو بكر» ـ رضي الله عنه ـ أشبه الناس خُلُقاً برسول الله ﷺ ، ينزع إلى الرحمة، ويجنح إلى الرفق، ويؤثر الحسنى، ولقد تمثلت هذه الصفات علي أوضح ما تكون فى مسألة أسرى بدر .

إذ استشار النبى ﷺ أصحابه فى أمر الأسرى ، فأشار «عمر» بقتلهم لأنهم رؤوس الكفر وأئمة الضلال ، وما أقبلوا إلا عادين يريدون البطش بالمسلمين . . ، وأشار «أبو بكر» باستبقائهم فقال : يا نبى الله هم بنو العم والعشيرة أرى أن تأخذ منهم فدية تقوى بها أصحابك ، وعسى الله أن يهديهم إلى الإسلام .

فقال النبى ﷺ : مَثَلُ «أبى بكر» كمثل «إبراهيم» إذ قال: ﴿فَمَن تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾[إبراهيم الآية: ٣٦] ومثل «عمر» كمثل «نوح» إذ قال: ﴿رَّبِّ لا تَذَرْ عَلَى الأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا﴾ [نوح الآية: ٢٦].

وبعد أن راجع النبى ﷺ فى أمر الأسرى باقى أصحابه ، مال مع الأكثرية إلى رأى «أبى بكر» ، فليس كالعفو شئ يفتح القلوب المغلقة ، فأعلن أن كل أسير يستطيع أن يفدى نفسه بالمال ، أوبتعليم عشرة من أبناء المسلمين الكتابة والقراءة ، كما أطلق سراح بعض الأسرى دون فداء لعجزهم ، أو مراعاة لظروفهم ، وكان ذلك بموافقة الصحابة ـ رضوان الله عليهم ـ.

يوم أحد

رجعت قريش من بدر مجللة بالعار، وقد غشيها الذل وعلاها الصغار، ولكنهم لم يغمض لهم جفن ولم يهدأ لهم بال ، وأنّى لهم ذلك !! هم العرب الشُم الأباه الذين لا يرضون بالذل ولا يقيمون على الضيم، تستبد بهم الحمية . .

حمية الجاهلية الأولى، ويرددون مع شاعرهم قوله :

فلا يقيم على ضَيْمٍ يُراد به

إلا الأذلّان عيرُ الحيِّ والوتد

فتنادوا للأخذ بالثأر، وجمعوا جموعهم ليوم «أُحُد..» .

وخرجت قريش بعددها وعتادها، تحدوها الحماقة للأخذ بالثأر واسترداد الكرامة .

فالتقوا بالمسلمين عند سفح جبل أحد، في ظاهر المدينة، فدارت الدائرة وجه النهار على قريش، ولكن لم يلبث مصير المعركة أن يتغير آخر النهار، بمخالفة رماة المسلمين لأوامر النبي ﷺ وتركهم مواقعهم وميلهم إلى العسكر، بدون مشورة الرسول ليشاركوا بقية الجيش في جمع الأموال والأمتعة التي خلفها المشركون وراءهم، فانكشف ظهر المسلمين، واستغل قائد خيّالة المشركين ـ خالد بن الوليد ـ الفرصة وانقضّ على المسلمين من خلفهم، فذعر المسلمون واختلط عليهم الأمر وصار يضرب بعضهم بعضاً .. وهم لا يشعرون .

وأشيع في الناس أن «محمداً» ﷺ قد قُتِل، فتفرق القوم، ولم يثبت إلا نفر قليل حول رسول الله ﷺ يحمونه ويذودون عنه، ويفدونه بأنفسهم، وكان على رأس هؤلاء النفر « أبو بكر الصديق» ـ رضي الله عنه ـ .

ومرّت الأيام

كانت حياة المسلمين حتى قبل فتح مكة، حياة غزو ودفع، وجهاد ونضال..، فكان جلاء «بني النضير»، وغزوة «الخندق» و«بني قريظة»، وما تخللها من غزوات صغيرة محدودة وسرايا، حتى اطمأن الرسول ﷺ إلى منعة المدينة، وآن له أن يوجه خطته توجيهاً جديداً يمهد به لإكمال دينه، فكان لأبي بكر ـ رضي الله عنه ـ مواقف زادت المسلمين اقتناعاً بأنه الرجل الذي يلي الرسول ﷺ مكانةً في نفوسهم .

صلح الحديبية

بعد مضي ست سنوات على هجرة الرسول ﷺ إلى المدينة، رأى في منامه رؤيا بأنه سيدخل هو وأصحابه المسجد الحرام - إن شاء الله - آمنين محلّقين رؤوسهم لا يخافون . .

فأخبر الصحابة بذلك، وأذّن في الناس بزيارة البيت الحرام، وخرج في ألف وخمسمائة من أصحابه معتمرين، قد قلدوا البُدْن[1] وأشعروا الهَدْيَ . .[2] .

وساروا حتى وصلوا «الحديبية» ، وهي بئر ماء قديمة على الطريق إلى مكة، وهي أقرب إلى «مكة» منها إلى «المدينة» ، فمنعتهم قريش من دخول «مكة»، وقالوا: لن يدخلها علينا عنوة. . ، وبدأ التفاوض بين الطرفين، ثم انتهى بعقد صلح، وكان في بعض الشروط التي قبلها رسول الله ﷺ وظن فيها بعض المسلمين مساساً بحقوقهم وكرامتهم، واعتبروها تنازلاً، فتذمر كثير منهم، وكان على رأس هؤلاء «عمر بن الخطاب» - رضي الله عنه - .

ذهب «عمر» إلى «أبي بكر» فقال له : ألم يخبرنا بأننا سندخل المسجد الحرام؟ قال «أبوبكر»: بلى، ولكنه لم يخبرنا بأننا سندخله عامنا هذا، فقال «عمر»: أولسنا بالمسلمين؟ قال «أبو بكر»: بلى، قال «عمر»: أوليسوا بالمشركين؟ قال «أبوبكر»: بلى، فقال «عمر»: علام إذاً نعطي الدنيّة في ديننا؟

فأجابه «أبو بكر»: يا ابن الخطاب إلزم غِرْزَهُ، فإني أشهد أنه رسول الله .

وهكذا آمن «أبو بكر» وصدّق بحكمة رسول الله ﷺ ، وكان لموقفه أثر كبير في تسكين النفوس وتثبيتها، وهذا الموقف يذكرنا بموقفه - رضي الله عنه - من حادثة الإسراء .

فلما نزلت سورة «الفتح» وأدرك الناس حكمته ﷺ في قبول الصلح، وآمنوا

---

(١) قلدوا البدن : جعلوا في أعناقها القلائد .

(٢) أشعروا الهدى : جعلوا لها شعاراً ينم عن كونها هدية إلى بيت الله الحرام .

وصدّقوا بأن عهد «الحديبية» كان فتحاً مبينا، وبأن «أبا بكر» - رضي الله عنه - كان صادقاً صدّيقاً .

جهاده بماله . رضي الله عنه .

وكما تطوع أبو بكر بنفسه في سبيل الله يعرضها للمكاره، ويزج بها في الخطوب والشدائد، لم يبخل بشيء من ماله في هذا السبيل، بل أنفق جميع ما كان يملكه فيها.

لقد جاء الإسلام وهو صاحب أربعين ألف درهم، وأقرضها لله، طيبة بها نفسه، مطمئناً بها فؤاده .

وكانت الوجوه التي أنفق فيها ماله كثيرة مختلفة :

فقد بدأ بشراء المستضعفين الأرقاء الذين أسلموا وتعرّضوا للعذاب والفتنة من طواغيت قريش، وقد بلغ عددهم سبعة - أو عشرة -، منهم «بلال بن رباح» و«عامر بن فهيرة» وغيرهما .

واستمر بعد ذلك في إعانة الفقراء وتجهيز الغزاة وقرى الضيوف، وما إلى ذلك من المكارم والمبرات، وكان أعظمها على الإطلاق تبرعه بجميع ماله - ابتغاء وجه الله تعالى - لتجهيز جيش العسرة في غزوة تبوك، في السنة التاسعة من الهجرة، فكان جديراً بثناء الله - جل وعلا - عليه في قوله : ﴿وَسَيُجَنَّبُهَا الأَتْقَى ○ الَّذِي يُؤْتِي مَالَهُ يَتَزَكَّىٰ ○ وَمَا لأَحَدٍ عِندَهُ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَىٰ ○ إِلاَّ ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الأَعْلَىٰ ○ وَلَسَوْفَ يَرْضَىٰ﴾[الليل الآيات: ١٧-٢١] ولقد تمدح النبي ﷺ بسخاوة نفس «أبي بكر» فقال(١) :

[إن من أمنّ الناس على في صحبته وماله «أبا بكر»، ولو كنت متخذاً غير الله خليلاً لاتخذت أبا بكر خليلاً، ولكن أخوة الإسلام] .

(١) الحديث (مسلم وأبو داود والنسائي وابن ماجة) .

أمير الحج الأول

لما كان الحج تمام أركان الإسلام، فإن الرسول الكريم ﷺ ، قد أمر «أبا بكر» ـ رضي الله عنه ـ في السنة التاسعة من الهجرة أن يحج بالناس، وألحق به « علي بن أبي طالب» ـ كرّم الله وجهه ـ ليؤذنا الناس ببيان في سورة «براءة» ـ «التوبة»، فأعلناه في الناس يوم الحج الأكبر، وأعلنا أيضاً : [أنه لا يحج بعد العام مشرك، ولا يطوف في البيت عريان] .

ومن يومئذ إلى اليوم لم يحج إلى البيت الحرام مشرك، ولن يحج . . وفي السنة العاشرة من الهجرة حج رسول الله ﷺ ، حجة الوداع، وحج معه «أبو بكر» فلما وقف بعرفة وخطب الناس خطبته الجامعة، نزل قول الله تعالى ﴿ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلامَ دِيناً ﴾[المائدة الآية: ٣] .

عندئذ أحس «أبو بكر» ـ رضي الله عنه ـ أن مهمة رسول الله ﷺ قد انتهت، وأنه يوشك أن يودع العالم ليلقى وجه ربه، ففاضت نفسه حُزناً وأسىً وخنقته العبرات.

مرض النبي ﷺ

ولم يطل مقام النبي في المدينة بعد عودته من الحج، حتى جهّز جيشاً كثيفاً إلى الشام، جعل فيه المهاجرين الأولين، منهم أبو بكر وعمر، وأمَّر على هذا الجيش «أسامة بن زيد» ـ رضي الله عنهما ـ وعسكر هذا الجيش بـ«الجُرْف» خارج المدينة تمهيداً لتَسْييره إلى الشام .

ولكنه ترامى إليه أن الرسول ﷺ قد مرض، فلم يتحرك إلى غرضه، ثم اشتد الوجع بالنبي ﷺ شدة ثارت مخاوف الناس عليه .

وثقل المرض به «عليه الصلاة والسلام» ولم يستطع الخروج للصلاة بالمسلمين

فأمر أن يصلي «أبو بكر» بالناس بدلاً منه، فراجعته «عائشة» و«حفصة» بأن «أبا بكر» رجل أسيف، متى قام مقام الرسول لم يُسمع الناس، وطلبتا إقامة «عمر» على الصلاة، فقال الرسول ﷺ لهما :

- { إنكن صواحب يوسف . . ، مُروا «أبا بكر» فليصلِّ بالناس }.

فصلّى «أبو بكر» بالناس، وغَابَ « أبا بكر» يوماً، فتقدم «عمر» للصلاة، وكان جهير الصوت، فلما سمعه النبي ﷺ من حجرة «عائشة» قال: فأين «أبو بكر»؟ يأبى الله ذلك والمسلمون !!.

وأحس النبي ﷺ ببعض العافية، فخرج إلى المسلمين في المسجد فقال فيما قاله لهم :

{ إن عبداً من عبادِ الله قد خيّره الله بين الدنيا وبين ما عنده، فاختار ما عند الله } .

ثم أمسك . . . فأحس «أبو بكر» أنه ﷺ ينعي نفسه، فأجهش في البكاء وقال: نحن نفديك بأنفسنا ونسائنا .

وأمَر الرسول الكريم - ﷺ - أن تُسَدَّ أبواب المسْجِد، إلا باب «أبي بكر» ثم أشار إلى الصدِّيق وقال :

{ إني لا أعلم أحداً كان أفضل في الصحبة عندي يداً منه، وإني لو كنت متخذاً في العباد خليلاً لاتخذت «أبا بكر» خليلاً، ولكن صحبة وإيخاء وإيمان، حتى يجمع الله بيننا عنده، لا تَبْقَيَنَّ في المسجد خوخة إلا خوخة «أبي بكر» } .

وفي اليوم الذي قبض فيه رسول الله ﷺ خرج معتمداً على «علي بن أبي طالب» و«الفضل بن العباس» وكان «أبو بكر» يصلي بالناس ساعتئذ ولما أحس المسلمون بالنبي ﷺ فَرَّجوا[1] له، وأدرك «أبو بكر» أنهم لم يفرجوا إلا لرسول الله ﷺ فتأخّر عن مكانه - كإمام -، فأومأ إليه النبي ﷺ : أن كما أنْتَ،

(١) فرَّجوا : وسَّعوا .

وجلس عن يسار «أبي بكر» فصلّى قاعداً ، ثم عاد إلى البيت .

وما لبث أن عاودته الحمى، وبعد زمن وجيز اختار الرفيق الأعلى، وترك هذه الدنيا، وقد أكمل الله للناس دينه، وقامت على يد الرسول الأعظم ﷺ دولة الإسلام .

سكينة «أبي بكر»

لما توفي رسول الله ﷺ أصابت المسلمين هزة شديدة، فمنهم من أصابه الهلع واستولى عليه الجزع، ومنهم من كَذَّب بموته، حتى إن «عمر بن الخطاب» ـ رضي الله عنه ـ هدد القائلين بوفاة الرسول بالقتل .

ولم يهدأ الناس حتى أقبل «أبو بكر» من «السنح» فدخل على الناس رسول الله ﷺ وهو مُسجّى في ناحية البيت، وكشف عن وجهه الشريف وقلبه وقال : بأبي أنت وأمي ما أطيبك حياً وميتاً . . .

ثم خرج إلى الناس يخطبهم فقال :

أيها الناس . . ، من كان يعبد محمداً فإن محمداً قد مات، ومن كان يعبد الله، فإن الله حيٌّ لا يموت، ثم تلا قول الله تعالى: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ انقَلَبْتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئاً وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ﴾[آل عمران الآية : ١٤٤] .

عندئذ سكن الناس وهدؤا .

يوم السقيفة

اجتمع الأنصار في سَقِيفَة «بني ساعدة» وتشاوروا في من يكون خليفة لرسول الله ﷺ ، وأرادوا أن يُنصِّبوا «سعد بن عبادة» خليفة .

وترامى خبر الاجتماع إلى المسلمين في المسجد، فأسرع «أبو بكر» ومعه «عمر»

و«أبو عبيدة» إلى حيث اجتماع الأنصار ليتداركوا الأمة قبل أن تتفرق .

وصل الثلاثة وجلسوا مع الحاضرين ، واستمعوا إلى حديث الأنصار، وأخذوا يدرسون الموقف في تبصر وبصيرة، فشرح المهاجرين وجهة نظرهم، كما بيّن الأنصار فضلهم في نصرة الإسلام وتأييد الرسول ﷺ ، وبعد أخذ وردّ، وقف «أبو بكر» خطيباً، فحمد الله وأثنى عليه، وذكر رسول الله ﷺ ، وما جاء به، ثم قال :

ـ أيها الناس، نحن المهاجرون أول الناس إسلاماً، وأَمَسُّهُم (١) رحماً برسول الله ﷺ ، أَسْلَمْنا قبلكم، وقُدِّمنا في القرآن عليكم، فقال تبارك وتعالى: ﴿وَالسَّابِقُونَ الأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالأَنصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُم بِإِحْسَانٍ﴾ [التوبة الآية: ١٠٠] فنحن المهاجرون وأنتم الأنصار إخواننا في الدين وشركاؤنا في الفيء، وأنصارنا على العدو، أما العرب فلم تعرف هذا الأمر إلا لهذا الحيّ من قريش، فمنا الأمراء وأنتم الوزراء .

فاستراح الجميع إلى هذا القول .

وتقدم «عمر بن الخطاب» وبايع «أبابكر»، وتبعه «أبو عبيدة» ثم بايعه الأوس ثم الخزرج، ثم رجع إلى المسجد فبايعه الناس كافة .

ولما تمت البيعة لـ«أبي بكر» ألقي في الناس خطبةً فقال بعد أن حَمِد الله وأثنى عليه :

ـ أيها الناس، إني وليت عليكم ولست بخيركم، فإن أحسنت فأعينوني وإن أسأت فقوّموني، ألا إن أقواكم عندي الضعيف حتى آخذ له الحق، وأضعفكم عندي القويُّ حتى آخذ الحق منه أطيعوني ما أطعت الله فيكم، فإن عصيته فلا طاعة لي عليكم، الصدق أمانة، والكذب خيانة، قوموا إلى صلاتكم يرحمكم الله . .

(١) أمسّهم : أقربهم .

استخلاف «أبي بكر»

كان تسليم جماعة المسلمين بإمامة «أبي بكر» قائماً على سابقته في الإسلام، وتقديم الرسول الكريم له ومحبته إياه، فقد أسنَد إليه وظيفة (إمامة) الناس بالصلاة أثناء مرضه الذي انتهى بوفاته ﷺ، وجعله أميراً على الحج (الأول) في السنة التاسعة من الهجرة .

وقد كان «أبو بكر» - رضي الله عنه - جديراً بهذا المنصب الجليل، فهو أول من أسلم من الرجال، وهو الذي صاحب النبي ﷺ منذ بدء الوحي، وكان داعية إلى الدين بجوار الرسول الكريم، وعلى يديه دخل في الإسلام كثير من السابقين الأولين من كبار الصحابة، وهو الذي دافع في مكة عن ضعفاء المسلمين، وبذل أمواله في سبيل رعايتهم، وتحرير رقاب الأرقاء المستضعفين منهم، الذين كانوا يعذبون في الإسلام، ووزيره الأول، ولذلك كان - رضي الله عنه - أقدر الصحابة وأولاهم على فهم الدِّين، والقيام بأمرِ الناس .

(قاصمة و.. عاصمة)

ما كاد خبر وفاة الرسول ﷺ ينتشر في جزيرة العرب حتى هب المتنبئون الأفّاكون يهتبلون الفرصة وانتقضت معظم القبائل مرتدة، وامتنع أكثرهم عن دفع الزكاة، ولم يثبت على الإسلام سوى المدينة والطائف، وما بينهما من القبائل .

لقد منعت الزكاة قبائل «عبس» و«ذبيان» ومن والاها من «غطفان» و«فزارة» و«بني كنانة» وبعض بطون «بني تميم» .

أما المتنبّون فقد استمعت لهم قبائلهم بدافع العصبية، فاستمع كثير من «بني أسد» لـ«طُلَيحة بن خُوَيلِد الأسدي» حين ادعى النبوة .

واستمع كثير من «بني حنيفة» إلى «مُسَيْلمة الكذّاب»؛ واستمع أهل اليمين إلى «الأسود العنسي» واستمع بنو تميم إلى «سجاح بنت الحارث».

واستمع أهل «عُمان» إلى ذي التاج لقيط بن مالك» .

بعث جيش «أسامة»

كان رسول الله ﷺ - كما سبق وعلمت - قد أعد جيشاً كبيراً، أثناء مرضه الأخير، جنّد فيه معظم كبار الصحابة، كأبي بكر وعمر وأبي عبيدة وسعد بن أبي وقاص، وحشد فيه خلاصة جنُد المسلمين. وجعل على رأس الجيش «أسامة بن زيد بن حارثة» وأمره بالسير إلى المكان الذي قُتل فيه أبوه وجعفر بن أبي طالب وعبدالله بن رواحة، في غزوة «مؤتة» على حدود فلسطين، سنة ثمان من الهجرة، ليؤمّن الحدود بين العرب والروم.

ولكن اشتداد المرض بالرسول ﷺ حمل «أسامة» على الانتظار والترقّب بـ«الجرف» - شمالي المدينة - . .

فلما اختار الله رسوله إلى جواره، وجاءت أخبار الفتن التي ملأت أرجاء الجزيرة، إرتأى كثير من الصحابة، منهم «عمر بن الخطاب» إرجاء بعث «أسامة»، وعرضوا رأيهم على الخليفة «أبو بكر» قائلين له :

- إن هؤلاء جل المسلمين، والعرب على ما ترى قد انتقضت بك، فليس ينبغي أن تفرق عنك جماعة المسلمين.

فغضب «أبو بكر» غضباً شديداً، واستنكر أن يبدأ عمله بتعطيل جيش كان الرسول ﷺ، قد أمر بتسييره، وقال :

(والله لو ظننت أن السباع تخطفني لأنفذت بعث أسامة كما أمر به الرسول ﷺ ولن أرد قضاء قضى به رسول الله، ولو لم يبق في القرى غيري لأنفذته).

وعاد بعض الصحابة يقترحون على «أبي بكر» أن يغيِّر رئاسة الجيش، فيستبدل بأسامة بن زيد - الذي لم يبلغ العشرين من عمره - رجلاً أقدم سناً، من ذوي التجربة، ولكن «أبا بكر» أبى أن يسمع لأحد في هذا الموضوع وقال مستنكراً :

- أيستعمله رسول الله ﷺ وأنزعه ؟؟.

ولكنه ـ ﷺ ـ استأذن أسامة في استبقاء «عمر بن الخطاب» معه في المدينة؛ ليكون له مُستشاراً وعوناً .

ورحل جيش «أسامة» وخرج «أبو بكر» يودعه ماشياً على رجليه، و«أسامة» راكب على جواده، فقال «أسامة»: إما أن تركب يا خليفة رسول الله، وإما أن أنزل، فقال «أبو بكر»: والله لا تنزلنَّ ولا أركب، وما عليَّ أن أغبِّر قدميَّ في سبيل الله ساعة» .

ثم وقف في الجيش يخطبه ويوصيه ، فقال :

ـ لا تخونوا، ولا تغلُّوا، ولا تفسدوا، ولا تُمثِّلُوا، ولا تقتلوا طفلاً ولا شيخاً ولا امرأة، ولا تحرقوا نخلاً، ولا تقطعوا شجرة مثمرة، ولا تذبحوا شاة ولا بقرة ولا بعيراً إلا لأكله. . ، اندفعوا باسم الله .

وغزا «أسامة» غزوته، وعاد ظافراً منتصراً، بعد أن حقق الأغراض التى بُعث من أجلها وتلقى «أبو بكر» قائده وجيشه بظاهر المدينة بالبشر والترحاب.

وكان لمسير هذا الجيش من الأثر فى ترويع نفوس المرتدين والمتنبئين من العرب أكثر مما لو كان لم يبرح المدينة.

تأديب مانعي الزكاة

لم يشهد التاريخ عزيمة اجتمعت لها ما شاءته من القوة والتصميم مثل ما كان ذلك لأبى بكر، حين قام بالأمر وسط فتن ثائرة، وارتداد من العرب عن الدين الحنيف وتواطؤ يكاد يكون إجماعاً على ترك ركن من أركان الإسلام، وهو الزكاة.

لقد اجتمعت القبائل التى منعت الزكاة، وحشدت جموعاً هائلة وتقدَّمت حتى أصبحت على مقربة من المدينة، وبعثت وفودها إلى الخليفة الصِّدِّيق لتفاوض في منع الزكاة مع الاكتفاء بإقامة الصلاة.

فجمع «أبو بكر» كبار الصحابة يستشيرهم فى قتال من منعوا الزكاة، فأشار فريق منهم بعدم قتالهم، وأن يستعين بهم على المتنبئين والمرتدين، ولكن «أبا بكر» رفض ذلك الرأى، وصمم على قتال مانعى الزكاة، وقال:

ـ (والله لو منعونى عقالاً كانوا يؤدونه لرسول الله ﷺ لقاتلتهم عليه).

فرجعت الوفود إلى قبائلها، وبيتوا أمرهم على مهاجمة المدينة منتهزين فرصة خلوها من الجند بعد سفر جيش «أسامة»، ولكن «أبا بكر» نشط لقتالهم أشد النشاط، وخرج بالناس، فباغت تلك الجموع وأجلاهم عن مواقعهم، وأصبحت المدينة فى مأمن بعد ذلك، بما تحقق لها من نصر.

ثم أتت القبائل بمال الزكاة، وأدُّوه إلى خليفة رسول الله ﷺ .

حروب «الردّة»

وبلغت عزيمة «أبى بكر» ـ رضي الله عنه ـ قمتها وذُروتها حين أعلن أنه سيقود الجيوش بنفسه لمواجهة أعداء الإسلام من المتنبئين والمرتدين، ولكن كبار الصحابة ـ وعلى رأسهم «على بن أبى طالب» ـ رضي الله عنه ـ أقنعوه بأن الخير فى أن يبقى فى المدينة، ويوجه الجيوش ويدير الأمور.

وعلى ذلك جَيَّش الخليفة الجيوش، ووزع على الجند أحد عشر لواء، وجعل على كل لواء أميرا، وسيَّرهم إلى الجهات المختلفة.

فجعل «خالد بن الوليد» فى «بنى أسد»، فإذا فرغ منهم سار إلى «مالك بن نويره» زعيم «بنى تميم» فى البطاح.

وجعل «عكرمة بن أبى جهل» على رأس اللواء الثانى ووجهه لقتال «مسيلمة» ـ كذاب «بنى حنيفة» ـ باليمامة.

ثم جعل «شُرَحْبيل بن حَسْنة» على اللواء الثالث، ليعاون «عكرمة» ثم وجه خمسة ألوية إلى الجنوب لقتال المرتدين باليمن وكنده وحضر موت والبحرين وعُمان.

ثم وجه ثلاثة ألوية إلى الشمـال لقتال «قضاعـة» و«بنى سليم» ومن معهم من «هوازن» وأمرهم أن يواصلوا زحفهم إلى الشام.

وقد أمر «أبو بكر» قُوّاده بأن لا ينتقل أحدهم من قتال جماعة تغلَّب عليها إلى قتال أخرى حتى يستأذنه، وذلك إيماناً منه بأن وَحْدَةَ القيادة فى الحرب هى العامل الأول من عوامل النصر.

وسارت قوات المسلمين تحت هذه القيادات إلى أهدافها بعزم شديد، وتصميم قوى وأكيد، فحققت جميع أهدافها، وبذلك توحدت الجزيرة العربية وأصبحت جميعها تدين بدين الله الواحد.

جمع القرآن الكريم

استشهد فى حروب الردة كثير من الصحابة، ولا سيما بعض حفظه القرآن الكريم، فدعا هذا «عمر بن الخطاب» - رضي الله عنه - إلى التفكير فى جمع القرآن الكريم، حتى لا يتقادم العهد ويستحرّ القتل بالحفّاظ فيذهب شىء من القرآن، وقد فاتح «عمر» «أبا بكر» بما يجول فى نفسه، وناقشه فى ذلك طويلاً، ولقد تحرج «أبو بكر» أن يفعل شيئاً لم يفعله رسول الله من قبل؛ وما زال «عمر» به يراوده ويراجعه حتى شرح الله صدر «أبى بكر» لجمع القرآن، فكلف «زيد بن ثابت» - الأنصارى - بتتبع القرآن وجمعه، فاستعان «زيد» بالحفاظ وكتاب الوحى، فقاموا بهذا العمل الجليل النفيس، خيرَ قيام، حتى إذا اجتمع كتاب الله فى مصحف واحد عهد به إلى أم المؤمنين «حفصة» بنت عمر - رضي الله عنها - لتحفظه عندها.

تواضع وهيبة

وَفَدَ «ذو الكلاع» ملك «حِمْيَر» من اليمن على «أبى بكر الصديق» - رضي الله عنه - وأقبل عليه فى سلطانه الغالب، وزينته الباهرة، يضع على رأسه تاجه الذهبى، ويلبس مطارف الحرير موشاة بالذهب، ووراءه ألف عبد يخفضون رقابهم هيبة وإجلالا لمليكهم..

ولكنه حين وصل إلى المدينة وطلب لقاء الخليفة فى إيوانه، دهش لأنه لم يكن لـ«أبى بكر» قَصرٌ ولا حُجَّاب.. ولا حاشية..، وجد رجلاً يلبس قميصه المتواضع فوق بدنه، دون شعار أو دثار، فتضاءل جاهه الممتد فى عينيه، ونزع عن رأسه ما يثقله من تاج مذهب، وجسده من ثياب، ليقتدى بخليفه رسول الله ﷺ «أبى بكر الصديق» ـ رضي الله عنه ـ.

فتح الشام والعراق

كان من أعجب الأمور أن «أبا بكر الصديق» تمكن أن يتغلب على أعداء الإسلام من العرب، على الرغم من أن جيوشهم كانت أضعاف جيوشه، وعتادهم أكثر من عتاده، ومواقعهم أقوى تحصيناً من مواقع جيوشه..، وكل ذلك فى عام واحد!!.

ولم يتوقف «الصِّدِّيق» عند هذا الحد ليستريح ويريح جيوشه، بل قذف بها إلى دولتى الدنيا على ذلك العهد ـ الفرس والروم ـ فى آن واحد، تُدك معاقلُهما، وتُنتهك أراضِيهُما، وتتوغل فيهما، تحف بها الانتصارات..، فانتصر المسلمون على الروم فى موقعة «أجنادين» واستولوا على «دمشق» و«حمص».

والتقوا مع الفرس فى عدة معارك من أهمها؛ «ذات السلاسل»، وكان النصر حليف المسلمين فيها جميعاً، ثم استولوا على العراق من حدود البادية جنوباً إلى حدود الفرات شمالاً.

استخلاف «الفاروق»

لقد امتدت خلافة «الصديق» ـ رضي الله عنه ـ سنتين وثلاثة أشهر ـ تقريباً، ولكن ما أنجزه فيها من الأعمال الجسام كان من شأنه أن يستغرق عشرات الأعوام، ولكن الله تعالى بارك فيه وعليه، وجعل أيامه ـ على قصرها ـ شواهد خالدة على قوة العزيمة ومضاء الهمة والإقدام.

ولما أحس - ﷺ - بدنو الأجل استخلف على المسلمين «عمر بن الخطاب» بعد استشارة كبار الصحابة وأخذ موافقتهم على ذلك، ولم يكتف بذلك بل أشرف على الناس فى المسجد وخاطبهم بقوله:

(أترضون بمن استخلفت عليكم؟ فإنى والله ما ألَوْت من جهد الرأى، ولا وليت ذا قرابة، وإنى قد وليت «عمر بن الخطاب»، فاسمعوا له وأطيعوا).

وأجاب الناس: سمْعاً وطاعة.

فدعا «عُمَرَ بن الخطاب» وعهد إليه، وأوْصاه بالعدل والحق، وقبل«عمر» المسؤولية، وتحمل التبعة.

وهكذا نرى أن «أبا بكر»- ﷺ - لم يهمل أمر الدولة الإسلامية، حتى فى نزعه الأخير.

وقد توفاه الله تعالى وهو ابن ثلاثة وستين عاماً.

فرحم الله «أبا بكر» وجزاه عن الإسلام والمسلمين أوفى الجزاء، وبَوّأه من الجنة منزلاً طيباً كريماً كما بشر بذلك المصطفى ﷺ وألحقنا به فى الصالحين من عباده.

عزيزي القارئ:

وكما لم تكُن تسْميتهُ بـ «الصِّدِّيق» تَنْبُعُ من فراغ، كذلك لم تكن بُشْراهُ بالجنَّة، - بلْ أوَّلَ المبَشرين بها - لتَنْبُع هى أيْضاً من فراغ!!.

فَـأنْتَ لو تَتَبـَّعت مراحل مسيرتهِ، مُنْذُ أنْ أسْلم إلى أنْ تَوفَّاهُ الله تعالى، لوَجَدْتَ أنَّ كُلَّ خُطْوَةَ خطاها، تمْضى به على هُدى الصِّراط المستقيم، وبُشرى الرسول الكريم إلى جَنَّةٍ عَرْضُها السماوات والأرض أُعِدت للمتَّقين، وذلك هو الفوْز العظيم.

***

الفاروق (عمر بن الخطاب) رضي الله عنه

- "الفاروق" لَقبٌ غلب على الاسم ، واشتهر ففاض على ألسنة الناس، قديماً وحديثاً.
- إذا ما ذُكر الحاكم "العادل" قُصد به عمر.
- كم من آيات الله تعالى تنزلت وحياً، فوافقت ما في قلب "عُمر".
- كان إسلامه فتحاً ، وكانت هجرته نصراً ، وكانت خلافته رحمة.
- كان الوزير الثاني في عهد النبي ﷺ ، والأول في عهد "أبي بكر" رضي الله عنه.
- صاحب فكرة جمع القرآن الكريم بعد حرب "اليمامة"
- صاحب "الدرة" ، رمز القوة في الحق والعدل للسلطان.
- مسجد عمر في القدس الشريف أشهر المساجد بعد "الأقصى" ... فهل من مُدَّكِر !!!؟
- كان العدو الأكبر للشيطان وأعوانه، في كُلِّ ميدان وآن، حتى كان استشهاده في "المحراب" ..!

بسم الله الرحمن الرحيم

رُوِى عن رسول الله - ﷺ - أنه قال:

[جَعَلَ الله الحقَّ على لسانِ عُمَر وقَلْبه].

ورُوِى عنه - أيضاً - ﷺ - أنَّه قال:

[ما سَلَكَ «عمر» وادياً إلاَّ سَلَكَ الشَّيْطان وادياً آخر] صدق رسول الله - ﷺ -.

بنىّ العزيز:

«عُمَر - الفاروق -» هو الشخصية الصحابية الثانية التى بَشَّر رسول الله - ﷺ - عشرةً مِنْهُم بالجنة - رضوان الله عليهم أجمعين -.

وإنَّك لسوف تلحظ وتتأكَّد من خلال سيرته - رضي الله عنه -، أنَّه منذ أسلم وآمن واتَّبعَ النُّور الذى أُرْسِلَ به سيدنا «محمد» - ﷺ - كان فى حالة صُعُودٍ وارْتقاء، دائم السمُوّ إلى العلاء؛ كُلُّ خُطْوَةٍ صاعِدَة تُقَرِّبُهُ مِنَ الجنَّة، التى أُعِدَّت للمتقين؛ ﴿ ذَلِكَ هُوَ الفَوْزُ العَظِيمُ ﴾.

وإنَّك لسوْفَ تَلْحظُ، وتتأكد - أيْضًا - أنه - رضي الله عنه - لم يكن السَّيْفُ ليُفارق يده، مشْرعاً مشْهَراً، فى وُجُوهِ أعْداء الله ورسُوله؛ من المشركين والمنافقين. . . !

وإنَّك لسَوْف تلحظ، وتتأكَّد. . ، بأنَّه كان دائماً سبَّاقاً بكلمة الحق، إزاءَ أىِّ موقفٍ طارىء، أوْ حادثةٍ واقعة.

الآن هيّا بنا معاً نَسْتجْلى، ونتعلَّم، ونَقْتدى، ونهتدى إن شاء الله تعالى.

تهلل وجه «الخطاب بن نُفَيْل» - العدوى القرشى[1] - بِشْراً وسروراً، حين بلغه النبأ. . لقد وضعت زوجته طفلاً ذكراً.

(١) العدوى : نسبة إلى « بنى عدوىّ »

وأخذ ينظر في وجوه القـوم المحيطين به عند أحد جدران الكعبة مـستطلعاً وقع النبأ عليهم، فزادهُ إقبالهم بالتهنئة حبوراً[1] وانشراحاً.

ثم قام إلى الدار ودخل على زوجته «حَنْتَمةُ بنت هشام» فهنَّأها بالسلامة ومسح بيده على جبـهتها المبللة بالعـرق، ثم أقبل على الطفل الوليد هاشاً باشـاً، مناغياً مداعباً.

وبعد حوار قصير مع الزوجة والأقارب أسماه «عمر».

ومرت الأيام؛ حبَا الطفل، ثم دَرَج، ثم أصـبح يافعاً. . .، وكان يلقى فى كل هذه الأدوار عناية والديه ورعـايتـهمـا على أشد مـا تكون العناية وأبلغ مـا تكون الرعاية.

ولما بلغ مبلغ الشباب وجـهه والده لرعاية مواشيه، فأكسـبه العمل الشاق غلظة فى الطبع ومتانة فى البدن.

فتى قريش

كان «عمر» أبيض البَشْـرة مُشْرباً بحـمرة[2]، فارع القامـة، عريض المنكبين، مفتول السـاعدين، إذا مشى أسرع فى مشيته، وقل أن يدركـه من يرافقه، يحسب شبان قريش لغضْبته ألف حساب.

وإذا ما أقيم سوق «عكاظ» فى أرباض[3] مكة، وانتشر الناس فى أرجائه، كان «عمـر» فارسه المجلى فى المصـارعة والفروسـية، ما من حلبـة يرتادها إلا ويحوز قصب السبق فيها.

وها هو أحد الأبطال الوافدين، يجول فى وسط الحلبة مـختالاً مزهواً بقوته. ، لقد صرع كل من تصدى له، ونكَّس رؤوسَهم الشامخة. . .

وما أن بلغ «عمر» وصحبه الميدان حـتى أخذ الحاضرون يشدون من أزْر «عمر»

(١) الحبور: السرور والفرح.
(٢) مُشْرباً بالحمرة: أى تخالطه.
(٣) أرباض: بطاح.

ويحمسونه لمنازلة هذا البطل كى يرد إلى قريش اعتبارها بانتصاره المحتوم.

نظر البطل إلى «عمر» نظرة ازدراء واحتقار، مما ألهب «عمر» فأسرع إلى خلع ردائه، والتخفف من ثيابه والدخول مع البطل الغريب فى معركة شديدة عنيفة أظهر فيها كلاهما من ضروب المهارة فنوناً وألواناً، مما جعل الناس يتحلقون حول الحلقة بكثرة سدت كل المنافذ... وبعد محاورة ومداورة استطاع «عمر» أن يصرع البطل، فتعالت الهتافات من كل مكان، وراحت صيحات الفرح تشق عنان السماء.

ومر «عمر» بحلقات السادة من قريش عند الكعبة، وتبادل معهم التحايا والأحاديث. وانفض سوق «عكاظ»، وعاد الزائرون إلى مرابعهم، فخلت أسواق مكة من الزحام، ثم عاد «عمر» إلى ما كان عليه من تهجم على المسلمين وأخذهم بالقسوة والشدة.

لقد شغله «عكاظ» طيلة أيامه عنهم، لا رأفة بهم ولا حَدَباً[1] عليهم، وها هو الآن قد عاد للتنكيل بهم، أشد ضراوة وأقسى بطشاً، وبينما هو فى حلقة حول الكعبة - فى أحد الأيام - آلمه أن يعيره أحد الجالسين بمولودة له، وهو الذى تأبى أنفته وحميته أن يعيره أحد.

﴿ وَإِذَا الْمَوْءُودَةُ سُئِلَتْ ﴾

فقام من فوره يستحث خطواته إلى الدار، ثم مضى بابنته إلى بطحاء مكة، فأقعد الصبية جانباً، وراح يحفر فى الرمال، ولما انتهى ألقى بفلذة كبده فى الحفرة وأهال عليها التراب...

وبينما كان منهمكاً فى عمله كانت ذرات التراب تخالط لحيته فتنفضها الابنة الساذجة البريئة منظفة لحية أبيها، وهى تظن أن الأمر كله لعبة وتسلية يمارسها الأب والابنة..، و«عمر» فى هذا لا يلين قلبه ولا تختلج[2] عواطفه.

---

(١) الحدب: العطف. (٢) تختلج: تتحرك وتضطرب

لقد كان وأد[1] البنات عادة جاهلية، إما بسبب خشية الفقر، أو بسبب خشية العار، أبطلها الإسلام الحنيف ونهى عنها، ودعا الناس إلى الإقلاع عنها، وكان رسول الله ﷺ يردد على أسماع الناس قول الله تعالى:

﴿ وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَاقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ ﴾[2] . وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا الْمَوْءُودَةُ سُئِلَتْ ۝ بِأَيِّ ذَنبٍ قُتِلَتْ ﴾[3].

لكن الجهلة الضالعين فى كبريائهم وتعاليهم قد صُكَّت[4] آذانهم عن سماع كلمة الحق ودعوة الصدق.

عاد «عمر» إلى مكة وكأنَّ كابوساً قد انزاح عن صدره، أو كأنه قد قام بمكرمة سيحمدها الناس له، ويذكرونها أحسن الذكر وأطيبه.

إنه يعود أدراجه رافع الرأس على عادته، شامخ الأنف، تهتز الأرض تحت وطأة قدميه، مختالاً فخوراً.

وانضم إلى أصحابه ولِداته فى مجلس شرابهم ولهوهم، فقضى معهم فترة، ثم آوى إلى داره.

وكانت صورة الطفلة البريئة، الشبح الذى أخذ يقض مضجعه[5] وينغص عليه سُباتَهُ..!

أما الأم المسكينة فما كان باستطاعتها أن تبكى بصوت عال، فحبست أنفاسها، وكتمت أنَّاتها فى صدرها، مخافة أن يسمعها «عمر» فيؤذيها.

عزيزي القارئ:

إنّ بعض المؤرِّخين يُؤكِّد حُدُوث تلك الواقعة فى زَمَنِ جاهلية «عمر» - قَبْل إسلامه -؛ وآخرين منهم يَنْفُونها عَنْه، ولعلَّهم أرادوا أَنْ يُنَقُّوا صَفحَةَ ماضيه،

(١) وأد البنات: دفنهن أحياء.
(٢) سورة الإسراء الآية (٣١)
(٣) سورة التكوير الآية (٨ - ٩)
(٤) صكت: اغلقت وصمت.
(٥) يقض مضجعه: يؤرقُ منامه.

مكتفين بما كان عَلَيْه من الشِّرْك، وتعذيب المؤمنين.

ونحن لا ننفي ولا نؤكد، ونَتْرُكُ الأَمْر فى حُدُودِ إطار الجاهلية الجهلاء التى عمَّت أمة العَرَب، حتى أخْرَجَها الإسلام من الظلمات إلى النور.

إسلامه رضي الله عنه

ولما اشتد بطش قريش بالمسلمين، هاجر بعضهم إلى الحبشة فراراً بدينهم وأمناً للفتنة.

وفى أصيل يوم... بينما كان «عمر» مع بعض السادة من قريش يتحدثون فى أمر الدعوة الطارئة التى زلزلت كيانهم وهزت مجتمعهم، انبرى[1] واحد من بين المتحدثين وهو أكثرهم حماسة يطالب المجتمعين بقتل «محمد» والخلاص منه ومن دعوته...، إنه «ابن الخطاب» فى غضبته الحمراء، يهدد ويتوعد، ويزمجر كأنه الأسد الهصور...، فهزّ أحد الحاضرين رأسه استنكاراً واستهزاءً من «عمر» ثم قال: عليك يا «عمر» بأهل بيتك...، إن أختك «فاطمة» وزوجها قد صبآ..، فالأَوْلى أن تقوِّم اعوجاجهما وتردهما إلى حظيرتك.

وكأن ناراً قد شبت فى بدن «عمر» وثوبه... وقلبه..، فهب واقفا مُلْقياً نظرةً أخيرة إلى الجمع، ثم مضى إلى بيت أخته «فاطمة بنت الخطاب»، والثورة قد بلغت أوجها فى نفسه.

وصل فوجد الباب مشقوقاً، ففتحه بتؤدةٍ ثم مضى إلى الداخل فسمع أصواتاً ضعيفة أخذت تتضح رويدا رويدا ـ كلما تقدم ـ، فلما أنس بعض الكلمات تسمَّر فى مكانه، وكأن قوة غيْبيَّةً حجزته عن أن يتقدم خطوة أخرى.

ولمّا هدأ الصوت صاح بأخته قبل الدخول عليها، فأسرعت هى وزوجها «سعيد بن زيد» فأخفيا ما بأيديهما.

---

(١) انبرى: تقدم.

ودخل «عمـر» وصاح بأختـه مستـفسراً عن تلك الهـينمة[1] التى كان يسمع؟ فأنكرا بادىء ذى بدء، فلما أصر وقفت أخته معلنة إسلامها بصراحة واعتزاز. . ، وهنا كانت ثورة «عمـر» قد بلغت ذروتها، فرفع يده يريد أن يبطش بأخـتـه، فأراد زوجـها «سـعيـد» حمـايتهـا، فناله «عمـر»، فسـقط أرضاً وقـد شُجَّ[2] وسالت دماؤه. . ، ثم انتزع «عمر» الصحيفة وراح يقرأ:

﴿ طه ۝ مَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَىٰ ۝ إِلَّا تَذْكِرَةً لِّمَن يَخْشَىٰ ۝ تَنزِيلًا مِّمَّنْ خَلَقَ الْأَرْضَ وَالسَّمَاوَاتِ الْعُلَى ۝ الرَّحْمَٰنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَىٰ ﴾ [3].

وصدق الله العظيم إذ يقول:

﴿ لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا الْقُرْآنَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ اللَّهِ . . . . ﴾.

فمـا كاد «عـمر» يفـرغ من القراءة حـتى تطامنت[4] كبـرياؤه وتلاشت ثورته، وهدأت فورته، والتـفت إلى زوج أخته «سعـيد» فرفعه ـ وكـان لا يزال طريحاً ـ ومسح دماءه، وطيب خاطره، ثم قال: أين أجد محمداً؟

حينئذ أوجست «فاطمة» من أخيها خوفاً، وامتنعت عن إخباره بمكان رسول الله ﷺ، لكن «عمر» ألح وبين لأخته أنه يريد الإسلام.

يا الله ...

ويا لعَظَمَة القرآن...

ويالجمال آياته... ويالروعة حِكَمِه...

لقد تلاشى «عمر» الجبار القاسى، واضمحل جبروته الطاغى، وسرت آيات الله تعالى متغلغلة فى أعماق نفسه وعميق جوارحه.

وحين رأت أختُهُ «فاطمة» مافى لهجتـه من صِدْق، وما فى عينيْه من استْعطاف،

---

(١) الهينمة : الكلام غير المفهوم .
(٢) شُج : جرح .
(٣) سورة « طه » « الآيات (١ - ٥) .
(٤) تطامنت : نزلت من عليائها .

وَرَجَتْ أن يكون مِنَ المسلمين، وفى زمرة المؤمنين، أخبرتْه بمكان رسولُ الله «ﷺ»؛ وأنَّه فى دار«الأرقم بن أبى الأرقم» عند «الصفا»؛ فخفَّ «عمر» مُسْرعاً إلى هُناك.

(بين يدى رسول الله ﷺ)

وها هو يقف وقفة خاشع أمام باب دار «الأرقم» ثم يَقْرَعُ الباب. افقام أحد الصحابة ينظر من خَلَلِ[1] الباب ثم عاد مرتداً هلعاً وهو يقول: إنه «ابن الخطاب» يا رسول الله، متوشحاً سَيْفه.

فخشى بعض الحاضرين العَنَت، لأنه ما عرف عن «عمر» إلا الشر، أما «حمزة بن عبد المطلب» ـ رضي الله عنه ـ. فقد التفت إلى النبى ﷺ وقال: ـ ائذن له يا رسول الله، فإن كان قد جاء يريد خيراً بذلناهُ له، وإن كان قد جاء يريد شراً قتلناه بسيفه. !

سكت النبى ﷺ هينة ثم قال:

ـ أبْشروا فقد جاءكم «عمر» وغُرَّةُ الإسلام بين عَيْنَيْه.

ثم أذن بالباب ففتح، ودخل «عمر» وارتد الحاضرون إلى الوراء، وتطايروا تطايُر الفراش، وتقدم النبى ﷺ من «عمر» وأمسك بتلابيب[2] ثوْبه ثم جذبه جذبة قوية أثرت فى عنقه وقال: أما آن لك أن تُسْلم «يا ابن الخطاب».. .، فقال «عمر»: **أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أنك رسول الله.**

وأقبل الحاضرون بعضهم على بعض يتصافحون ويهنئون، وعلا البِشر وجوههم، وعمت الفرحة نفوسهم.

لقد كان إسلام «عمر» فتحاً فى تاريخ الدعوة، واستجاب الله تعالى دعاء نبيه ﷺ الذى كان يردده بين الحين والحين: **اللهم أعز الإسلام بأحد العُمَرين:**

(١) خَلَلْ الباب: ثقب به.

(٢) تلابيب الثوب: أطرافه عند العنق.

«عمرو بن هشام»[1] أو «عمر بن الخطاب».

فكان الخير من نصيب «عمر» -رضي الله عنه-.

«الفاروق»

وعلا التكبير فى دار «الأرْقم» فَرَحاً بإسلام «عُمر» ، وتجاوَبت أصداؤه فى أنْحاء «مكة» وبيْن جبالها؛

وسَأَلَ «عُمَرُ» رسول الله «صلى الله عليه وسلم»: أَلَسْنَا على الحقِّ «وقريش» على الباطل؟ فقال عليه الصلاة والسلام» - نعم، والذى نَفْسى بيَدِه . !

فقال «عمر»: إذاً. . . علامَ التخفى والاسْتخْفاء. . ؟لابُدَّ من الخروج والظهور والمواجهة.

فوافقه رسول الله «صلى الله عليه وسلم».

وخرجت الدعوة من نطاق السرية والتكتم إلى نطاق العلنية والإفصاح، فما عاد المسلمون بعد اليوم يرهبون أحداً،وخرج النبى صلى الله عليه وسلم ،بالمسلمين يجوبون[2] أسواق مكة فى صفين من المسلمين - جند الله - على رأس أحدهما «حمزة» وعلى رأس الآخر «عمر» - رضي الله عنهما -.

وأَطْلَقَ رسول الله «صلى الله عليه وسلم» - يومئذٍ - على «عمر» لقب: «الفاروق»، لأنَّ الله تعالى فَرَّق بإسلامِهِ بَيْنَ الحق والباطل.

وظل حديث إسلام «عمر» الشغل الشاغل للناس، لقد أسقط فى يد قريش، فهاهو «ابن الخطاب» الذى كان قوياً شديداً فى جاهليته. . . قوياً شديداً فى إسلامه، يؤدى صلاته راكعاً ساجداً أمام الكعبة فلا يجرؤ أحد عليه، يدافع عن المسلمين ويدفع عنهم.

وبلغ النبأ العظيم المهاجرين إلى الحبشة، فعاد أكثرهم إلى مكة. . . لكن

---

(١) عمرو بن هشام : « أبو جهل » .

(٢) يجوبون : يطوفون .

المشركين من السادة وأصحاب الرأى والسلطان لايرحمون ولا يستسلمون فضاعَفُوا الأذى، وضيقوا الخناق، واستعملوا من أساليب الفتنة والتنكيل أقساها وأذلها.

هجرة «عمر»

ولما أذن النبى ﷺ لأصحابه بالهجرة إلى المدينة - بعد بيعة العقبة - كان - عليه الصلاة والسلام - يؤمِّن هجرة المسلمين قبله، فعل القائد الناصح.

وكانت هجرة «عمر» - رضي الله عنه - فريدة فى بابها. . .، غريبة. . . شاذة عن القاعدة والمألوف، لأن أكثر المسلمين خرجوا متخفين من مكة، أفراداً وجماعات، يحمى بعضهم بعضاً. . .إلا «عمر». . .!

فإنه ما رضيت نفسه الشجاعة ولا أنفته وكبرياؤه أن يخرج مستتراً بليل، أو مستصحباً لأحد. . .، لقد تقلد سيفه[1]، وتنكب قوسه[2]، وانتضى فى يده أسهماً، واختصر عنزته[3]، ومضى قِبَل الكعبة، والملأ من قريش بفنائها، فطاف بالبيت سبعاً مُسْتَمْكِناً[4]، ثم أتى المقام (مقام إبراهيم عليه السلام) فصلى، ثم وقف على الحِلق واحدة واحدة، يقول لهم:

- شاهت الوجوه، لا يُرغم الله إلا هذه المعاطس[5]، من أراد أن يُثكِل أمه، أو يُؤتِمَ وَلَدَه أو يُرْمِل زوجته فليلقنى وراء هذا الوادى.

ثم مضى. . .وقد ألجم الألسنة وأخرس الأفواه، وبلغ المدينة بعد لأي[6] من التعب والنصب، فأقام أياماً متشوقاً لمقدم رسول الله ﷺ، مستطلعاً من كل قادم عن أخباره - عليه الصلاة والسلام.

وقد صَوَّر أَحَدُ الشعراء هذا الموقف العظيم من «عمر» فقال:

شهِدَتْ نَدْوة «مكة»

---

(١) تقلد السيف: علقه من حمائله في رقبته كالقلادة.

(٢) تنكب قوسه: علقه في كتفه.

(٣) العنزة: عصاً لها طرف كطرف الرمح.

(٤) مُسْتَمْكناً: لا يمنعه احد.

(٥) المعاطس: الانوف لانها رمز الشمم والكبرياء.

(٦) اللاي: المشقة.

فارساً يَحْملُ رُمْحَه. . .
ويُدَوّى فى الفضا كالرعْد صَوْته . .
إذ يقول:
مَنْ يُريد اليوْم أنْ يُرْمل زوجه.
أو يخلّف فى صَدَى الأحْزان أمّه.
أوْ يُسَيّر فى ثرى البُطْحاء نَعْشه.
فَلْيُبادِرْ لِـ «عُمرُ». . .
ملتقانا فى المَمَرّ.
أوْ يَفِرّ. . .
لحساب فِى غدٍ. . ، هُو أدْهى وأمَرّ.

طلع البدر علينا

حتى كان اليوم العظيم، يوم أشرق البدر المنير على «يثرب» بشعاع فضى رائع، وأهلت طلعة النبى ﷺ . . .

وخرجت الجموع الغفيرة لاستقباله أروع استقبال وأحْفاهُ، وهى تنشد:

طلـــع البدر علينا   من ثنيات الـــوداع
وجب الشكـر علينا   ما دعـــا لله داع
أيها المبعـــوث فينا   جئت بالأمر المطاع
جئت شرفت المدينة   مرحباً يا خير داع

ودمعت عينا «عمر» ؓ ـ فرحاً وحبوراً، وعانق النبى ﷺ عناقاً حاراً.

الوزير الثانى

وحين استقر المقام بالمسلمين فى المدينة المنورة، واخذ النبى ﷺ يرسى قواعد الدولة الفتيّه على أسس من التشريع الربانى القويم، كان «عمر» ؓ ، المستشار الناصح والوزير الأمين، يلى «أبا بكر» مكانة ورأياً.

ولقد بلغ تعلقه برسول الله ﷺ حداً لا يوصف، فكان له كَظلّه لا يفارقه إلا سواد الليل وكم غمرت الفرحة قلبه حين خطب إليه رسول الله ﷺ ابنته «حفصة» فلقد وثّقت المصاهرة رابطة المحبة فى نفسه، وإنه لشرف عظيم يناله «ابن الخطاب».

فى بدر

فلما كان يوم «بدر» وخرج المسلمون لملاقاة عير قريش، ونجت القافلة، التى كان يقودها «أبو سُفْيان» والتقى الجمعان، كان «عمر» - رضي الله عنه - ممن استشارهم رسول الله ﷺ فأشار بالصمود والثبات وملاقاة الأعداء - أعداء الله والحق -؛ لقد كان - رضي الله عنه - متحرقاً ومتشوقاً للقتال ذبّاً[1] عن دين الله، ورفعاً لراية القرآن.

ولما التحم الفريقان، كان ثابت الجنان، راسخ الإيمان، تَفِرُّ من أمامه الفرسان، خشية سيفه الظامىء إلى الدماء، وبينما هو فى معمعان[2] القتال التقاه خاله: «العاص بن هشام»، فلم يتردد «عمر» فى التصدى له وقتاله حتى قتله، لم تتحرك رابطة الدم والنسب فى نفسه فيحجم، لقد كانت العقيدة وأخوة الإسلام فوق كل اعتبار عنده.

رأيه فى الأسرى

وغنم المسلمون الغنائم الكثيرة، ووقع فى أيديهم العدد العديد من الأسرى، ولما استشار النبى ﷺ أصحابه فى شأنهم، أشار كلٌّ برأيه وأعطى كلٌّ مشورته ولقد رأى بَعْضُهُم الإبْقاء على الأسْرى أحْياءً، رَحْمةً ورأفة، واسْتجْلاباً للفدْية، وكان رأى «عمر» قَتْلُهُم. لأنَّهم رؤوس الكُفْر؛ فمال النبى «ﷺ» إلى الرأى الأول، ولما بلغوا المدينة أنزل الله تعالى القول الفصل فى شأنهم، فكان موافقاً لرأى «عمر».

كان الإسلام - ومايزال - دين الشورى، لا يدع الاستبداد بالرأى يأخذ سبيله إلى الشؤون العامة والأمور الجماعية، ولقد سبق القول بأن «عمر» - رضي الله عنه - كان

(١) ذبّاً: دفاعاً.
(٢) معمعان القتال: ذروته.

من مستشارى رسول الله ﷺ، بل على رأسهم بعد «أبى بكر» - رضي الله عنه - . وكثيراً ما كانت الآيات التشريعية المتنزلة على قلب رسول الله ﷺ إزاء بعض الأحداث الطارئة تقارب رأى «عمر»، أو توافقه، مما دعا رسول الله ﷺ أن يقول:

[جعل الله الحق على لسان «عمر» وقلبه].

وشهد - رضي الله عنه - أكثر المشاهد مع رسول الله ﷺ، فكان الفارس الشجاع والبطل المجلى، يثبت حين يفر الناس. . ، فى «أُحُد» وفى «الْخَنْدَق». . . ، وفى كل معركة دارت رحاها بين الحق والباطل.

يوم الحديبية

حتى كان يوم «الحديبية»، يوم منعت قريش المسلمين من دخول مكة للعمرة، فذهب «عثمان بن عفان» - رضي الله عنه - إلى مكة للتفاوض مع قريش، مُوفداً من قِبَل النبى ﷺ، فاحتجزته سادتها وطالت غيبته، وخشى المسلمون أن يكون قد أصابه شر، حتى إنه أُرْجِفَ بموته. . . وقيل إنَّ قُرَيْشاً قتلته، فدعا النبى المسلمين إلى البيعة على القتال، فبايعوه (بيعة الرضوان) وفى ذلك يقول الله تعالى فى سورة الْفَتْح: ﴿ **لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَابَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا** ﴾، وكان «عمر» مِمَّن شهدها، ولما أحست قريش بخطورة الموقف تركت «عثمان» - رضي الله عنه - . . . ، وبعثت بـ «سهيل بن عمرو» للتفاوض مع المسلمين الذين أصروا على دخول مكة.

ولما وضعت صيغة المعاهدة، كان ظاهر بعض شروطها يوحى بضعف موقف المسلمين وتهافُتِه، مما أثار «عمر» - رضي الله عنه - فكان من أشد المعارضين لها، وقد ذهب فى معارضته حداً جعله يقول لرسول الله ﷺ: أَلَسْتَ برسول الله ؟، قال ﷺ: بلى، قال: أَوَلَسْنا بالمسلمين؟ قال: بلى، فقال: فعلام نقبل الدنيَّة(1) فى ديننا؟ فقال ﷺ: **أنا عبد الله ورسوله، لن أخالف أمره ولن يُضَيِّعَنى..!**

وقصَدَ «عمر» إلى «أبى بكر» - رضي الله عنه - يردِّد نَفْس المقالة التى قالها لرسول الله

(1) نعطي الدنية: نقلل من شاننا.

«ﷺ»؛ فقال له «الصدِّيق» ـ رضي الله عنه ـ، بَعْد حوارٍ:

ـ الْزَم غَرْزَه[1] يا «ابن الخطاب».

فسكَتَ «عمر» على مضضٍ.

ولما عاد المسلمون إلى المدينة، بعد صلح الحديبية أنزل الله تعالى قوله: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا﴾، وبيَّن للمسلمين جميعاً بُعد نظر رسول الله ﷺ . . .، فكان نقض قريش للعهد الذى تم بينها وبين المسلمين السبب المباشر فى فتح «مكة». . .، وبهذا زالت دولة الشرك وسلطان الوثنية والكفر من شبه الجزيرة العربية. .، وإلى غير رجعة.

«عمر»... ووفاة رسول الله ﷺ

حين اشتد المرض برسول الله ﷺ بعد حجَّة الوداع، كان «عمر» ـ رضي الله عنه ـ أكثر المسلمين قلقاً وجزعاً، لا يستطيب طعاماً ولا يستسيغ شراباً، ولا يلذ له شأن من شؤون الدنيا.

وبلغت به هذه الحساسية والشفافية حداً بالغاً حين صعق لنبأ وفاة رسول الله ﷺ، فشهر سيفه وأنذر كل من يقول ذلك بالقتل، وأخذ يشيع فى الناس أن النبى ﷺ فى غيبة «كغيبة موسى» ـ عليه السلام ـ، فالتقاهُ أبو بكر ـ رضي الله عنه ـ وأمسك بكتفيه وهزه هزاً شديداً، ثم تلا عليه قول الله تعالى: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ﴾. .

حينئذ، فقط. . . تنبه «عمر» ـ رضي الله عنه ـ من ثورته العصبية التى أخذت بجماع نفسه وقلبه، فجعلتْهُ لا يصدق موت رسول الله ﷺ، وينذر ويتوعد كل من يقول بها، فقال لـ «أبى بكر» وهو يجهش[2] بالبكاء: **كأننى أسمعها للمرة الأولى.**

فى سقيفة «بنى ساعدة»

أصيب المسلمون بموت رسول الله ﷺ، وذَرَّ قَرْنُ الخلاف بين المهاجرين والأنصار، وكان الموقف الذى وقفه «عمر» ـ رضي الله عنه ـ عاصمة عصمت المسلمين عن الاقتتال.

---

(١) الغرزْ: موضع رجْل الفارس من رِكاب الدابَّة. (٢) يجهش بالبكاء: يَعْلُو به صوتهُ.

فقد علم بأن نفراً من الأنصار اجتمعوا فى سقيفة «بنى ساعدة» حول زعيمهم «سعد بن عبادة» يتفاوضون على من يخلف رسول الله ﷺ فى تولى شؤون المسلمين، فأسرع مع «أبى بكر» إلى السقيفة، وحسم الموقف بمبايعته لأبى بكر بالخلافة، ثم تبعه الحاضرون؛ وذلك بَعْدَ جَدَلٍ طويل، ومناقشات حادَّة، كانَ «الحبَّابُ بن المنذر» - رضي الله عنه -، من الأنصار، صاحِبُها. . .، لكنَّ حكمَةَ «أبى بكر»، وطُول أناته، وبلاغة حُجَّتِه. . .، هَدَّأت وهدْهدَت من مضاعفات الموقف.

فى عهد «أبى بكر»

وعاش «عمر» - رضي الله عنه - طيلة خلافة «أبى بكر» ناصحاً أميناً، ومستشاراً حكيماً صادقاً، يعاون فى شؤون الحكم، مخلصاً لربه ودينه ولوليِّ الأمر إلى أبعد حدود الإخلاص.

ولما ارتدت بعض القبائل عن الإسلام، بعد وفاة النبى ﷺ، ارتأى «عمر» على «أبى بكر» أن يأخذهم بالمداورة والملاينة، خشية على طراوة عُود الإسلام الفَتِيّ، لكن «أبا بكر» الهادىء الطبع، اللَّيِّن الجانب، غضب غضبة شديدة فى وجه «عمر» وقال له: - **أجَبَّار أنت فى الجاهلية يا «عمر» خوار[1] فى الإسلام، والله لو منعونى عقالاً كانوا يؤدونه لرسول الله ﷺ لقاتلتهم عليه، ولو أُفرِدْتُ من بينكم.**

واستطاع «أبو بكر» - رضي الله عنه - بمؤازرة المسلمين، وفوق كل ذلك بتأييد من الله تعالى، أن يقضى على الفتنة، فتعود القبائل المرتدة إلى حظيرة الإسلام آمنة.

وكان جيش «أسامة بن زيد» - رضي الله عنهما - الذى عقد لواءه رسول الله ﷺ وأمره بالتوجه إلى الشام، على مشارف المدينة، فى منطقة تُسمّى : «الجرْف»[2] حين وافى الأجل رسول الله ﷺ وانتقل إلى الرفيق الأعلى.

(١) خوار : « من الخور » وهو : الضعف .

(٢) تقع ضاحية « الجرف » في الشمال الشرقي من المدينة ، وكانت في عهد رسول الله ﷺ وخلفائه من بعده مركزاً لإعداد وتعبئة الجيوش الإسلامية أنَّى كان اتجاهها .

فطلب بعض الصحابة من «أبى بكر» أن يعدل عن إرسال الجيش، وتوجيهه لقتال المرتدين، فأبى ذلك، وطلب من قائد الجيش «أسامة» أن يسمح له بإبقاء «عمر» فى المدينة ليعاونه بسديد رأيه وصدق نصحه، فوافق «أسامة». . .

وهكذا - كما أسلفنا - قضى «عمر» أيام خلافة «أبى بكر» صاحب رأى ومشورة.

وكان «أبو بكر» - ﷺ - يتوسم فى «عمر» صفات رجل الدولة، لذا أوصى له بالخلافة حين دنت منيته، فبايعه المسلمون على ذلك؛ وهنا تبدأ مرحلة جديدة وهامة فى حياة «عمر» - ﷺ -.

الخليفة العادل

لقد شعر «عمر» - ﷺ - بثقل الأمانة التى ألقيت على عاتقه، عاهد الله والمسلمين أن يكون بالرعيَّة رحيماً عادلاً، وذلك فى أول خطبة له، بعد أن بويع خليفة وأميراً للمؤمنين.

وكان مِمّا قاله فى ذلك الموقف:

إنما أنا ومالكُم هذا كوليٍّ اليتيم إن استغنيت استعففت وإن افتقرت أكلت بالمعروف، ولن أشُقَّ عليكم فَأجمِّركم فى الثغور[1]، ولست أدع أحداً يعتدى على أحد أو يظلمه حتى أضع خَدَّه على الأرض وقدمى على الخد الآخر حتى يُذْعِن[2] للحق.

ولقد قال كلاماً كثيراً غيره. . .

ومما هو جدير بالذكر أنه - ﷺ - قد أخذ نفسه وأهله والناس بهذه السياسة العادلة، طيلة فترة خلافته التى امتدت ما يزيد على تِسْع سنواتٍ.

كان من أوائل أعماله أن أرسل إلى جيش المسلمين بالشام رسولاً ينبئه بوفاة

(١) أجمركم في الثغور : اقيمكم على جهات القتال .

(٢) يذعن : يخضع ويستجيب .

«أبى بكر» - رضي الله عنه - وتوليه الخلافة، وأمر بعزل «خالد بن الوليد» عن القيادة العامة واستبداله بـ «أبى عبيد بن الجراح»، ولقد علل «عمر» - رضي الله عنه - هذا التصرف بعد ذلك بأنه يخشى على دماء المسلمين وأرواحهم من اندفاعات «خالد»، فقد كان يقول: **إن فى سيف «خالد» رهقا!!** مع ثقته التامة بكفاءة «خالد» العسكرية.

فاتح بيت المقدس

وحين ضرب جيش المسلمين الحصار على «بيت المقدس»، أبى «بَطْريقـها» تسليمها إلا للخليفة نفسه..، ويُرْوى فى هذا المجال، أنَّ «البطْريق» قد رأى رُؤْيا فيها أن الخليفة «عمر»، رَجُلٌ طوال، أَبْيض البَشْرة، وأنَّه يعقد مَعَهُ صُلْحاً، ويُسلِّمه مِفْتاح «بيْت المقدس».

فحضر «عمر» - رضي الله عنه - من المدينة، فتلقاه أمراء الجيش وقادته خارجها، واتفقوا معه أن يستبدل ثوبه وركوبه، فقدموا له ثوبًا أبيض، وبرذونا[1] مما غنموه من الروم، فلما ركبه أخذ البرذون يتبختر ويختال، فصاح «عمر» - رضي الله عنه - بإخوانه: أقيلوني[2]، أقال الله عثرتكم، لقد سمعت رسول الله ﷺ يقول: **«لا يدخل الجنة من كان فى قلبه مثقال حبة من خردل من كبر»**، ثم نزل، وعاد إلى ثوبه وناقته.

ولما تقدم الجيش وعلى رأسه «عمر» من الأسوار، أطل «البطريق» من علٍ، فلمحه..، فعرفه - كما رآه فى الرؤيا -، فنزل وفتح الأبواب، ودخل المسلمون المدينة المقدسة، وحين أدركتهم الصلاة وهم فى «كنيسة القيامة»، صلى «عمر» - رضي الله عنه - خارجها، رغم إلحاح «البطريق» عليه أن يصلى داخلها، ولكنه أبى مخافة أن يتخذ المسلمون ذلك ذريعة للاستيلاء عليها.

فانظر معى - **عزيزي القارئ** - بإمْعانٍ وإنصاف، إلى أى مدىً كان الإسلامُ حريصاً على الحقِّ والعدْل فى حَمْلِ الدَّعْوَةِ إلى النَّاس كافَّةً، فى مشارق الأرض ومغاربها.

«عمرو القادسية»

لما عـاد - رضي الله عنه - إلى المدينة كـانت أنبـاء جـيش المسلمين فى العـراق شُـغله الشاغل، خاصة وأن حـشود الفرس استدعت طلب الإمدادات المتـتالية، حتى إنه - رضي الله عنه - قد عزم على الخـروج بنفسه على رأس جيش إلى العـراق، لولا أن أقنعه «على بن أبى طالب» - رضي الله عنه - بالبقاء، لأنَّ ذلك أدعى للهيبة، وأضبط للإدارة.

لقد كان - رضي الله عنه - دائم السهر، كثير الأرق، يقضى ليله فى المسجد مصلياً ذاكراً داعياً.

وفى إحـدى الليـالى دخل المسـجـد رسُـولٌ قـادم من العِـراق، ولما فـرغ من صلاته، اقتـرب منه «عمر» وأخذ يسأله، والرجل يجـيب، ولا يعلم أن سائله هو أمير المؤمنين، ولما انتهيـا قال «عمـر»: ولم لم تذهب إلى الخليفة فـتخبـره؟ قال الرجل: أفى هذه الساعـة المتأخرة من الليل؟فأجـابه «عمر»: أنا «عمـر». فدهش الرجل لصحـوته - رضي الله عنه - فقال «عـمر»: إن نمت ليلى ضيَّـعْتُ نفسى، وإن نمت نهارى ضيعت أمتى.

من أخباره رضي الله عنه

كما كان - رضي الله عنه - كثير الخروج إلى ظاهر المدينـة متشوقاً إلى رسول يأتيه بأنباء الظفر من العراق...

وفى مرة لقى عـجوزاً تقيم فى إحـدى البوادى، فعطف عليـها[1] وسألها عن حالها، فشكتْ له، فنفـحها عشرين ديناراً مشترياً ظلامـتها، ودَوَّن ذلك فى كتاب، وأوصى ابنه «عبد الله» أن يجعله فى قبره عند موته.

وفى أحد أزقة المدينة، بينما هو يَتعـسس على عادته، ليْس كَشْفاً لأسْرار الناس وعَوْراتهم، بل اطلاعاً على أحْوالهم، وَضَبْط أمُـورهم، ورعايتهم؛ سمع أصواتاً تئن، فتقدم من مـصدر الصوت، فلقى امرأة وحولها صبـية صغار يبكون، والمرأة أمام موقد فوقه قدر ماء يغلى، فسألهـا عن شأنها وشأنهم، فأخبرته بسوء الحال،

(١) عطف عليها: مال.

وأنها تلهيهم بالقدر حتى يناموا.. فأسرع مهرولاً...، وعاد يحمل كيساً من الدقيق، وأقام عند الموقد فترة حتى أنضج طعاماً قدمه للأطفال.

وصادف مرة أن سمع امرأة تقول لابنتها: أى بنيتى أنهضى وامزقى[1] اللبن بالماء، فاسترعى ذلك انتباهه، فوقف عند باب الدار لا يحيد[2] عنه، فسمع الابنة ترد: لن أفعل...، أما سمعت تحذير أمير المؤمنين «عمر» عن مزق اللبن بالماء، ولن أطيع الله فى الملأ وأعصيه فى الخلاء، فعيّن - رضي الله عنه - الدار، ومضى لسبيله، وفى اليوم التالى أمر ابنه «عاصماً» أن يذهب ويخطب الفتاة، لأنه توسم فيها الاستقامة وحسن الخلق، وعمق الإيمان.

والأصُول الطيبة - **عزيزي القارئ** - لاتنْبتُ إلا طيِّباً، زهراً وثمراً؛ زهراً زكىّ الشَّذا، وثمراً ناضجاً شهياً.

فمِنْ زواج «عاصم» بهذه الفتاة، وتَسَلْسُل الذُّرِّيَّة...، جاءَ «عمر بن عبدالعزيز» - رضي الله عنه -؛ الذى جَدَّدَ للإسلام شَبَابه، وأعادَ للخلافة الراشِدَة صفاءَها ونقاءَها؛ وكان ذلك على رأس المائةِ الأولى من الهجرة.

ولقد كان «عُمر بن الخطاب» - رضي الله عنه - حاكماً أميناً على الرعية، رؤوفاً بها، عادلاً.. لا يدارى ولا يمارى.

صعد المنبر يوماً، وبعد أن حمد الله وأثنى عليه قال: أيها الناس، اسمعوا وأطيعوا، فقال أحد الحضور مقاطعاً: لا سمع ولا طاعة يا «عمر»..، لقد نال كل منا مِرْطاً[3] من الغنائم، جهدنا أنفسنا لنتخذها ثوباً، وأنت رجل طوال، فلابد أن القسمة التى قسمتها كانت ضيزى[4]..، فلم يجب «عمر» وطلب من ابنه «عبدالله» أن يجيب عنه فقال «عبدالله»: لقد أعطيت أبى حقّى ونصيبى....!

فقال المعترض: الآن قل، نسمع ونطيع.

---

(١) امزقى : اخلطى.

(٢) لا يحيد : لا يبتعد، لا يتقدم ولا يتأخر.

(٣) المرط : قطعة قماش خمير محنط.

(٤) القسمة الضيزى : الذى لا يراد فيها عدل.

ولقد حاول آخر أن يشْجب مقالة المعترض، فقال له: أوَ تقول ذلك لأمير المؤمنين!؟ فقال «عمر» ـ رضي الله عنه ـ: و الله لا خير فيكم إن لم تقولوها (أي: كلمة الحق) ولا خير فينا (كحكام) إن لم نسمعها.

وكان ـ رضي الله عنه ـ قد اتخذ ثوباً يلبسه كلما أحس بأن الدنيا توشك أن تدخل عليه رحاب نفسه، فيداخله العجب، فيسرع إلى (مرقّعته) يرتديها ليكبت نفسه ويردها عن الهوة التى توشك أن تقع فيها.

فتحُ «مصر»

وفى عَهْده ـ رضي الله عنه ـ فى السنة التاسعة عشرة من الهجرة، تَمَّ فَتْح مصْر، بعد أن تَمَّ فَتْح العراق، وانساحت جيوشُ الإسلام فى أرض «فارس»، تُقَوِّض مُلْك «كسرى» وتنشر لواء الحق والعدْل.

وكان قائد جَيْش «مصر»، «عَمْرو بن العاص» ـ رضي الله عنه ـ؛ الذى دَحَر «الرومان» وأَنْزل بهم الهزائم فرحَّبَ به قبط «مصْر»، وأَرْسَى قواعد الإسلام فى تلْك الديار؛ ونظم شؤونها، ودخل الناس فى دين الله أفواجاً.

«الفاروق» و«ابن الأكرمين»

جاءه يوماً أحد الأقباط من أهل مصر شاكياً من واليه «عمرو بن العاص»؛ وتفصيل الأمر. أن سباقاً أقيم فى «الفسطاط» ـ عاصمة مصر التى أنشأها «عمرو»، فسبق القبطى «ابن عمرو»، فغضب وصفع القبطيَّ وهو يقول: أتسبقنى وأنا ابن الأكرمين. فجرحت كبرياء القبطى، فنصحه بعض الناس بالذهاب إلى المدينة يشكو أمره إلى الخليفة، فلابد أن يجد عنده النَّصَف، فقصدها؛ غضب «عمر» ـ أمير المؤمنين ـ عند سماع الشكوى وتفاصيل الموضوع، أشد الغضب، ثم كتب إلى «عمرو بن العاص»:ـ

[بسم الله الرحمن الرحيم من عبد الله أمير المؤمنين «عمر بن الخطاب» إلى «العاص بن العاص»، أما بعد إذا بلغك كتابى هذا فاحضر ومعك ولدك].

ولما بلغ الكتاب «عمرو بن العاص» أوجس خيفة وظنّ سوءاً، ولما كان الموسم، رحل إلى المدينة، وما كان ليتخلف عن استدعاء «عمر» له، فلما وصل ومثل بين يديه ابتدره «عمر» يقول: متى تعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحراراً؛ ثم أعطى القبطى درته[1] وأمره أن يضرب بها «ابن عمرو» قائلا: اضرب بها ابن الأكرمين، ثم أمر القبطى بعدها أن يضرب رأس «عمرو» لأن الابن لم يَظْلِم إلا بسلطان الأب، لكن القبطى عفا.

عففت فعفت رعيتك

بعد أن انهزمت جيوش الفرس وولت الأدبار وساح الجيش الإسلامى فى طول البلاد وعرضها فاتحاً، حتى بلغ «المدائن» عاصمة الفرس، وهناك غنم المسلمون غنائم كثيرة، كانت ترسل تباعاً إلى الخليفة فى المدينة.

وقف «عمر» يوماً وقد اجتمعت بين يديه الجواهر والأحجار الكريمة، والتحف النادرة، والأثواب المزخرفة، فدمعت عيناه، وراح يردد على مسمع من حوله: إن قوماً أدُّوا هذا لأمناء..

فقال «على» ـ كرم الله وجهه ـ وكان حاضراً: يا أمير المؤمنين: لقد عَفَفْتَ فَعَفَّتْ رعيتك، ولو رَتَعْتَ لرتعوا.

خلافة «عمر»

صدق من قال:

لقد كان إسلام «عمر» فتحاً، وهجرته نَصْراً، وخلافته رحمة.

استمرت خلافته ـ رضي الله عنه ـ عشرة أعوام ـ تقريباً ـ، فقام خلالها بتنظيم شؤون الدولة وإدارتها، وسهر على تنفيذ ذلك وضبطه حتى بلغت فى عهده شأواً بعيداً فى الصيت الحسن والسمعة الطيبة، وكانت موئلاً للأحرار، ولمن ينشد الحياة الكريمة.

وصادف فى أحد مواسم الحج أن داس أحد الأعراب على طرف رداء «جَبَلَة بن

(١) الدرة: العصا القصيرة.

الأيهم» أحد أمـراء «غسان»، ممن أسلموا بلسـانهم ولما يدخل الإيمان فى قلوبهم، فانكشف بدنه، وأخذته العزة فَـصَفَعَ الأعرابى صفعة أليمـة، فشكاه هذا إلى أمير المؤمنين «عمـر». . . فاستـدعى «عمر» «جَـبْلَة»، وأمر الأعرابى أن يأخـذ القود لنفسه، بأن يصْفَعَ «جَبْلَة» كما صفعه، أو أن يسترضيه «جَبْلَة». .

فانتفض «جبلة» معترضـاً بأنه أمير، والأعرابى من السوقة. . . «العامة»، فقال «عمر»: **إن الإسلام سوّى بينكما...**

فاسـتمهل «جـبلة» إلى الغد، فأمـهله «عمر»، ثم فـرَّ فى تلك الليلة إلى بلاد الروم مرتداً عن الإسلام، ومات على الكفر.

لكل أجل كتاب
(عمر الشهيد)

عندما كـان يؤذَّنُ للحج من كل عام، كـان «عمـر» ـ ﷺ ـ يخرج على رأس المسلمين، حرصاً على طاعـة الله تعالى من جهة، ورعاية لشـؤون الناس من جهة ثانية.

ولما كان العام الثالث والعشرون للهـجرة (٢٣هـ) لقيه أثناء الحج رجل مجوسى اسمـه (فيـروز) ويكنى بـ «أبى لؤلؤة»، يعمل عند «المغيرة بن شـعبـة» ـ والى الكوفة. . . فَاستَنْصَرَ «أبو لؤلؤة» أمير المؤمنين، طالباً حكمه العادل فى خصـومة بينه وبين سـيـده «المغـيـرة» ولما استـوضحـه «عـمر»، تبـيَّن له بطلان دعـواه، وَصَـرفه.

لكن «أبا لؤلؤة» أضمـر الشر فى نفسـه وبيَّت السوء، وعزم على الانتـقام من «عمر».

ويقـول الرواة بأن «عـمر» ـ ﷺ ـ أدرك ذلـك من خلال الحـوار، إذ قـال له «عمر»: لقد سمعت بأنك تعمل رحى[1] تطحن الهواء ـ على سبيل الدعابة ـ فهلاَّ

(١) الرحى : الطاحون.

عملت لنا واحدة؟ فقال «أبو لؤلؤة»: لسوف أعمل لك رحىً يتحدث بها أهل الشرق والغرب. . .، وانصرف.

فقال«عمر» لمن حوله: إنه يتوعدني.

ولما عاد الحجيج إلى المدينة كانت أيام «عمر» تقترب من نهايتها.

وفى عشية أحد الأيام خرج - رضي الله عنه - إلى الصلاة، ولما قوَّم الصفوف على عادته وتقدم ليؤم المصلين، خرج «أبو لؤلؤة» من بين الناس منتضيا[1] خنجراً ذا نصلين حادين طعن به «عمر» فى بطنه، فصرخ «عمر». . .

- أدْركوا الكلب لقد قتلنى...

فأحاط به الناس، فجعل يطعن فيهم يمنةً ويسرةً حتى أصاب اثنى عشر منهم، ثم طعن نفسه.

وحُمل «عمر» إلى الدار، وصلى «عبد الرحمن بن عوف» - رضي الله عنه - بالناس، وتبين للطبيب بأن السم قد سرى فى جميع أنحاء جسم «عمر» وما هى إلا أيام، لم ينفع فيها العلاج، حتى توفى - رحمه الله ورضى عنه - شهيد الحق والعدل.

وقبل أن يلفظ أنفاسه - رضي الله عنه - عهد إلى ستة من الصحابة توفى رسول الله ﷺ وهو عنهم راض، ليختاروا من بينهم خليفة، وأدخل معهم ابنه «عبدالله» مستشاراً فقط، ليس له من الأمر شىء.

وهكذا لَحِقَ شهيد المحراب - عمر بن الخطاب - رضي الله عنه، بالرفيق الأعلى إلى جوار رسول الله و«أبى بكر» - رضي الله عنه - ودفن فى حجرة «عائشة» - بعد استئذانها - إلى جانبهما.

ومِمّا يروُى فى هذا الصَّدَد: أنَّ الجنازة لما بَلَغَتِ الْحُجْرة الشريفة، قال «عَبْدَالله بن عمر» - رضي الله عنه - للسيدة «عائشة»:

- أميرُ المؤمنين «عمر بن الخطاب» يَسْتَأْذنُ فى الدُّخول...

---

(١) منتضياً: حاملاً بيده.

ويُروى أيْضـاً أنَّ السيِّـدة «عائشـة» - رضي الله عنها - كانَتْ - على عـادتها - تَقُـومُ فى حُجْرتها دُون حجاب، فلما دُفِنَ «عمـر» تَحَجَّبتْ. . . ،فَسُئِلَتْ عن ذلك فقالت: لقد كـانا - أبى «أبو بكر» وزَوْجى رسُولُ الله ﷺ ؛أمَّـا الآن ففى الحُـجْرَةِ رَجُلٌ أجْنَبِى!!!

رضى الله عن الخليفـة العادل، أمـير المؤمنين «عمـر بن الخطاب»، وأنزله فى جنته فى عليين، مع الذين أنعم عليهم، وألحقنا به فى الصالحين من عباده.

وصدقت فيه نبوءة رسول الله ﷺ بالشهادة.

* * *



ذو النورين (عثمان بن عفّان) رضي الله عنه

- إذا ذُكر السابقون إلى الإسلام كان في الطليعة.
- وإذا ذُكر المهاجرون إلى الحبشة كان في المقدمة.
- وإذا ذُكر المجاهدون بأموالهم كان على رأسهم.
- وإذا ذُكر المقربون من رسول الله ﷺ كان ثالث ثلاثة "أبا بكر" و "علي" و "عثمان" رضي الله عنهم.
- وإذا ذُكر أهل البيت كان له نصيب مضاعف "رقية" و "أم كلثوم".
- وإذا ذُكر حديث رسول الله ﷺ (الحياء من الإيمان) كان "عثمان" صاحب رايته رافع لواءه.
- وإذا ذكرت الشهادة في سبيل الله ، شهدت الدماء على صفحات القرآن لـ "عثمان".
- وكفى بالله شهيدا !!! وكفى برسوله ﷺ نبيا ومصدقاً.

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

عزيزي القارئ

لقد ذكرتُ لكَ فى ترجمة سيِّدنا «الفاروق» - رضي الله عنه - أنّه عندما طُعِنَ وهوَ يصلّى فى المحراب بخنجرٍ مسموم، ثمَّ نُقِلَ إلى دارِه، وشعر بدُنُوِّ الأَجَل، سمّى ستّةً من صحابة رسُول الله صلى الله عليه وسلم مجلس شورى، يختارون من بَيْنِهم خليفةً وهم: «عبد الرحمن بن عَوْف» و«على بن أبى طالب» و«عثمان بن عفان» و«الزُبَيْر بن العوام» و«طَلْحَةُ بن عُبَيْدالله» و«سَعْد بن أبى وقاص» - رضي الله عنهم -.

وكانت حُجَّة «عمر» فى هذا الاختيار أنَّ رسُول الله « صلى الله عليه وسلم » توفّى وهُو راضٍ عَنْهُم.

كما سمّى ابنَه «عَبْدَالله بن عمر» سابِعًا، بَشْرط أنْ لا يكون له من الأَمْر شىءٍ؛ فإذا انقَسَم الستَّةُ فريقين، رجَّحَ «عبدالله» أحَدَهُما على الآخر.

فاجتمعُوا وتباحثُوا وتدراسُوا، وكان «عبد الرحمن بن عوْف» قَدْ أعفى نَفْسَهُ من الترشيح، فاختاروه حكَمًا..، وبَعْدَ تشاوُرٍ ونقاش انحصَر الموقف بين «عثمان» و«على».

وَسَأَل «عبد الرحمن» «عثمان»: هَلْ يَلْتزم سنَّة رسُولِ الله « صلى الله عليه وسلم » وطريقة الشيخْين «أبى بكر» و «عمر» فى الحكم؟

فأجاب بالإيجاب.

وسَأَل نفس السؤال لـ «عليّ» فَأجابَ بأنَّه يجتَهِدُ رأيَهُ.

عندها رجحت كفَّة «عثمان»؛ وتَمَّت البيْعة له.

عزيزي القارئ، هذا اختصار شديد لما كان وَحَدث؛ ولا أطيلُ عَلَيْك؛ ـ ففى كتب التاريخ والتراجم ما يُشبع رغبتَك؛ ويدلُّك ـ ولا شك ـ على مَنْهجيَّةٍ راقيةٍ فى أصُول وقواعد الحكم والسياسة، فَقِهها الأوائل وقَصَّر عنها الأواخر.

فالشورى، إحْدى أسْماء السُّور فى القرآن الكريم..!

والشورى، مَبْدأ فى الأمور الحياتيَّة، وقاعدة أَلْزَم الرسول « ﷺ » بها نَفْسه، وأصحابَه..! والشورى أفْصَحُ بيانًا من أيِّ مُسَمَّىً آخر..!

والشورى تَتْبَعُها البَيْعة، وليس فى الإسلام ـ كمنهج حكم ـ ولايَةُ عَهْد..!

هذا ما أردتُ بيانه، حتى لا تختلط عليك الأمُور، أَوْ يزيغ بك الهوى فيضلّك عن سبيل الله ؛ والسلام عليك ورحمة الله وبركاته.

ولادته ونشأته

أحبك والرحمن حبَّ قريش «عثمان»

على أنغام هذه الأغنية، كانت أمهات الأطفال فى «قريش» يُرَقِّصْنَ أولادهن؛ وهى لشيوعها صارت (مَغْنىً) على كل شفة ولسان أضحت مثلاً فى الحبّ العميق الأصيل. ولا غرابة فى ذلك..

فقد ولد «عثمان بن عفان» فى «الطائف» روضة الحجاز وجنته، وبها نشأ وتحت سمائها ترعرع، ومن لطيف هوائها تنشق، ومن عبير أزاهيرها تنسم، فرقَّت شمائله[1] ، ولطف طبعه.

وورث إلى المجد العريق والأصالة العائلية المال الوفير، فكان من أغنى أغنياء الحجاز، وأرفعهم محتْداً[2] ، وأشرفهم نسباً.

---

(١) الشمائل : الصفات الخلقية .

(٢) المحتد : الأصل .

وحاز قصب السبق فى ميدان التجارة، بيعًا وشراءً، فملك القوافل، تحمل إليه من فدافد[1] الأرض شرقًا وغربًا، شمالاً وجنوبًا، البضائع المختلفة يحسن عرضها واستغلالها بصدق واستقامة، فاحترمه الجميع، وقدروه حق قدره وأحبوه لما تجمل به من السجايا والخلال الكريمة.

إسلامه

وإلى جانب ما كان يتمتع به من ثقة السادة والأشراف، واحترامهم . . ،كان نزّاعاً إلى الابتعاد عن كل إسفاف رخيص، فلا يشاركهم مجالسهم فى اللهو والخمر، ولا حتى استغراقهم فى وثنيتهم.

وما أن بدا له صديقه «أبو بكر بن أبى قحافة» يُحدثُه سراً بظهور النبى «محمد بن عبدالله» ﷺ ودعوته،حتى أسرع إلى الدخول فى حوزة الإسلام.

المصاهرة

وخطب «عثمان» - رضي الله عنه - إلى رسول الله ﷺ ابنته «رُقيَّة» - رضي الله عنها - فزوجه إياها، فازدادت الصلة بينهما توثقًا، واللحمة بينهما تماسكًا.

وكلما كان الرجل كبيراً فى قومه يكبر الحقد عليه إن خالف طريقهم، وتنكّب[2] سبيلهم، وهذا كان شأن «عثمان بن عفان» مع «قريش» إذ لقى منهم العنت الشديد، والحرب الضروس، والملامة والتنكر.

المهاجر

جاء يومًا إلى رسول الله ﷺ ، وقد ضاقت به الحيل، وغلقت عليه سبل الخلاص، مستأذنًا بالسفر مع المهاجرين إلى «الحبشة»، فأذن له النبى ﷺ .

ومرت أعوام عجاف على المسلمين بمكة، جهاد على البلاء، وصبر على الأذى، وتحمل للشدائد.

---

(١) فدافد : جمع (فدفد) وهي الفلاة .　　(٢) تنكب : خالف وابتعد .

ولما أذن الله تعالى لهم بالهجرة إلى «يثرب» ـ بادر «عثمان» ـ ﷺ ـ إلى ذلك، رغم كل ماكان يملكه فى مكة من مال ومتاع غير آسف، وغير نادم فحبُّه لله ورسوله ﷺ أغلى عنده وأثمن .

كان «عثمان» ـ ﷺ من أرباب التجارة، ميمون النقيبة، مبارك اليد، عفًا صادقًا، لا يستكين للأعطيات ـ وحدها ـ يدبر بها شئونه، فشمَّر عن ساعد الجد، وخاض غمار التجارة، متسلحًا بالاستقامة والأمانة، متوكلاً على الله وحده، فأفلح ونجح، وبارك الله له فأثرى، واستعاد كثيراً مما كان قد فُقد وضُيع .

وفاة «رقية» ـ ﷺ ـ

ولما كان العام الثانى من الهجرة، حدثت غزوة «بدر» ـ الكبرى ـ، وخرج المسلمون من المدينة لغير قتال، إلا لاعتراض قافلة لقريش بقيادة أبى سفيان ـ «صخر بن حرب بن أمية» ـ، الآيبة من الشام محمَّلة بمختلف أنواع العُرُوض .

ولم يخرج «عثمان» ـ ﷺ . . ، مستأذنًا رسول الله ﷺ فى تمريض زوجته «رقية» ـ ﷺ ـ التى كانت تعانى الضعف والهزال ووطأة المرض، ولو علم أن فى الأمر قتالاً لخرج وما تأخر.

ولما انهزمت قريش وخلفت وراءها المغانم الكثيرة، أسهم رسول الله ﷺ لعثمان منها، وكأنَّه كان حاضراً.

* ولم يكن هذا الخروج بقصْد الغزو والنهب والسَّلْب، كما يظنُّ بعض الناس، أو كما يشيع المغرضون، بل كان لونًا من ألوان الحرْب. . !

الحرْب التى بدأتْها «قريش» «فى مكة» بالعدوان على الإسلام ورسوله وأهْله. . !

فالحصار الاقتصادى عنصرٌ من عناصر المعركة، يُؤثِّر فى إضعاف العدوّ، ويحجزه على القتال، أوْ يحفزه إليْه، وإلى المواجهة. . ! فينتصر الحق وينهزم الباطل.

ولقد كان عُذْرُه ـ رضي الله عنه ـ واضحًا لا لَبْس فيه ولا ريبة ؛

ولئن أخَذَ بعضـهم على «عثمان» أنَّه لم يكُنْ رَبَّ سيفٍ وقتـال ـ وهذا غَمْزٌ من قناتِه ـ فإنَّه ـ رضي الله عنه ـ كان من أكثر الصحابة جهادًا بمالهِ

﴿إنَّ الَّذينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ آوَوا وَّنَصَرُوا أُوْلَئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾[سورة الأنفال: الآية٧٢].

والوقائع كلها تشهد بذلك.

ثم توفيت «رقية» بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم .. فحزن **«عثمان»** لفقدها أشد الحزن، وتألم أبلغ الألم..

«ذوالنورين»

وأتى النبى صلى الله عليه وسلم دامع العينين، جريح الفؤاد، فقال:

ـ لقد خفتُ أن ينقطع صِهْرى منك يا رسول الله !!

فطمأنه الرسول العظيم صلى الله عليه وسلم ، والوالد الشفوق، قائلاً:

ـ لقد أُمِرْتَ بتـزويجك أختها «أم كلثوم»، ولو كُنَّ عـشرًا لفعلت ذلك. فذهب عن «عثمان» ـ رضي الله عنه ـ الرَّوْعُ وما كـان به من الهم والأسى، ومن هنا كانت شهرة «عثمان» بـ **«ذى النورين»**.

«عثمان» الحيي الستير

وفى يوْم كـان رسول الله فى بيتـه مـستلقـيًا، وقـد انكشف عنه بعض إزاره قليـلاً...، فاسـتـأذن «الصديـق» ـ رضي الله عنه ـ بالدخول، فـأذن له وهو على حـاله صلى الله عليه وسلم ،ثم جاء**«الفاروق»** ـ رضي الله عنه ـ، فاذن له أيضًا، وهو على حاله من جلسته .

ثم استأذن **«عثمان»** ـ رضي الله عنه ـ فأصلح فى شأنـه، وأرْخى إزاره، واعتدل فى جلسته، ثم أذن له. وسألتـه «عائشة» ـ رضي الله عنها ـ بعد انصرافهم، مستـغربة تصرفه، فقال لها صلى الله عليه وسلم :

ـ كيف لا أستحي من رجل تستحي منه الملائكة؟!

ـ يعني «عثمان» ـ رضي الله عنه ـ؛

نعم، لقد كان الحياء عنوانًا بارزًا لأخلاق «عثمان» ـ رضي الله عنه؛ والحياء من الإيمان، كما يحدثنا الرسول الأكرم ﷺ .

ولقد كان هذا الخلق السّامي سَبَبًا رئيسيًا في خَتْم حياته بالشهادة. . !

فقد كان ـ رضي الله عنه ـ ميّالاً إلى الموادَعَة واللّين، يكرهُ العُنفَ وَالشدّة، وقسْوة الكلمة، وهذا ما جعله ـ إبّان خلافته ـ يُهادن مخالفيه، ويساير منازعيه، ممّا جَعَلَ الفِتْنَة على أَيْدي بَعْضهم تطلُّ بِرَأْسها، وتتمادى في غيها، وتَتَجرأ على حصارِهِ فِي بَيْتِه. . ، ثمّ تسوّر الدّار، وقُتِلَ وهُوَ يَتْلُو كتاب الله تعالى. . !وهذا ما سنعرض له في حينِه إن شاء الله .

«عثمان» و«بيعة الرضوان»

تتابعت أيام الكفاح والجهاد، ومرت الأعوام..

ولما كان العام السابع من الهجرة، عقد رسول الله ﷺ النية على أداء مناسك العمرة، فخرج المسلمون معه، وكانوا أربع عشرة مائة، حتى بلغوا مكانًا قريبًا من مكة يدعى «الحديبية»؛ وهي بئر ماء قديمة، جفت وأجدبت.

وهناك توقفوا عن متابعة السير، ذلك أن قريشًا عارضت دخول المسلمين عليها معارضة شديدة، وأنذرت بالحرب واستعدت للقتال.

حتى إنها خَرَجَت من«مكة» وهي على أتمّ تعْبئة كما بَعَثَتْ بفرسانها يقودهم «خالد بن الوليد» ـ وهو يومئذ على شِرْكِه، يُحاذي المسلمين، ويصول ويجول من حوْلهم.

وليست المعارَضَةُ وَحْدَها هي الّتي جَعَلَتْ رسول الله « ﷺ » يتوقف عن المسير، إِذْ لَيْس الخوف من «قريش» وتأهبها يفرض ذلك؛ بل إنه ـ ﷺ ـ أرادَ

أنْ يزور بَيْتَ الله تعالى ويؤدى المناسك مع أصْحابِهِ، مُوادعًا مُسالمًا، معظمًا لحرْمة البيْت العتيق.

وبعث النبى ﷺ «عثمان» رسولاً من عنده ليفاوض قريشًا، ويعلنها أنه لم يأت لحرب، إنما أتى زائرًا معظمًا لحرمات بيت الله الحرام، وكان اختياره ﷺ لـ«عثمان» بسبب مكانته لدى قريش، ولما يتمتع به - رضي الله عنه - من حكمةٍ ودراية وطول أناة.

ومضت أيام، لم يعد خلالها « عثمان»، وانقطعت أخباره عن المسلمين»، فأوجسوا فى أنفسهم خيفة، وأرجف[1] البعض باغتيال قريش لـ «عثمان»، فندب النبى ﷺ وأصحابه للقتال، فبايعوه على ذلك، وسميت تلك البيعة: **«بيْعة الرضوان»**.

إذ أنزل الله تعالى فى سوة الفتح قوله الكريم:

﴿لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَابَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا﴾[سورة الفتح: الآية ١٨].

ولما كان «عثمان» - رضي الله عنه - غائبًا، ضرب النبى ﷺ «كفًا بكفٍ»، وقال: **وهذه عن «عثمان» تصديقًا لبيعته - رضي الله عنه -.**

وبينما المسلمون فى تأهبهم، وتوثبهم واستعدادهم للثأر لـ «عثمان»، عاد إليهم - رضي الله عنه - سالمًا لم يمسسه سوء، ففرحوا بذلك فرحًا كبيرًا.

ثم عقد النبى ﷺ صلح الحديبية مع **«سهيل بن عمرو»** - سفير قريش فى المفاوضة -، وكان مما تضمنه العهد: أن يعود المسلمون إلى مكة للاعتمار فى عام قابل.

وعاد المسلمون إلى المدينة.

---

(٣) أرجف : دعي كذباً.

«عثمان» و«بئر رومة»

عادوا إلى المدينة التى استبد اليـهود بتجارتهـا وأسواقهـا وزروعها ومياهها استبـداداً هائلاً، ردحاً طويلاً من الزمن، يسّره لهم خـلاف «الأوس» و «الخزرج»

فلمـا أرسى رسـول الله ﷺ قواعـد الإخـاء بين المسلمين، (المهـاجـرين والأنصار) على أسـاس من الإيمان العميـق، والحب المتبادل، والتـفانى فى الله، خفت حدة التسلط اليهودي، إلا أنها لم تَنْتَهِ..

وفى أحد الأعوام انحبس المطر وشحت المياه، فوجد أحد يهود المدينة الفرصة السانحـة للإضرار بالمسلمين وللتضيـيق عليهم، وكان يملك بئرًا غـزيرة المياه، فى أرض له، تسمى بئر «رومة».

فأقـبل الناس على رسول الله ﷺ، يشكون له سـوء الحال وقد أجـهدهم العطش وأرهقهم الظمأ، وتـهددت زروعهم..، وكان «عثمـان» - رضي الله عنه - حاضراً مجلس رسول الله ﷺ.

وما أن سمع النبى ﷺ يبشر بالجنة من يشترى بئر «رومة»، حتى أسرع فى ذلك، وجعلها وقفاً للمسلمين، فكانت نفحة من نفحات «عثمان» - رضي الله عنه -.

ولقد قال النبى ﷺ يومذاك: **ما ضَرَّ «عثمان» ما فعل بعد ذلك!!**

«عثمان» وجيش العُسرة

ولما كانت غزوة «تبوك»، وقد قلَّت مـوارد المسلمين، وضاقت بالنبى ﷺ سُبُل تجهيز الجـيش، تحركت فى أعماق «عثمان» - أريحيَّـةُ إيمانه الصادق، فأسهم إسهامًا كـبيرًا فى التجهيز، متـبرعًا بألف جمل، بأحلاسها وأقتـابها، وما تحمل، كما تبرَّع بقسط وافر من الدنانير عينًا.

ما عند الله خير وأبقى

وفى يوم شديد عسير، وقـد خلت أسواق المدينة من الأغذية والأطعمة، وألمّ بالناس الكرب والضنك، أقبل عليـه فى داره نفر من تجار المدينة، وقد علـموا بنبأ وصول قافلة مـحملة بالبضائع المختلفـة من الشام، تخص «عثمان»؛ فعـرضوا عليه شراءها قـائلين: نعطيك ضعـفهـا ربحًا خالـصًا، فأبى وقـال: هناك من أعطانى أكـثـر ، فـألحـوا فى الطلب، وزادوا فى الربح، وهو يـأبى ويقـول: هناك من أعطانى أكثر. . . ، حتى وصلوا معه إلى عرض ثمانية أضعاف، ثم قالوا: نحن تجار المدينة، ولا نعلم فـيها أحدًا يسـتطيع أن يعرض أكـثر مما عرضنا ، فـأجابهم ـ رضي الله عنه ـ:

ـ الله سبحانه وتعالى أعطانى الحسنة بعشر أمثالها.

فانفضوا من عنده، ثم فرق ـ رضي الله عنه ـ الأرزاق فى المسلمين، محتسبًا ذلك عند الله تعالى.

فى عهدىْ «الصديق» و«الفاروق»

بعد أن فـتح الله تعالـى على المسلمين «مكة» فى العام الثـامن من الهـجرة، وطهر البيت الحرام من رجس الأوثان، وحج النبى ﷺ فى العـام العاشر حجة الوداع، لحق بالرفـيق الأعـلى؛ فكان «عـثـمـان» ـ رضي الله عنه ـ ممن توفى رسـول الله ﷺ وهو راضٍ عنهم.

واختار المسلمون «أبا بكر الصديق» خليفة، فقام بأعباء المسؤولية خير قيام، ثم تولّى «عمر بن الخطاب» من بعده فأرسى قواعـد الدولة على أسس ثابتة راسخة، وكثر الفتح فى أيامه.

وكان «عثمان» ـ رضي الله عنه ـ خلال عهدىْ «أبى بكر» و«عمر» مقرباً من الخليفتين، يستشيرانه فـيشير، ويستنصحانه فينصح، عامـلاً فى التجارة والزراعة على جارى عادته ومألوفه فى الكسب.

«عثمان» الخليفة

ولما طُعِنَ «عمر بن الخطاب» - رضي الله عنه -، وشارف على مفارقة الدنيا لم يستخلف شخصًا بعينه، بل سمى ستّة من الصحابة، ممن توفى رسول الله ﷺ وهو راضٍ عنهم، ليختاروا من بينهم خليفة، وسمى ابنه «عبدالله» - سابعاً - على أن لا يكون له من الأمر شيء، بل يرجّح الموقف بين ثلاثة وثلاثة إذا كان هناك اختلاف.

ووقع الاختيار على «عثمان» - رضي الله عنه - وبايعه المسلمون. فتسلم مقاليد الخلافة، وقام بمسؤولياتها خير قيام، وكثرت الفتوحات فى أيامه شرقًا وغربًا، وامتدت رقعة الدولة الإسلامية امتداداً شاسعاً.

«عثمان» والقرآن...

إزاء هذا الامتداد والاتساع، وكثرة الحروب والمعارك، أدرك - رضي الله عنه - بثاقب بصره، وبُعْد نظره، وما فتح الله عليه ما سيؤول إليه أمْرُ القرآن الكريم من الاندثار والاختلاف، ذلك بسبب موت الكثيرين من الحفظة فى ميادين القتال، واختلاف قراءات الأمصار، فجمع القرآن الكريم، وأثبته فى قراءة و احدة، هى لهجة قريش، التى نزل فيها الوحي، وعلى حرف واحد، واستنسخ منه سَبْع نسخ، وزَّع ستّةً فى البلدان، وأبْقى واحدة فى المدينة، عاصمة الخلافة، وعُرِفت هذه النُّسْخَةُ بعد ذلك بـ «**المصحف الإمام**». وأتلف ما دون ذلك، فكانت منه - رضي الله عنه - محمدةٌ تذكر بالفضل والإكبار.

فتح «قبرص»

ورغم كثرة الفتوح. . . ، فقد ظل غزو البحر أملاً يراود بعض القادة، وكم من مرة، ألح والى الشام «**معاوية بن أبى سفيان**» على الخليفة «الفاروق» بغزو «قبرص» - فى البحر الأبيض المتوسط - سَدّاً لثغرة يتدفق منها الروم على السواحل الشامية، لكن «الفاروق» - رضي الله عنه - كان يأبى ذلك، حرصًا منه على أرواح المسلمين

من المغامرة، حتى كانت خلافة «عثمان» ـ ﷺ ـ.

ولقد كان «عثـمان» ـ أموياً ـ محباً لصلة الرحم، عطوفا على ذويه، سـميعًا لهم.

فلما ألح «معاوية» فى استصدار إذن الخليفة بغزو «قبرص»، لم يجد «عثمان» سبـيلاً إلا الموافـقة فـاتخذ «معـاوية» الأهبة، وجـهز السـفن، وأكثر مـن عددها وعُددها، وركب هو وزوجتـه إحداهما، وعلى بركة الله شق السـفين عباب اليم، ووقعت «قـبرص» فى أيدى المسلمين، وفرضت الجـزية على أهلها، وبقيت فيـها حامية من المسـلمين ترد العدوان، وكانت هذه الغزوة فاتحة خـوض البحار لإعلاء كلمة الله ، ونشر راية الإسلام.

وكان فى عـداد الغزاة الفاتحين نفر من كـبار الصحابة ـ رضـوان الله عليهم ـ أمثال: «أبى ذر الغفاري» و «أبى الدرداء» و «عبـادة بن الصامت» ومعه زوجته «أم حرام بنت ملحان»، والتى استشهدت هناك، ولا يزال قبرها قائمًا إلى اليوم.

الفتنة

كان اليـهود الذين شـرَّد بهم رسول الله ﷺ من المدينة وغيـرها من بلدان الحجاز، يتحينون الفرص للانقضاض على الإسلام، تَشَفِّيًا وحقداً..

ولما بدت الفرصة سـانحة فى عهد «عثمـان»، تحرك رأس الأفعى «عبدالله بن سبأ»، أحد يهود اليـمن ـ الذين اتخذوا الإسلام ستـارًا ودثارًا، وبدأ ينفث سمه القتال فى كل مكان، فى الكوفة والبصرة والشام ومصر، داعياً للفتنة، ولقد كانت ذرائعه إلى ذلك كثيرة، والنفوس الضعيفة مـتوتّرة متحفزة، فأخذ يحرِّض ويدعو، ويقول: إن محـمدًا ﷺ أحق بالرجعة من عـيسى، و«على بن أبى طالب» وصى لـ«محمد»؛ و«عثمان» قد أخذ الخلافة بغير حقها...!!!

فسرَت دعوته فى بعض الأقطار مسْرى النار فى الهشيم [1] ، وكثرت

---

(١) الهشيم : العشب الجاف اليابس .

الشكايات من ولاة «عثمان»، وبدأ التـغيير تلْوَ التغييـر، وكان أكثرها من «مصر» ومن «الكوفة» فى العراق.

ولقد كانت حادثة لقـاء «عثمان» بـ «أبى ذر» - رضي الله عنه - مسرحـاً كبيراً للتأويل والتشنيع، والتَّزوير على التاريخ، وسببـاً من أسباب ازدياد النقمة على «عثمان».

كان «أبو ذر» مقيمًا فى الشام، ولقد لقيه «ابن سبأ»، وكان «أبو ذر» - رضي الله عنه - من الزاهدين، لا يحب الترف ولا يميل إليه، سريع الغضب فى الحق، شجاعًا فى مقولته، وتأثر فى بعض آرائه فى النقمة على «معاوية» بـ «ابن سبأ».

دخل على «معاوية» فرأى الشُّرَطَ والحُجَّاب على الأبواب، ورأى فى مجلس الولاية الأرائك والستور والسجاد والتـحف، فاشتد فى النصيحة لـ «معاوية»، وقسا فى اللوم وكان مما قاله: إن كنت قد اتخذت ذلك من مال المسلمين فـهى خيانة، وإن كنت قـد اتخذته من مالك فهـو إسراف وتبذير، فالله لا يحبُّ الخائنين، و الله لا يحب المسرفين.

تركت الحادثة فى نفس «معاوية» موجدة على «أبى ذر»..

ولم يلبث «أبو ذر» أن تحـول إلى الناس فى كل مكان يثيـرهم على «معاوية» وعلى «عثمان» الذى ولاَّه..

عندئذ أرسل «معاوية» إلى الخليفة «عـثمان» - رضي الله عنه - بكل التفاصيل، وبين له مغبة التغاضى عن دعاوى «أبى ذر»، وتأوله لقوله تعالى:

﴿ وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلا يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ۝ يَوْمَ يُحْمَىٰ عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ هَٰذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنفُسِكُمْ فَذُوقُوا مَا كُنتُمْ تَكْنِزُونَ ﴾ [سورة التوبة : الآيتان٣٤، ٣٥].

إذْ كان «أبو ذر» ـ ﷺ ـ يقول بأن فى مال المسلم حق لله تعالى سوى الزكاة. . .

فاستقدم «عثمان»«أبا ذر»من الشام، وحاوَرَهُ. . ، فلم يتراجع «أبوذر» عن أقواله وآرائه، فحذره «عثمان» من المقام بالمدينة أو الشام، فاختار ـ ﷺ ـ مكانًا يدعى «الربذة»، قريبًا من المدينة. .

ولقد كان لـ «أبى ذر» ـ ﷺ ـ مكانةٌ مرموقة بين المسلمين، ومقام محترم، ورأيٌ مُطاع، لما يدعو إليه من الإنصاف الاجتماعى، وعدم الاحتكار، وله مستمعون وأتباع، فنقم هؤلاء على «عثمان»، واتخذ المغرضون وأصحاب الأهواء هذه الحادثة ذريعة لإذكاءِ روح الفتنة.

من الشام إلى مصر

وحيث لم تفلح فتنة «ابن سبأ» فى الشام؛ رحل إلى مصر وهناك التقى بمن يستمع له، ويتأثر بآرائه. ويندفع بها، فى النقمة على «عثمان» ـ ﷺ ـ.

ففى ذات يوم، بينما كان «عثمان» فى دار الخلافة بالمدينة، استأذن فى الدخول عليه جماعة من أهل مصر، على رأسهم «محمد بن أبى بكر» (١) فاستمع إلى شكاياتهم وتذمرهم من سوء سياسة واليهم «عبدالله بن سعد بن أبى السرح» ـ وكان أخاً لـ «عثمان» من الرضاع.

فطيب «عثمان» خاطرهم، وأرسل لـ«ابن أبى السرح» ينذره ويتهدده ويتوعده.

لكن الشكوى لم تنقطع. . .

ذلك أن رأس الفتنة «ابن سبأ» ما زال يثير الناس فلم ير «عثمان» ـ ﷺ ـ بُدًّا من عزل «ابن أبى السرح» وتولية من يرتضيه من الناس أصحاب الشكوى.

---

(١) أمّه: «أسماء بنت عُمَيْس» تزوجها «أبو بكر» ـ ﷺ ـ بعد استشهاد زوجها «جعفر بن أبى طالب» فى مؤته فولدت له «محمداً»، فلما توفى «أبو بكر» تزوجها «على بن أبى طالب»، فانتقل معها ولدها محمد إلى بيت «على»؛ وفى حجره تربى ،نشا، ومن هنا كانت موالاة «محمد» لـ«على».

فاستشارهم، فأشاروا بـ«محمـد بن أبى بكر» فكتب له كتاباً بالتولية، ووجهه مع بعض الصحابة إلى مصر، لإصلاح ذات البين، وإزالة أسباب الشكوى.

شبهة وارتياب

مضى «محـمد بن أبى بكر» مع الوفد المرافق له، حاملاً كتـاب أمير المؤمنين إلى مصـر؛ وبعد مسـيرة أيام، وحينمـا أقاموا للراحـة من عناء الرحلة ووعـثاء الطريق، مر بهم غلام... فاستوقفوه وسألوه عن مقصـده، فأجابهم بأنه رسول الخليـفة إلى عـامله على مـصر، فـقالوا: إن عـامل الخليـفة على مـصر مـعنا، وهاهو...، وأشاروا إلى «محمد بن أبى بكر»، فقال: أقصد غيره.

حينئذ ارتاب الوفد فى أمر الغـلام، وأثار بعضهم بتفتيشه، فـعثروا معه على كتاب ممهور[1] بخاتم «عـثمان» إلى عامله على مـصر «عبد الله بن سـعد بن أبى السرح» يـأمره فيـه بضرب أعناق «مـحمـد بن أبى بكر» والوفد المرافـق له، فور وصولهم إلى مصر...!!

(وهذه الرواية فيها كثير من الشك والإرتياب)!؟

هنا، استشاطوا غـضبـا، وثاروا غيظًا وارتدوا عـائدين إلى المدينة، ومـعهم الكتاب والغلام، وقصـدوا فور وصولهم إلى «علىّ» ـ كرم الله وجهه ـ، وعرضوا عليه الأمر، وكذا على غيره من أجلاء الصحابة.

فهدأ «علي» من ثورتهم وروعهم، ثم حمل الكتاب ومضى به إلى «عثمان»، وجرى بينهما تحاور وكلام، تبين فى نهـايته تزوير الكتاب والختم أيضًا، واتجه ظن «على» ـ ﷺ ـ نحو «مروان بن الحكم» ـ أحـد أقرباء «عـثمـان» بأنه وراء هذا التدبيـر، فطلب من «عثـمان» أن يسلم «مـروان» إلى القوم، لتـجرى محـاكمـته والاقتصاص منه، جزاءً وفاقاً، لكن «عثمان» ـ ﷺ ـ أبى ذلك واستمسك برأيه، ورفض الاتهام من غير دليل أو بيِّنة، ورجح ـ ﷺ ـ أن هناك مـؤامرة تتعدى هذا

(١) ممهور: موقع.

النطاق، فلا يؤخذ البرىء بجناية غيره.

وأحاط القوم بدار «عثمان» ينذرونه بتسليم «مروان»، أو بتحمل المسؤولية كاملةً، فاصر على موقفه، ولم يتزحزح عنه.

الشهيد

عندها لم يجد القوم بدًا من تنفيذ تهديدهم ووعيدهم، وكانت ليلة رهيبة ..

ليلة لا يزال التاريخ يذكرها بألم وحزن!!!

«عثمان» - رضي الله عنه - لا يخرج من داره. لائذاً بقرآنه، يتلو آياته منتظراً قضاء الله وفرجه.

رافضاً كُلَّ عَرْضٍ قُدِّمَ لَهُ بالمواجهة وقتال الثائرين ودفْعِهم عن الدار..

والثائرون الذين حركتهم الفتنة تلمع سيوفهم تحت جنح الظلام كالبرق الخاطف.

ووجد فى القوم من يتسلق أسوار الدار، مشجعا على الجريمة...، فتبعوه و احدًا تلو الآخر، وعلا الصياح والصخب، وراحت السيوف تنهش جسد «عثمان» الطاهر - رضي الله عنه - كالذئاب الضوارى، والدماء الزكية تصبغ بلونها القانى صفحات كتاب الله المفتوح أمامه ...

وصعدت روحه الطاهرة إلى بارئها - عز وجل - تشكو إليه ظلم الدساسين المفترين، والمقهورين الحاقدين.

ونُكبت الأمة الإسلامية بفتنة، حبك خيوط مؤامرتها الحقد اليهودى، بدأت فى عهد «عثمان» واستمرت ردْحًا طويلاً من الزمن

رضى الله عن «عثمان» المقتول ظلمًا، وأسكنه من لدنه منزلاً مباركًا فى مقعد صدقٍ، ﴿ وَجَزَاهُم بِمَا صَبَرُوا جَنَّةً وَحَرِيرًا ﴾ .

(فتى الإسلام) علي بن أبي طالب كرم الله وجهه

- «عليٌّ» - كَرَّم الله وجهه - ... عن السُّجود لصنم أو وثنٍ، إذ تفتَّحت عيناه على نور الإسلام.
- وكان أوَّل الصبيانِ إسلاماً.
- تربَّى في بيت النُّبوَّة ، فكان أول تلميذ في المدرسة المحمدية.
- وكان أول فدائي في الإسلام.
- ومن أوائل الأبطال يوم « بدر ».
- ومن أوائل الفرسان البارزين يوم « الخندق ».
- وكان صاحب الذرية الطاهرة من « آل البيت ».
- وكان - أيضاً المبلِّغ عن رسول الله ﷺ بسورة «براءة»، إلى الناس في الحج، العام التاسع من الهجرة.
- وصاحب اللواء المنصور يوم « خيبر » ، وقد فتح الله على يديه.
- وصدقت فيه نبوءة رسول الله ﷺ بالشهادة .. والبُشرى بالجنة.

بسم الله الرحمن الرحيم

قال الله تعالى:

﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ﴾ [البقرة الآية: ٢٠٧].

وقال - عزّ منْ قائل:

﴿يُوفُونَ بِالنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْماً كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيراً ۝ وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِ مِسْكِيناً وَيَتِيماً وَأَسِيراً﴾ [سورة الإنسان الآيات: ٧-٨].

إنَّ يَوْم السابع عشر من شهر رمضان فى حياة علي - ﷺ - قصةٌ..، وملْحمة..، قصةٌ بُطولة وملْحمة استشهاد.

فلقد كان - ﷺ - أحد الأبطال الأعلام يَوْم «بدر»، حينَ اختارهُ النبيُّ «ﷺ» مع عمِّه «حمزةَ» وابن عمِّه «عُبَيْدة بن الحارث بن عبد المطلب» ليكُونُوا طليعَة القتال، وأوَّل المبارزين؛ وسرعان ما أسفَرت المعركة عن جنْدَلة رؤوس الشِّرْك: «عتْبَةَ بن ربيعة» و«شيبة بن ربيعة» و«الوليد بن عُتْبَة»!!.

وكان ذلك فى اليَوْم السابع عَشَر من شهر رمضان العام الثانى من الهجرة، فى ذات اليوم، السابع عشر من رمضان عام أربعين من الهجْرة، نَفَذَتْ طَعْنَةُ «ابن مُلْجم» الخارجىّ - فى جَسَد «علىّ» الطاهر، وهوَ يهمّ بالصَّلاة فجْراً؛ إماماً وخليفةً، وسَقَط البطل مضرَّجاً بدمائه الزكية، تبلِّل الثَّرى فى مَسْجد «الكوفة»..، وتشهد على الملْحمة.

فى بيت «أبى طالب»

كان رسول الله ﷺ يخاطب «فاطمة بنت أسد» زوجة عمه «أبى طالب» بقوله: يا أُمّه.

وكيف لا؟

أليس قد تربى فى حجرها، ونما فى مهدها، ونشأ فى أحضانها، وأحاطته بعطفها ورعايتها؟.

حين حُرم عَطف أمه الرؤوم، وفقد حنان جده، وهو لم يتجاوز الثامنة من عمره، ضمَّهُ عمهُ «أبو طالب» إلى كفالته تنفيذاً لوصية أبيه «عبد المطلب» التى نطق بها وهو يلفظ أنفاسه الأخيرة:

أُوصيِ «أبا طالبِ» بذى رَحِـــم
«محمد»وهو بَينَ النّاس «مَحْمُودُ»

فاحذر عَلَيْه شِـــرارَ النّاس كُلّهم
وَالحاسِدينَ فإنَّ الخَيْر محســـود

وفى بيت «خديجة»

فلما بلغ «محمد» - ﷺ - أشده واستوى عوده، وزاول كسب يده بنفسه، ولقمة عيشه بجهده، وتزوج من «خديجة بنت خويلد» وأصابت قريش سنوات عجاف.. ، أراد أن يخفف عن عمه «أبى طالب»، نظراً لكثرة عياله، وما يكابده من مغارم الرياسة فى «بنى هاشم»، اقترح عليه أن يضم أحد أبنائه إليه، فقبل، ووقع الإختيار على «علي».

ضم النبى ﷺ «على بن أبى طالب» إلى كنفه ليكفى عمه مؤونته، جزاء ما قدم له من إحسان.

﴿ هَلْ جزَاءُ الإِحْسَانِ إلاَّ الإِحْسَانُ ﴾ [سورة الرحمن الآية: ٦٠].

فتربى «علىّ» فى حِجْر رسول الله ﷺ ، ودرج فى مدرسة النبوة العظيمة، ونشأ فى رعايته الشريفة، وتشرب منذ الصغر أدبه ومنهجه فى الحياة، فَتَحلى بكريم الخصال وأنبل الفعال، من حسن الخلق، وجميل الأدب، وكرم المعاشرة، ولطف

المعاملة، والبر بالفقراء، والعطف على المحتاجين والمساكين، وشجاعة القلب، وصفاء النفس، وفصاحة اللسان، وقوة الجنان، وسعة الصدر، والأناة والحلم.

إسلامه

استيقظ «عليٌّ» من النوم - ذات يوم -، ودخل على الرسول ﷺ وزوجته «خديجة» فوجدهما يصليان، فقال: ما هذا؟ فقال رسول الله ﷺ :

هذا دين الله الذى اصطفاه لنفسه، وبعث به رُسُله، فأدعوك إلى الله وحده لا شريك له، وإلى عبادته، والكفر باللات والعزى .

فقال «علي» - رضي الله عنه -: هذا أمر لم أسمع به قبل اليوم، فلست بقاضٍ أمراً حتى أحدِّث «أبا طالب».

ومكث «عليٌّ» يفكر فى ذلك، طوال يومه وليلته، ثم هداه الله إلى الإسلام، فمضى إلى رسول الله ﷺ ، وأسلم على يديه، ولم يكن قد بلغ العاشرة من عمره ؛ فكان أوَّلَ الصبيان إسْلاماً، وثالث ثلاثةٍ فى مَوْكبِ النُّور والهُدى؛ وكرَّم الله وجْهَهُ عن السُّجُود لصَنَمٍ أوْ وثَنٍ.

(صِلْ جناح ابن عمك)

كان «على» - رضي الله عنه - يُخْفى إسلامه خوفاً من أبيه، فكان إذا أراد أن يصلِّى خرج إلى شِعابِ «مكة» مع رَسُولِ الله ﷺ مُسْتَخفِياً مِنْ أبيه، ومن جميع أعمامه وسائر قومه، فيصليان. . ، فإذا أمْسيا رجعا.

ولسائلٍ أنْ يَسْأل:

- إن الصَّلاة - كما نَعْرِف - قد فُرِضَتْ ليلة الإسراء والمعْراج، فكيف كانَ النبيُّ «ﷺ» والَّذين آمَنُوا معَهُ يُصَلُّون؟.

فنجيب: بأنَّ الصَّلاةَ التى نؤديها فَريضةٌ، هى التى أُمِرَ بها رسول الله

«ﷺ» من فوق سَبْع سماوات، بأوقـاتها وأَعْـدادها، وقد صلاّها بِهِ «جـبريل» «عليه السـلام»، معلّمـاً ثم قال (عليه الصـلاة والسّلام) لأصـحابِهِ: [صَلُّوا كـما رأيتُموني أُصَلّي].

أما صلاتُه ـ«ﷺ» قبل ذلك، ومنذ أنْ نُبِّئ، فقد كانَتْ شيْئاً آخر، وَجُلّ ما قاله المؤرِّخـون والعلماء في هذا الصَّدد أنهـا كانت ذات ركوع وسجـودٍ، وقراءَةٍ، ودُعاءٍ وتهجُّد. . ! واللهُ أعلم.

فلما علم «أبو طالب» بإسلام «عليّ» سأله:

ـ يا بُنَيَّ ما هذا الدين الذى أنت عليه؟

فأجابه «على»:

ـ يا أبت، آمنت بالله ورسوله، وصدقت بما جـاء به «محمد» ﷺ وصليت معه واتبعته .

فقال «أبو طالب»: أما إنه لم يدعك إلا إلى خير فالزمه واثبت على دينه.

فَسُرَّ «عليٌّ» ـ كرم الله وجهه ـ وأعلن إسلامه.

وآزَرَ النبى ﷺ فى دعوته، فشد عَضُـده، وشاركه فى الدعوة إلى الإسلام متحملاً فى سبيل ذلك من العنت والإرهـاق ما تنـوء عن حمله الجبال .

(القطيعة)

وأخذت «قـريش» تتفنن فى إيذاء الرسـول ﷺ وأصحابه، ليـصدوهم عن سبـيل الله، وليفـرقوهم عن «مـحمد بن عـبدالله»، الذى سب آلهـتهم، وسـفه أحـلامهم، ولكن من غـيـر جدوى. . ، فكلـما أمـعنت «قـريش» فى التنكيل بـ «محمد» وأصحابه ازداد هؤلاء الأبرار تمسكاً بدينهم، والتفافاً حول نبيهم.

فلما أعـيت قريشاً الحِيَلُ فى صد المسلمين عن دعـوتهم، اجتمـعوا فى دار الندوة، وتشاوروا فى الأمر، ثـم استقر رأيهم على مقـاطعة المسلمين وبنى هاشم

وبنى المطلب . . ، لا يبيعونهم ولا يتباعون منهم، ولا يزوجونهم ولا يتزوجون منهم، وكتبوا بذلك صحيفة علقوها فى جوف الكعبة.

وبمقتضى ذلك حوصر الرسول ﷺ مع «عمه أبى طالب» وبنى هاشم وبنى المطلب والمسلمين فى شعب[1] من شعاب مكة، عرف «بشعب أبى طالب».

وكان ذلك فى أول المحرم سنة سبع من نُبُوة سيدنا رسول الله ﷺ ، وظلوا معزولين محصورين، لا يخرجون إلا من موسم إلى موسم - ثلاثة أعوام - يقاسون الجوع والتعب، وقسوة الطبيعة، حتى بلغ منهم الجهد مبلغاً خطيراً، إذْ أكلوا أوراق الشجر . . !

وكانت قريش تسمع أصوات صبيانهم يبكون جوعاً ومَسْغَبَةً فلا ترق قلوبهم.

الأنصار والفرج بعد الشدة

ما كاد بنو هاشم يخرجون من هذا الحصار الاقتصادى حتى توفى «أبو طالب»، ولقد نالت قريش من رسول الله ﷺ ومن أصحابه، ومن «على» - كرم الله وجهه - ما لم تكن تستطيعه فى حياة «أبى طالب» . . ، واشتد الكرب على المسلمين، فعانُوا أعظم الشدائد، وبلغ التنكيل بهم ذروته.

ولكنَ الله تعالى، الذى وعد رسوله بإظهار دينه، فى كتابه الكريم، ساق نفراً من أهل يثرب . ، فأسلموا، وبايعوا رسول الله ﷺ على التناصر . .

وكانت بيعة الأنصار (الأوْس والخزرج) للنبيِّ «ﷺ» فى وادى «منى» عِنْد «العقبة»، وفى الموسم.

والموْسم - يا عزيزى - هى أيّام الحجّ؛ فقد كانت العرب عامّةً تَقْصدُ «مكة» فى تلك الأيام، وتقيم مضاربها فى «منى»؛ وتقوم بِبَعْض الأعمال التعبُّديَّة وذلك بقيَّةٌ من دين «إبراهيم» - عليه السلام - لَدَيْهم؛ لكنَّ ذلك كُلَّه لم يكن خالصاً لله تعالى وَحْده، فقد اختلطت عَلَيهم الأمُور، إذْ عبدوا الأصنام والأوْثان من دوُن الله !!.

(١) الشعب : الطريق بين جبلين .

بعدهـا أذن النبى ﷺ لأصحـابه بالهجـرة إلى يثرب، فـأخذوا يخـرجون فرادى، أو مستخفين. . ، ولم يبق بـ«مكة» مع رسول الله ﷺ سوى «أبى بكر الصديق» ـ رضي الله عنه ـ و«على» ـ كرم الله وجهه ـ وبعض المستضعفين.

فلما رأت «قريش» ذلك خشيت أن يلحق النبى ﷺ بأصحابه فيصبح ذا قوة بهم، وبأهل يثرب، فاجتمعـوا فى دار ندوتهم، وقرروا اغتيال رسول الله ﷺ على يد فتيان من قريش، يُختارون من جـميع القبائل، حتى لا يستطيع بنو هاشم الأخذ بثأره، ويرضون بالدية

أول فدائى فى الإسلام

أخبر الله تعـالى نبيه ﷺ بتآمـر قريش وتَبْييـتها، وأمره بالهـجرة، فطلب ﷺ من «على» أن ينام فى فراشه، ويـتسجى ببرده، ليوهم قـريشاً أنه لم يغادر بيته. .

ثم ليؤدى عن النبى ﷺ ما عنده من الودائع والأمانات فأطاع الفتى الوفى، الصادق الإيمان، والتلميذ المخلص النجيب، الناشىء فى طاعة الله ، المتأدب بأدب رسـول الله ﷺ ، ونام فى فراش رسـول الله ﷺ ،غـير هيـاب ولا وجل، معتقداً بحفظ الله له من كل سوء أو أذى، كما أعلنه وأعلمه رسول الله ﷺ . وأثنى الله تعالى عليه بقوله الكريم:

﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ﴾.

ثم إن رسول الله «ﷺ» خَرَج من بَيْته يُردد قول الله تعالى: ﴿ وَجَعَلْنَا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لا يُبْصِرُونَ ﴾،فتحول المتربصون برسول الله ﷺ نُصباً، لا يحـسون ولا يشعرون؛نياماً مُسْتـغرقين فى السُّبات، كأنَّهم خُشُبٌ مسندة .

ولحق ﷺ مع«أبى بكر»ـ رضي الله عنه ـ بالغـار، غـار ثور ومكثـا فيـه ثلاثة أيام بلياليها، حتى هدأ الطلب عنهما، ثم ارتحلا إلى يثرب.

ولما اقتحم المتآمرون بيت رسول الله ﷺ في السَّحر، وجدوا «علياً» ـ كرم الله وجهه ـ في الفراش، فَمُنُّوا بأبشع خيبة، وسقط في أيديهم.

ثم لحق «علي» برسول الله ﷺ إلى المدينة، بعد أن رد الودائع إلى أصحابها.

وكما آخى النبيُّ «عليه الصلاة والسلام» بين أصحابه من المهاجرين والأنصار، أخذ بيد «عليّ» وقال: هذا أخي، فصار ـ كرم الله وجهه ـ هو ورسول الله أخوين في الله عز وجل.

جهاده ﷺ .

لما هاجر «علي» إلى المدينة، كان قد بلغ أشده، وقارب تمام العقْد الثاني من عمره، فاستقبل المعارك التي خاضها الرسول ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ بعزيمة وثبات، وشهد جميع الغزوات، سوى غزوة «تبوك»، إذ استخلفه النبي ﷺ على المدينة، وعلى أهله، ولما أبدى رغبته في الخروج معه للجهاد، طيَّب خاطره وقال له: أما ترضى أن تكون مِنّي بمنزلة «هارون» من «موسى» إلا أنه لا نبيَّ بعدي.

أول المبارزين

لما تراءى الجمعان في «بدر»، برز ثلاثة من عمالقة «قريش» وصناديد المشركين، هم: «شيبة بن ربيعة» وأخوه «عتبة بن ربيعة» و«الوليد بن عتبة» ونادوا: هل من مبارز؟.

فأخرج إليهم رسول الله ثلاثة من بني هاشم، هم: «**حمزة بن عبد المطلب**»، و«**علي بن أبي طالب**» و«**عبيدة بن الحارث بن عبد المطلب**».

وما هي إلا جولة حتى قضى المسلمون الثلاثة على المشركين الثلاثة.. ولم يُصبْ من المسلمين إلا «عبيدة» بجرح في ساقه.

وبطل الخندق

ولما كان يوم الخندق، خرج «عمرو بن عَبْد وُدٍّ العامرىّ» من بين صفوف المشركين، وكان فارساً مغواراً مشهوراً، ودعا إلى المبارزة، فتصدى له «على» ـ كرم الله وجهه ـ، فقال له «عمرو»:

ـ ارجع يا ابن أخى، فإنى لا أحب أن أقتلك! مستخفاً به، لصغر سنه.

فقال له «على»:

ـ ولكنى أحب يا «عمرو» أن أقتلك؛ وأقبل على «علىّ» فتنازلا، وتجاولا، ثم قتله «على» ـ كرم الله وجهه ـ؛ وهَلَّل المسلمون لذلك وكبَّروا.

فتح «خيبر»

لما نزل رسول الله ﷺ بـ«خيبر» أصيب بصداع فى رأسه [1] ، فلم يخرج مع المقاتلين، فأخذ «أبو بكر» ـ رضي الله عنه ـ الراية، ثم نهض وقاتل قتالاً شديداً، ثم رجع.

ثم أخذها «عمر» ـ رضي الله عنه ـ من بعده، وقاتل هو أيضاً قتالاً أشد من القتال الأول، ثم رجع.

فأخبر بذلك رسول الله ﷺ ، فقال: لأعْطِينَّ الراية غداً، رجلاً يحب الله ورسوله ويحبُّه الله ورَسُولُه ﷺ ، يفتح الله على يديه.

فتمنى كل واحد من الصحابة أن يكون هو؛ حتى إن «عمر» ـ رضي الله عنه ـ قال: ما تمنَّيْتُ الإمارة كما تمنيتها فى ذلك اليوم.

فلما كان الغد، سأل رسول الله ﷺ عن «على»، فقيل له: إنه أرمد، فدعا به، فلما حضر مسح رسول الله ﷺ بريقه الشريف على عينى «على» فبرئت، ثم أعطاه الراية، فنهض بها حتى أتى حصون «خيبر»، فخرج إليه فارس اليهود «مَرْحب»، وهو يرتجز:

(١) صداع نصفى يعرف بـ« الشقيقة ».

قَدْ عَلِمَتْ «خَيْبَرُ» أَنّي «مَرْحَبُ»
شاكي السِّلاحِ بَطَلٌ مُجَرَّبُ
أَطعَنُ أحْياناً وَحيناً أضرِبُ
إذا اللُّيوثُ أقْبَلَتْ تَحَزَّبُ

فأجابه «علىّ» - رضي الله عنه -:

أنا الذي أسمتني أمي حَيْدَرَة[1]
كلَيْثِ غاباتٍ شَديدِ القَسْوَرَة
أكيلُكُم بالسَّيْفِ كَيْلَ السَّنْدَرَه[2]

فاختلفا ضربتين، عضت الأولى من «مرحب» فى ترس «علىّ»، وكانت الثانية من «علىّ» على هامة «مرحب» فشقت رأسه حتى عضّت فى أسنانه.

ويروى بأن «علياً» - رضي الله عنه - قد تناول بيده باباً فترس به، بدلاً من ترسه الذى شقه «مرحب» ولم يزل يقاتل والباب فى يده حتى فتح الله عليه، واقتحم المسلمون الحصن، عندئذ ألقاه من يده، فاجتمع ثمانية نفرٍ على ذلك الباب ليرفعوه فما استطاعوا لثقله؛ - والله أعلم -.

خير النساء لخير الرجال

وزوّج النبى صلى الله عليه وسلم ابنته «فاطمة» - رضي الله عنها - لـ«على» - كرم الله وجهه -، ولقد قال صلى الله عليه وسلم فى ذلك: **أعطيت خير النساء لخير الرجال.**

ولم يكن «علىٌّ» فى حينها قد تجاوز الخامسة والعشرين من عمره.

واختار صلى الله عليه وسلم لهما سكناً بجوار حجرات أزواجه ، فعاشا متمتِّعَيْن بهذا الجوار الكريم، عيشة راضية، وأنجبا ذرية صالحة، إذ رزقهما الله تعالى بـ: «الحسن» و«الحسين» و«زينب» و«أم كلثوم» - رضي الله عنهم أجمعين -[3].

وكان «عليه الصلاة والسلام» يحيطهم بحنانه وعطفه، لا سيما أحفاده.

---

(١) حيدرة : من أسماء الأسد. (٢) كيل السندرة : قتلا واسعاً شديداً سريعاً .

(١) ويُقال بأنهما أنجبا ذكراً ثالثاً اسمُهُ « مُحسن » ، مات صغيراً .

﴿ وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّه.... ﴾

مرض «الحسن» و«الحسين» - ﷺ - فتألم لهما أبواهما، ونذرا لله تعالى صوم ثلاثة أيام، فلما شفاهما الله عز وجل، وفيا بنذرهما، ولم يكونا يملكان سوى طعام العشاء، فمر بهما في اليوم الأول (مسكين)، فبذلا له عشاءهما، وفي اليوم التالي طاف عليهما (يتيم)، فأعطياه طعامهما، وفي اليوم الثالث جاء إليهما (أسير)، فناولاه قوتهما....

ولم يذوقا إلا الماء في وقت الإفطار، مدة صيامهما، مؤثرين هؤلاء المحتاجين على أنفسهما، وبذلك استحقا ثناء الله عليهما، بقوله سبحانه:

﴿ يُوفُونَ بِالنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيرًا ۝ وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ۝ إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكُورًا ۝ إِنَّا نَخَافُ مِن رَّبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا ۝ فَوَقَاهُمُ اللَّهُ شَرَّ ذَٰلِكَ الْيَوْمِ وَلَقَّاهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا ۝ وَجَزَاهُم بِمَا صَبَرُوا جَنَّةً وَحَرِيرًا ﴾[سورة الإنسان الآيات: ٧-١٢].

لقد كان «علي» - ﷺ - على درجة عظيمة من السخاء وكرم النفس، فقد مر به ذات مرة وهو يصلي سائل، فأسرع إلى بذل خاتمة الفضي له، وهو راكع في صلاته، ولم ينتظر حتى يفرغ من الصلاة، فأثنى الله تعالى عليه بقوله:

﴿ إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ ﴾[سورة المائدة الآية: ٥٥].

ومدحه «حسَّان بن ثابت» - ﷺ - فقال:

«أبا حسنٍ» تفديك نفسي ومهجتي
وكل بطيء في الهدى ومسارع
فأنت الذي أعطيت إذ كنت راكعاً
زكاة، فدَتْكَ النَّفس يا خَيْر راكِعِ

بعد رسول الله ﷺ .

ظل «على» ـ كرم الله وجهه ـ ملازماً لرسول الله ﷺ في مرضه الذى توفاه الله فيه، فلم يفارقه لحظة و احدة، حتى لحق بالرفيق الأعلى.

فقام بتجهيزه ودفنه مع عمه «العباس بن عبد المطلب»؛ وأخيه «قثم بن أبى طالب»، وحين فرغ من ذلك وجد أن البيعة قد تمت لـ «أبى بكر» ـ رضي الله عنه ـ، من المهاجرين والأنصار، فبايع هو أيضا ويروي بعض المؤرخين أنه ـ رضي الله عنه ـ قد امتنع أولاً عن البيعة، فقد كان يرى أحقيَّته فى الأمّر دونَ سواه، واستمَّر على ذلك أياماً.

إلى أن عاتبه «أبو بكُر» قائلاً: ـ ما معناه ـ لقد كُنْتَ يا «أبا الحسن» من أوّل الناس إسلاماً وإيماناً، فلا تكن أوّل من يشق عصا الطاعة. . !

عندها بايَعَ «علىٌّ» ـ رضي الله عنه ـ.

ومكث طوال عهد الخلفاء الثلاثة: «أبى بكر» و«عمر» و«عثمان» وفياً على العهد، مستشاراً وموجهاً، يحل عويصات المشاكل والقضايا، ويذلل أعْقَدَ المعضلات.

إذ كان رأساً فى الفقة والفتوى والقضايا، وها هو «الفاروق» ـ رضي الله عنه ـ يقول: (أقضانا «على»)، ويقول ايضاً: (لولا «على» لهلك «عمر»).

وها هى أم المؤمنين «عائشة» ـ رضي الله عنها ـ تقول: (إن «عليا» أعلم الناس بالسنّة).

ويقول «على» عن نفسه: (سلونى، فوالله لا تسألونى عن شىء إلا أخبرتكم به، وسلونى عن كتاب الله ، فو الله ما من آية نزلت إلا وأنا أعلم أبليل نزلت أم بنهار أفى سهل أم فى جبل».

وكان ـ رضي الله عنه ـ من الحفظة الكتبة.

أمير المؤمنين

لما استشهد «عثمان بن عفان» ـ رضي الله عنه ـ بايع كبار الصحابة «علياً» بالخلافة، وكان فى طليعة المبايعين «طلحة بن عبيدالله » و«الزبير بن العوام»؛ ثم لحقا بأم المؤمنين «عائشة» ـ رضي الله عنها ـ إلى «مكّة»، ثم ذهبوا جميعاً إلى «البصرة» وقد رأوا

ضرورة سرعة القصاص من قتلة «عثمان».

والوقائع التاريخيَّة تَشْهد - وتؤكّد - بأنَّ تأخر القصاص من قتلة «عثمان» لم يكُنْ مقصوداً، ولكن سيدنا «علي» - رضي الله عنه - أراد أن يبدأ أولاً بتهدئة وضبط الأوضاع ولجم الفتنة عن الجموح، ثم ينال كل إنسان جزاء ما اقترفت يداه.

ثم حدثت بعد ذلك أحداث وقعة «الجمل» التي توجهت على أثرها السيدة عائشة - رضي الله عنها - إلى المدينة المنورة.

وقد أصيب في هذه الوقعة «طلحة» - رضي الله عنه - بسهم قبل بدء القتال، ولم يعرف مصدره، فقضى شهيداً.

وكذلك «الزبير» - رضي الله عنه -، فقد لوى عنان فرسه مُسْتنكفًا عن القتال، ورجع من الميدان، فغدر به فى الطريق بعض الصعاليك[1]، فمات شهيداً.

ولم يكن القتالُ قد وقع بَيْن الطرفيْن بعد، إذْ كانَتْ تجرى بينهما مفاوضات وَمراسلات، وهم فى مواقعهم وتَعبئتهم؛ حتى إنَّهم باتُوا قريباً فى الاتفاق وحقن الدماء.

إلاّ أنَّ السهم الذى أصابَ «طلْحة» فأرداهُ - رضي الله عنه - وكان من مصْدرٍ مجهول - كما ذكرْنا - أجّج نيرانَ الحرب، وحَفَّزَ إلى القتال، ووقعت الواقعة.

وما من شكّ فى أن صاحب ذلك السَّهْم لا يُريد بالمسلمين خيراً. . . ، فأرجو أن تتنبَّه لذلك!!!

(صفين)

وكان «معاوية بن أبى سفيان» والياً على الشام، منذ أيام «عمر» وطوال عهد «عثمان».

وقد توقف «معاوية بن أبى سفيان» والى الشام عن البيْعة، متذرعاً بِنَفْس الأسباب التى خَرَجَ من أجْلها «طَلْحَة» و«الزُّبَيْر»، مطالباً «عليّاً» بالاقتصاص من

(١) ويُقال بأنهما أنجبا ذكراً ثالثاً اسمُهُ «مُحسن»، مات صغيراً.

قتلة «عثمان»، ودونَ إبطاء.

كما أنَّه نَشَرَ قميص «عثمان» - ثوبهُ - المبلل بالدِّماء، على مِنبَر المسجد الجامع في «دمشق»، يَستثيُر به غَضَب أهْل الشام وجندها على قتلة «عثمان»، وعلى «علىّ» الذى يؤويهم..!

وتطورت الأحداث...

فسار «على» بجيشه من «الكوفة» إلى «الشام» وخرج «معاوية» بجيش الشام لملاقاة «على» وتقابلوا عند «صفين».

وتفاوض الطرفان، ولكن السلم لم يتم، فاشتبكوا جميعًا، وكادت المعركة تنتهى بالنصر لجيش على، لولا ما أشار به «عمرو بن العاص» على «معاوية» من رفع المصاحف، والمناداة بتحكيم كتاب الله تعالى.

وبالرغم من تحذير «على»لجيشه، ورفضه هذا التصرف بقوله لهم: إنها كلمة حق يراد بها باطل، فقد اضطر لقبولها نزولا على رغبة أكثرية جيشه، ولكن التحكيم انتهى... بخديعة «عمرو بن العاص» لـ«أبى موسى الأشعرى».

فقد اجْتمع «عمرو» و«أبو موسى» وتباحثا فى الأمر الطارئ الذى يُهدِّد مجتمع الإسلام ودَولْته، واتفقا على أنْ يَخْلَعَ كل منهما صاحبهُ من بيْعة الخلافة، ويتركُ الشَّأن لجماعة المسلمين، يتفقوا على واحد منهم؛ وكان ذلك سِراً بينهما.

وفى اليوم المحدَّد لإعلان الإتفاق؛ قدَّم «عمرو» «أبا موسى»عليه، لمكانته وأمانته، فأعلن «أبو موسى» أنَّه يخلع صاحبة «علياً» من عقد البيْعة..!

ولما جاءَ الدَّوْر على «عمرو»، أعْلَنَ أنَّه يُثبِّتُ صاحِبَهُ فى بَيْعِة الخلافة..اعلى عكس مااتفقا عليْه.

وقد فَعَل «عمرو» ذلك بناءً على وَعِد من «معاوية» لهُ، بإعادته إلى الولاية على «مِصر» التى عَزَله عنها «عثمان» - رضي الله عنه -.

وبايع أهل الشام «معاوية» خليفة...

ولقد أدى هذا إلى انشقاق فى جيش «على»، وخرج طائفة منهم عليه، سموا بـ «الخوارج».

موقعة النهروان

استاء فريق من جيش «على» لقبوله التحكيم، ولما آل إليه الأمْر بَعْدَ ذلك، وخرجوا عليه - كما علمت -، فراحوا يعيثون فى الأرض فساداً، فحاول ردهم بالحسنى إلى الصراط المستقيم، وجادة الصواب، فأبوا إلا القتال، فالتقى بهم فى موقعة «النهروان» فاستأصل أكثرهم.

ولقد استمرَّ القتال بَيْنه وبينهم زمناً طويلاً، فكان - رضي الله عنه - يُقاتل على أكثر من جَبْهةٍ.

«على الشهيد»

استقر «على» - كرم الله وجهه - فى «الكوفة» التى جعلها عاصمة الخلافة بدلاً من «المدينة»، وأخذ يحث أهل العراق على استئناف الجهاد، فلم يستجيبوا له.

وأراد «الخوارج» أن يثأروا لقتلاهم فى «النهروان»، فأرسلوا أحدهم ويُدْعى «عبد الرحمن بن مُلْجمٍ» ليقتل «علياً» عند خروجه لصلاة الفجر، يوم الجمعة السابع عشر من شهر رمضان، سنة أربعين للهجرة (٤٠هـ)؛ فطعنه بخَنْجَرٍ مسموم. . . ،

وكذلك بَعثُوا بآخَرَيْن منهم، واحدٍ إلى «الشام» - دمشق -، والثانى إلى «مصرْ»، ليقتُلا كلاً من «معاوية» و«عمرو بن العاص»؛ اعتقاداً منهم بأنَّهما - مَع «على» - أسباب فُرْقةِ المسلمين، وتناحرهم وسفك دمائهم.

لكنّ صاحب «معاوية» أصابَهُ بجرحٍ بسيط، فقُبض عليه وقُتِل، وأيضاً صاحب «عمرو» لم يوفق، إِذْ لم يخرج «عمرو» ليَلْتئذ لصلاة الفجر، وأرسل

---

(١) ويُقال بأنهما أنجبا ذكراً ثالثاً اسمُهُ «مُحسن»، مات صغيراً.

بَدَلاً عنه قائد شرطيه «خارجة بن حُذافة»؛ فقتله الخارجيُّ وهو يظنُّه «عمراً»، وفي ذلك يقول :

– أردتُ «عَمْراً» وأراد الله «خارجه»، ولقد أضحى هذا القولُ أثراً ومثلاً.

فاستشهد – ﷺ – بعـد الحادثة بثلاثة أيام، حيث فاضت روحه الطاهرة يوم الأحد ، وله من العمر ثلاثة وستون عاماً وكـانت مدة خلافته خمس سنين تقريباً

رضى الله عن الخليـفة الشـهيـد ،أميـر المؤمنين ، على بن « أبى طالب » ، وأكرم نزله ومثـواه فى الفردوس الأعلى ، جزاء ما بذل وأعطى وجـاهد فى سبيل الله .

* * *

الزبير بن العوام رضي الله عنه

- أول من سلّ سيفا في سبيل الله ودفاعاً عن رسول الله ﷺ.
- حواري رسول الله ﷺ ، من بين أهله وخاصته وأصحابه.
- الفارس يوم "بدر" ، وقد نزلت الملائكة على سيمائه. الثابت يوم "أُحُد" و "حُنين" ، دفاعا عن رسول الله ﷺ.
- فاتح حصن "بابلين" - مصر القديمة -.
- أحد أصحاب الشورى الستة الذين تُوفى رسول الله ﷺ وهو راض عنهم.
- الشهيد غدراً وغيلة ...! بعد استنكافه عن القتال "يوم الجمل".

بسم الله الرحمن الرحيم

قال الله تعالى:

﴿ فَلَمَّا أَحَسَّ عِيسَىٰ مِنْهُمُ الْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنصَارِي إِلَى اللَّهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ اللَّهِ آمَنَّا بِاللَّهِ وَاشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ۝ رَبَّنَا آمَنَّا بِمَا أَنزَلْتَ وَاتَّبَعْنَا الرَّسُولَ فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ ﴾. (آل عمران ٥٢ - ٥٣).

عزيزى القارىء:

لكىْ نُدْرِكَ مَنْزلة «**الزُّبَيْر بن العوام**» ـ رضي الله عنه ـ، خامس المبشرين بالجنَّة، علينا أن نتفهَّم معنى «**الحوارىّ**»؛ الصفة التى وصفه بها رسول الله ﷺ . فلقد جاء ذكرُها فى القرآن الكريم أربع مرات، على لسانِ الأتْباع المؤمنين الصادقين بنبىٍّ الله «عيسى» ـ عليه السلام ـ . مرتَيْن فى سورة «المائدة» وثالثة فى «آل عمران» ورابعة فى «الصف».

لقد كانت معركة الهداية بين «عيسى» و«بنى إسرائيل» على أشُدِّها، هو يَدْعوهم إلى الحق وإلى صراطٍ مستقيم، وهم ينفرون منه، ويتمسكون بما هم عليه من باطلٍ . . ، بل اشتَطوا فى جموحهم، يكذِّبونَه ويُؤْذونه، ويتآمرون عليه.

فلما أحَسَّ منهم الكفر الصُّراح ، والشِركْ البواح، نادى فقال: من أنصارى إلى الله ؟ فقال نَفَرٌ مِمَّن أخلَصَ لَهُ فى دَعْوَتِه، وآمنوا بما أُرْسل به؛ وهُم الحواريون:

نَحْنُ أنصارُ الله . .!

فالحواريُّ ـ يا عزيزى ـ هو: الصَّفىُّ الناصر، والصِّدِّيق الصادق، والمؤمن المتَّبِع؛ يشرى نفسه ابْتغاء مرضاة الله عزَّ وجل.

وكذلك كان «**الزبير بن العوام**» ـ رضي الله عنه ـ، منذ أن أَسْلَمَ وآمَنَ، إلى أن استُشهد غَدْراً.

وفي مسيـرة حياته ـ ﷺ ـ أصْدَق دليل، وأصفى برهان، فـهيا نستعـرضها معاً، وفقك الله وهداك.

طفولته

... وانهالت «صـفيـة بنت عبـد المطلب» على ولدها «الزبير» ضرباً بعودٍ كانت تحمله بيدها، وهي تستصرخ فيـه همته أن لا يستضعف أمام الخصوم، فكان «الزبيـر» يتقي ضـرباتهـا بيديه دون أن يبكي أو يـئن من الألم، لأنه يعلم إن هو صدرت عنه شكاةٌ فلسوف تزيدها من انفعالها، فتتلاحق ضرباتها.

وعاهدها أن لا يستذلَّهُ إنسان مهما بلغ من القوة والبأس، فكفَّت «صفية» عن الضرب، وهدأت ثورتها.

لقد كان هذا دأبها في تربية «الزبير»، على القسوة والشدة، حتى يَشُبَّ فيهابُهُ الجميع مقدرين شجاعته وصلابته.

* * *

وجاءها يوماً فاستقبلته بالعناق والقـبلات مهنئة إياه، لأنه تشاجر وكسر رِجْلَ خصمه وانتصر عليه.

ورغم صغر سن «الزبير» استطاع أن يفـرض احترامه على الجميع في «مكة»، وأن يقدر القرشيون ـ بلا استثناء ـ مكانته، وأن يحسبوا لغضبه ألف حساب.

وأضف إلى شجـاعة «الزبيـر» مكانته الاجـتمـاعية المرمـوقة، إذ جـمـع المجد العائليَّ من أطرافـه، فأبوه «العوام ابن خويلد» أخو «خديجـة بنت خويلد» زوج النبي ﷺ وسيدة نساء قريش حسباً وخلقاً ومالاً وجمالاً.

وأمه «صفية بنت عبد المطلب» في الذروة من «بني هاشم»[1].

(١) إذن .. هو ابن خال «فاطمة» بنت رسول الله «ﷺ»، وابن عمه «علي» كرّم الله وجهه، وفضلاً عن ذلك كله وفوقه: أخوة الإيمان، ووشيجة الإسلام، ذكرت لك ذلك حتى لا يفتنك الصراع الذي قام مستقبلاً بين «علي» و«الزبير»، فتقع في مصيدة المشككين.

وكان والد «الزبير» - «الْعَوّام» - نجاراً، لكن هذه المهنة لم ترق لـ «الزبير»، إذ ألف الجزارة، وافتتح دكاناً يعمل فيه، أدواته السكاكين وبضاعته اللحوم والدماء.

الإيمان والإسلام

جاءه يوماً صديقه «أبو بكر» - رضي الله عنه.

مع فارق السِّن بَيْنهما، فقد كان «أبو بكر» - رضي الله عنه - يَدْرُج نحو الأربعين، و«الزبير» دُون العشرين، إلا أن العشرة فى توافق الطباع والأمزجة، لا تخضَعُ لتلك الفروق، وصَدَق رسول الله «صلى الله عليه وسلم» إذ يقول: [**الأرواح جنود مجنَّدة ما تعارف منها ائتلف، وما تناكَرَ منها اختلف**].

فحدَّثه بأمر جلل، أَصْغى إليه «الزبير» بكل وعى وانتباه، واستشعر «الزبير» على أثره شيئاً ما يسرى فى كيانه وبأن روحه ونفسه تضجّان فى جسده، وبأن دماءه تكاد تتفجر وتمزق عروقه، لشدة غليانها وفورانها.

ثم اتفق مع محدثه «أبى بكر» أن يلتقيا فى جوف الليل، ليمضيا معاً إلى «محمد بن عبدالله »، ابن خاله، وزوج عمته، ليُسلم بين يديه.

هكذا ، من غيْر تردُّدٍ وبكُلِّ بساطة. !

قضى «الزبير» سحابة نهاره يبيع ويشترى، ولكنه كان يسبح سَبحات بعيدة عن واقع الناس، ويهيم فى أجواء قَصِيَّة عن دنياهم.... ، وما انقضى النهار حتى شعر «الزبير» كأن كابوساً من الهم والغم قد انزاح عن عاتقه، وأسرَعَ إلى الدار يغير هندامه، ويتحلل من لباس العمل .. ، ولكن .. ما بال ضربات قلبه تسرع؟ ونبضاته تشتد؟ إنه يعرف «محمداً» أكثر مما يعرفه الناس، إنه يمت إليه بصلة القرابة... ، وعلى الرغم من ذلك فهو لا شك يتهيب الموقف العظيم!

كان «الزبير» فى ذلك الحين لا يعدو السادسة عشرة من عمره، معتدل القامة أسمر اللون، تبدو على محياه سيماء الشجاعة والمهابة.

خرج من الدار دون أن ينبىء أحداً بمقصده وغايته، ومر على «أبى بكر»، ثم مضيا معاً إلى «محمد» صلى الله عليه وسلم ، حيث لقيهما هاشاً باشاً مرحِّباً.

وأسلم «الزبير»، وشهد بالوحدانية لله تعالى، وبالرسالة لـ «محمد» ﷺ، ولم يكن - ﷺ - مِمَّنْ يكتمون إيمانهم، فهو لا يرهب ولا يخشى.

(الفتنة)

وعلم عمه «نوفل بن خُوَيْلِد» بذلك... وكان مُشْركاً مُشْتَدّاً في شِرْكه ووثنيّتِه.

فقصده إلى البيت، وأخذ يلاينُهُ في الحديث ليثنيه عن عزمه وعن استمراره، فأبى «الزبير»، وصَمَّم على المضى فى الطريق.

فما كان من عمه إلا أن اشتد عليه وقيده ولفَّه فى حصير ودخَّن عليه إمعاناً فى تعذيبه، كما حبس عنه الطعام والشراب، وبالغ فى إيذائه والتضييق عليه، فما أثرت فى «الزبير» كل هذه الأساليب.

ولم يكن «الزبير» ضعيفاً إلى درجة الاستسلام، إلا أنه كان يوقر عمه، فلا تمتد إليه يده بأيِّ أذى، ويصبر على ما ينال على يديه....

ولما لم تفلح تعذيبات العم مع «الزبير»، ويئس من إعادته إلى حظيرة الشرك، أطلقه من محبسه، وتركه وشأنه.

ولم تكن «صفية» أمّ «الزبَيْر» قد آمنت بعد، ولم تكُن لتستطيع الوقوف فى وَجْه عمِّه «نَوْفل»؛ بل كانت فى واقع الأمْر متردِّدةً متحيِّرة، لا تدرى ماذا تَفْعل؛ غير أن إشفاقها على ولدها، وحبّها لابن أخيها «محمد» كانا يدفعانها إلى تثبيت «الزُّبَيْر»، مما شَدَّ أَزْرَهُ، وجعله يصبر على أذى العمّ..!

(إلى الحبشة)

ومضى «الزبير» فى طريق الإيمان....

وهاجر مع المهاجرين إلى الحبشة....

وحدث فى الحبشة حادث كان «الزبير» بَطَلَهُ...، إذ حاول بعض خصوم النجاشيِّ - من أبناء عمومته - الاستيلاء على السلطة، والإطاحة به، فكانت بين

الفريقين خصومة بلغت حد التقاتل.

وكان المسلمون المهاجرون يميلون إلى النجاشي، الذي أكرم وفادتهم، ورعى ضيافتهم وحماهم.

ولكنهم لم تبلغ بهم الحماسة حداً يورطهم في محاربة أعداء النجاشي، وظلوا على ترقبهم.

وفي ليلة حَمِيَ فيها وطيس[1] القتال بين الفريقين، وكان المسلمون يشعرون بالقلق، ويبتهلون إلى الله تعالى أن يكتب النصر لصاحبهم، عندما قال قائلهم: من يتسقط لنا أخبار المعركة؟ فتطوع «الزبير» الفارس المغامر لذلك، فنفخوا له قربة جعلها تحت إبطيه وألقى بنفسه في مياه النيل، إلى العدوة الثانية من اليم. . . .، ثم خرج حتى وصل إلى ميدان المعركة، وأخذ يراقب مسيرها وتطوراتها مختفياً وراء أكمة، مستتراً بالليل البهيم، وسواده الفاحم، وحينما انجلت المعركة. . .، عاد «الزبير» خفيفاً سريعاً مستبشراً. . . . يزف إلى المسلمين المستضعفين نبأ النصر المبين، ففرحوا وجذلوا.

العودة إلى «مكة»

بعد أن سمع المسلمون في الحبشة نبأ إسلام «حمزة بن عبد المطلب» و«عمر بن الخطاب» - ﷺ - عاد بعضهم إلى «مكة». . .

عادوا ليجدوا أنَّ قريشاً ما تزال على جموح عنادها، وصلابة جاهليتها، وقسوة جبروتها وطغيانها.

وعاد «الزبير» إلى دكانه وعمله؛ وإلى صُفُوف المؤمنين السابقين، يجاهر بالدَّعوة في غير خوف ولا وجل، ويَدْعو إلى ذلك، ويتعرَّض للمواقف الصَّعبة والشديدة مع الرَّهط من قريش.

---

(١) حمي وطيس القتال: تعبير نبوي شريف، ممَّن أوتي جوامع الكلم - صلوات الله وسلامه عليه؛ إذ «الوطيس» وعاء نحاسي كبير، يشبه «الفنطاس»، يغلي فيه الماء، إلى درجة الفوران ليستخدم بعد ذلك في الطبخ.

أول من سل سيفاً على المشركين

سمع «الزبير» يوماً نبأً اهتز له كيانه، واشتدت من أجله ثورة غضبه إذ أرجف المرجفون بمقتل رسول الله ﷺ . . ، فترك «الزبير» عمله، وانتضى سيفه، ومضى إلى أعلى «مكة» يشق الناس، وهو يَهدر. . . ، حتى لقى رسول الله ﷺ سليماً معافى، لم يمسسه سوء. . ، واستغرب النبىُّ ﷺ حال «الزبير» فسأله:

ـ ما لك يا «زُبَيْر»؟ فقال: أُخبِرتُ بأنَّك أُخِذْتَ.

فصلَّى عليه رسول الله ﷺ، ودعا له ولسَيْفه؛ أى: طَلَبَ له الرحْمة والرضوان من الله تعالى، والتَّوفيق والسَّداد؛ وتحقَّق فيه ذَلك بفضل من البارىء ـ عزَّ وَجَل ـ ؛

إلى «المدينة»

وتعاقبت الأيام....

و«الزبير» ـ رضي الله عنه ـ يزدادُ إيمانُهُ رسوخاً، وإسلامه عمقاً وتأصلاً؛ وحين أمر النبى ﷺ أصحابه بالهجرة إلى «المدينة»، خرج «الزبير بن العوام» مع المهاجرين، ونزل فى مكان يسمى (العصبة)، عند «قباء»، فى ضاحية «المدينة»؛ وكان أكثر المهاجرين ينزلون هُناك، حَيْث كان تجمُّعهم.

وبدأت مع انتقاله من مكة إلى المدينة مرحلة جديدة فى حياته، إذ حبس نفسه للجهاد فى سبيل الله، وعُدَّ بهذا فارساً من فرسان المسلمين الذين يعتمد رسول الله ﷺ عليهم فى المعارك والحروب، قيادة وجندية.

فلا عجب أن يقتطع له رسول الله ﷺ الأراضى والمساحات، مكافأة له على جهاده وبذْلِه، ولعل النبىَّ ﷺ كان يرضى بذلك نفسية «الزبير» الطَّمُوح.

ومن المشهور الذى اسْتفاض ذكرُه تاريخياً، أنَّ «الزُّبَيْر» ـ رضي الله عنه ـ كان لَهُ فرس، يُحبها حُبًّا شديداً. . . ، وقد يؤثرها على نَفْسِه وخاصتِّه أحْياناً. . ! وقد

لازمَتْــهُ طوال سنوات جهاده وبلائه فى سـبيل الله. . . ، ويبدو أنه قد اسْتَوْلَدَها فَأَنْتَجَتْ!!! فاسْتخدَمَ من بَعْد فصائلَها.

وكان من ضِمْن مـهام زَوْجته «أسماء بنت أبى بكر» ـ ذات النطاقيْن ـ رضي الله عنها ـ بالإضافة إلى خدمة المنزل، أن تْجَمَع نوى التّـمْر، ثم تطْحنَهُ، وتقدمُه علفًا لفرس «الزُبَيْر». . !

وَمِمّا هُوَ مشـهور أَيْضاً، أنَّ المسلمين عندمـا خَرَجُوا ـ يَوْم بَدْر ـ لملاقات عـير «قريش»، الآيبة من الشام، كان مـعهم سبعين بعيراً يعتقُبونهـا، فيتبادَلُونَ الرُكُوب عليها.

وكانَ معهم يومئذ من الخيول فرسان فقط ـ

إِحْدَاهما لـ «الزُبَيْر» والأخرى لـ «المقداد بن عمرو» ـ رضي الله عنه ـ؛

و«الزُبَيْر» ـ يا عزيزى ـ فارس من فرسان الإسلام، من أوَّل يوْمٍ كـان فيه قتال وجهاد، بيْن الحق والباطل.

يوم «بدر»

وإذ شهدت أرض «بدر» لعدد من أجلاء الصحابة بالشـجاعة والفروسية، فقد شهدت لـ«الزبير» بالإقدام وصفاء الإيمان، ذلك الإيمان الذى تجلي فى أمرين اثنين:

أولهما: أنه ـ رضي الله عنه ـ كانت عليه عـمامة صفراء يَعتَـجر بها[1]، وهو على ميمنة جـيش المسلمين، وقد نزلت الملائكة يومئـذ بعمائم صُفْر، فـقال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

ـ لقد نزلت الملائكة على سيماء «الزُبَيْر».

وهذه شهادة من صاحب الرسالة «صلى الله عليه وسلم» لا تعادلها شهادة.

وثانيهـما: أنه قتل فى ذلك اليـوم خلقاً كثـيراً، وفُلَّ سيـفه [2] ، وأصيب بجرحين بالعَين، وكان ممن قتلهم: عمه «نوفل بن خويلد» ذاك الذى ناصبَهُ العداء

(١) يعتجر بها : يلفها على رأسه .

(٢) فُلَّ السَّيف ؛ من تفلَّلت مضارب السيف ؛ أي : تكسرت ؛ ويعني بها هنا أنّه اصابتْ حَدَّهُ بعض الثُّلَم .

من أجل إسلامه، وعذّبه العذابَ الشديد؛ و«عبيدة بن سعيد بن العاص بن أمية»؛ وهما من رؤوس الشرك.

وفى يوم «أحد»

وفى يوم «أحـد» ثبت «الزبيـر» مع الذين ثبـتـوا حول رسـول الله ﷺ، يدافعون عنه، ويحمونه من أذى السيوف والرماح والسهام، كما بايعه على الموت.

ولقد لمح النبىُّ ﷺ فى إبان المعركة رجلاً يُقتّل فى المسلمين، فقال ﷺ:

- قم إليه يا «زبير»...

وهذه استغاثة لها أكثر من معنى، وأعظم من وَصْف، وأجَلُّ من ذكْر.

ولكى يتمكن «الزبيـر» من الرجل انتحى ربوة فركبها، ثم قـفز على الرجل فاعـتنقه، ثم أقبـلا ينحدران حتى وقـعا على الأرض، ووقع «الزبيـر» على صدر الرجل، ولم يفلته حتى قتله.

وفى جميع المشاهد

وشهـد - ﷺ - جميع غـزوات النبى ﷺ دون استثنـاء، لم يتخلف عن واحدة منها، فكان فى كل منها محط آمال المسلمين، لفروسيته وإقدامه.

وتنقل من «قريظة» إلى «خيبر» إلى فتح «مكة»، إلى «حُنين»؛

وفى يوم «حنين» كان «الزبير» واضـعاً رمحه على عاتقه، عـاصباً رأسه بملاءة حمراء، يذرع ميدان المعركة، وتفر من بين يديه الفرسان؛ فقال قائل للمشركين:

- هذا «الزبيـر بن العوام»، وأحلـف باللات ليخـالطنكم، فـاثبتـوا فمـا زال «الزبير» يطاعن المشركين حتى أزاحهم عن مواقعهم.

- هذا هو «الزبير» فى جميع الغزوات، يركض وراء الشهادة، والموت يفر منه، ولم يبق فى جسده موضع إلا وفـيه جرح، هو بمثابة وسام شرف للرجل الذى نذر نفسه للجهاد فى سبيل الله، وجَعْل كلمة الله هى العليا، وكلمةَ الذين كفروا السفلى.

المبشرون بالجنة

لحق رسول الله ﷺ بالرفيق الأعلى، وكان «الزبير» - رضي الله عنه - من ضمن العشرة - الذين توفى رسول الله وهو راضٍ عنهم، وقد بشرهم بالجنة؛ وهو الحديث الذى رواه سيدنا «عبد الرحمن بن عوف» عن رسول الله «ﷺ» .

واستمر «الزبير» على ولائه لكلمة الله، وأضحى من الذين يشكلون هيئة الشورى على الصعيدين: السياسي والعسكرى، لخليفة رسول الله ﷺ «أبى بكر الصديق» .

وأبلى «الزبير» - رضي الله عنه - أحسن البلاء فى حروب الردة، حتى قُضِيَ على الفتنة، وعادت الجزيرة العربية تتفيأ ظلال الإسلام، وتهتدى بنوره.

فى اليرموك

وعندما سير الخليفة «الصديق» - رضي الله عنه - الجيوش لفتح الشام، كان «الزّبير» أحد قادة الأفرع الذين أسهموا فى إحراز النصر يوم «اليرموك»، حيث تولّى إِمْرَةَ أحد الكراديس [1] فى جيش المسلمين، وروى بدمائه أرض المعركة، إذ شق صفوف الأعداء حتى بلغ آخرها، ولكنه أصيب بِجُرْحٍ غائر.

وعاد «الزبير» - رضي الله عنه - مع سيدنا «عمر بن الخطاب» - أمير المؤمنين -، بعد أن تم تسليم بيت المقدس صُلْحاً.

ويبدو أن عودته إلى المدينة مع الخليفة، كانَتْ بَطَلَبٍ من «عُمر» نفسه - رضي الله عنه -؛ أو أن جرحه الذى أصابه يَوْم «اليرْموك» كان بحاجة إلى راحة وعلاج؛ وإلاَّ فإنَّ «الزُّبْير» ما تعوَّد أن يركن إلى الراحة والدَّعة فى البُيُوت؛ فَصَهْوة الفرس عنْده أنعم من الفراش الوثير.

(١) الكردوس : ألف جندي .

فاتح حصن «بابليون»

بعد أن توجه «عمرو بن العاص» إلى مصر لفتحها، ووطىء كثيراً من بلدانها وقراها ودساكرها، رأى أن عدد جنوده غير كاف لمتابعة مسيرة الفتح، إذ عليه أن يترك في كل مكان يفتحه حامية، فاستنجد بالخليفة «عمر بن الخطاب» ـ رضي الله عنه ـ، فأرسل إليه مدداً، أربعة آلاف من الجند، فيهم أجلاء الصحابة وفرسان المسلمين، على رأسهم «الزبير بن العوام» ـ رضي الله عنه ـ وفيهم «المقداد بن عمرو» و«عبادة بن الصامت» و«مسلمة بن مخلد الأنصارى» و«خارجة بن حذافة».

وكان فيما قاله «عُمَر» رضي الله عنه ـ فى رسالته: (لقد أرْسَلْتُ إليك بأربعة آلاف من الجُنْد، وأربعة من فرسان المسلمين، كُلٌ منهم بألْف، فيكون المدَدُ ثمانية آلاف) فهلا لاحظت معى ـ عزيزى القارىء ـ أن «الزبَيْر» ـ رضي الله عنه ـ كان فى فروسيته وبطولته بمثابة ألفِ من الجُند..!!

سار «الزبير» إلى مصر حثيثاً، حتى لقى جيش المسلمين يحاصر حصن «بابليون» [1] ـ مصر القديمة ـ وهو الحصن القوى الذى كانت تحتمى به قوات الروم، لسعته، وعلو أبراجه، والذى استعصى على كثير من الفاتحين والغزاة.

واستشعر جند «عمرو» بالحماسة تدب فى أوصالهم، وبالأمل يحدوهم إلى النصر، بعد أن لبثوا شهوراً يحاصرون الحصن على غير طائل.

ولقد طال الحصار حتى بلغ سبعة أشهر...

ففكر «الزبير» وقدَّر، وأدرك أن الملل سيوهن نفسية الجنود، وأن الأمر يحتاج إلى مغامرة.

وفى اجتماع ضمه مع قادة الجيش، قال «الزبير»:

ـ إنّى أَهَبُ نَفْسى لله، وأرجو أن يفتح الله بذلك على المسلمين.

---

(١) اسم بابليون لـ«مصر القديمة» جاء على لسان «إبراهيم» ـ عليه السلام ـ حين أتى مصر مع زوجته «سارة»؛ قادماً من فلسطين بعد هجرته لـ«بابل» فى العراق الشمالى، و«بابل» تعنى بـ«السريانية» النَهْر، نسبةً إلى دجلة والفرات، فلما رأى ـ عليه السلام ـ نهر النيل، قال: بابلِيُون، أي: نهر أكبر.

ثم عرض خـطته على الجـميع، فكان منهم الموافق ومنهــم المعارض، إلا أن «الزبير» أصر، وخرج من الاجتماع.

ثم نادى فى جنده الذين هم تحت قيادته، طالباً إليهم أن يتأهبوا.

وبعــد أن غمـر الليل بسواده الكـون وعم الأرض، احتـمل هو وبعض الجند سلماً أسندوه إلى سور الحصن من ناحيةٍ تعرف بـ «سوق الحمام»، ثم صعد بتؤدةٍ وعلى مهل. . . .

وكانت كلمة السر بينه وبين جنده تكبيرة يرتفع بها صوته؛ وما أن سمع الجند كلمة: الله أكبر حتى تدافعـوا نحو السلم وتزاحموا، كلٌ يريـد أن يسبق أخاه إلى المعركة. . .

وفوجىء جند الروم بأبطال المسلمين على مشارف الحصن يملأونها، فسقط فى أيديهم، ولم يجـدوا للقـتال أية جـدوى، فـانسحـبـوا، وتم فتح الحـصن الذى استـعصى علـى المسلمين أمداً، وذلك بفـضل من الله تعالى، وبإقـدام رجل من شجعان المسلمين وفرسانهم اسمُه «الزبير بن العوام». . . .

وكان فتح حصن «بابليون» بمستوى معركـة «اليرموك»، ومعركة «القادسية» إذ انهارت مقاومة الروم فى مصر وتلاشت، بل انتهت.

المرشح للخلافة

عاد «الزبير» من مصر إلى المدينة، وأقام فيها.

ولما طُعِنَ أمير المؤمنين «عمر بن الخطاب» ـ رضي الله عنه ـ جعل أمر الخلافة من بعده شورى فى ستة نفرٍ، يختارون من بينهم واحداً، وكان «الزبير» ـ رضي الله عنه ـ واحداً من هؤلاء.

ووقع الإختيار على «عثمان بن عفان»، فبايعه «الزبير»، ولكنه كان يرى فى بعض تصرفات «عـثمان» ما يدعوه إلى النصيـحة، وإبداء الرأى، دون مواربة، أو مجاملة، لأن الحق أحق أن يتبع، وكلمة الحق أولى أن تقال.

ولما بلغت الفتنة درجة الغليان، واجتمع نفر من الناس حول منزل «عثمان» يريدون إخراجه وقتله، أرسل «الزبير» ابنه «عبدالله» يدافع عن «عثمان»، ويحميه ما أمكنه من شر الفتنة، ذلك أن «عثمان» ـ كما سبق وعرفت ـ رَفَضَ أنْ يحمى نَفْسه، وشَدَّد فى ذلك، منتظراً قضاء الله، ونبوءَة رسول الله «ﷺ»؛ أما الذين تواجدوا حوْل بيت «عثمان» للدِّفاع، أمثال «عبدالله بن الزبير» وغيره، فقد كانوا متطوِّعين، لم يعلم بهم؛ ولكن قضاء الله تعالى وقع، واستشهد «عثمان» وهو يتلو القرآن.

بين «الزبير» و«على»

ـ رضي الله عنهما ـ

ولما بايع الناس «علياً» ـ رضي الله عنه ـ بالخلافة، بعد استشهاد «عثمان» امتنع «الزبير» أول الأمر، معتقداً أحقيته لنفسه، ولكنه وجد ذاته بعد ذلك مسوقاً إلى البيعة مع إجماع الناس، فبايع.

وانتظر «الزبير» من «على» أن يقتصَّ فَوْرًا من قتلة «عثمان»، وأن يوليه ولاية، وقد طالبَهُ بذلك، وأعلَنَهُ على الملأ، أكثر من مرة، ولا يفوتك ـ عزيزى القارئ ـ ما بَيْن الرَّجُلَيْن من نسب وَصِلَةُ رَحِمٍ؛ فقد كان «الزبير» ابن عمة «علي»؛ و«علي» ـ بالتالى ابن خال «الزبير». فلم يفعل «على» من ذلك شيئاً، وزاده الإهمال والتنكر غضباً، فكتمها فى نفسه إلى أن تحين الفرصة المواتية لنقض البيعة.

وجاء «الزبير» يوماً إلى «علي» مستأذناً فى الخروج إلى «مكة» لأداء العمرة، معه «طلحة بن عبيدالله»، رفيقه فى آرائه، ومؤيده فى اتجاهاته، فأذن «عليٌّ» لهما.

إلى «البصرة» ومعركة «الجمل»

مضى «الزبير» و«طلحة» إلى «مكة» حيث التقيا بأم المؤمنين «عائشة» ـ رضي الله عنها ـ.

لقد كانت نفس «الزبير» تواقة إلى الإمارة والسيادة، وليس ذلك مما يعاب،

إنما العيب كل العيب أن تكون السيادة وسيلة لإذلال رقاب الناس، وحاشا لـ «الزبير» أن يكون من النوع الذى يظلم أو يستبد.

ولقد كان ولده «عبدالله» - ﷺ - يشجعه على الخروج، ويغريه، ويُذْكى فى نفسه عوامل الثورة على «عليّ»، فتجد كلمات «عبد الله» أذنا صاغية، ونفساً متقبلة راضية.

وصل «الزبير» و«طلحة» إلى «مكة»، فاجتمعا بـ «عائشة»، وحرضاها على الخروج إلى «البصرة»، وشق عصا الطاعة على «على»، ونَقْض بيعته، وما زالا بها حتى استجابت لهما، وخرجت معهما.

وعلم «على» - كرم الله وجهه - بأمرهم، فخرج إليهم فى جنده من المدينة، وحاول بكل وسيلة أن يردهم، فما أفلح، ولم يستجيبوا له.

اتصل «على» بـ «الزبير»، وجرى بينهما حديث طويل، استعمل فيه «على» كل وسيلة، ثم ذكّر «الزبير» بحادثة جرت لهما مع رسول الله ﷺ، إذ قال له:

- تَذْكُرُ يوم مررت مع رسول الله ﷺ وهو متكىء على يدك، فسلم علىّ رسول الله ﷺ وضحك إلى، ثم التفت إليك وقال لك: يا «زبير» تقاتل «علياً» وأنت له ظالم..!

قال «الزبير» - الصادق: - اللَّهُمَّ نعم.

قال «على»: فعلام تقاتلُنى؟

قال «الزبيرُ»: نَسيتُها، و الله لو ذَكَرْتُها ما خرجت إليك ولا قاتلتك؛ وانفضّ الجمع.

وعاد «الزبير» أدراجه من هذا اللقاء، وهو عازم على العودة إلى المدينة، فتصدى له ولده «عبدالله» وحاول منعه.

لكن «الزبير» - ﷺ - كان قد اتخذ قراره...، فانسحب هادئا؛ تاركاً الميدان مؤثراً رضى الله ورسوله على كلّ مَطْلبٍ دنيوى، أوْ غَرَضٍ..!

الشهيد

وبينا هو فى طريقه، باتجاه المدينة، تعقبه «عمرو بن جرموز» التميمى، وكان من صعاليك العرب ـ، فلما وقف «الزبير» ـ رضي الله عنه ـ ليُصلّي، طعنه «ابن جرموز» من خلفه، وأخذ فرسه وخاتمه، ودفنه حيث قتله، فى «وادى السباع»، على بعد عدة أميال من «البصرة»، وكان قد بلغ أربعاً وستين سنة.

وحين بلغ الخبر «على بن أبى طالب» قال:

ـ بَشّرُوا قاتل «الزُّبَيْرِ» بالنار.

لماذا؟ لأنَّ «علياً» ـ رضي الله عنه ـ يَعْرف ما لـ «الزبير» من فَضْلٍ وسَبْق، وأنَّه من أصحاب النَعيم، من المبشرين بالجنَّة، فلابد وأنْ يكون قاتله ـ مهما كانت الأسباب ـ من أهل النار.

وحين عُرِض عليه سيف «الزبير» قال:

ـ إن هذا سَيفٌ طالما فَرَج الكَرْبَ عَنْ رسول الله ﷺ

وقالت زوجة «الزُبَيْر» «عاتكة» ترثيه:

إن «الزبير» لذو بلاءٍ صادقٍ
سمح سَجِيَّته، كَريم المشْهَدِ

كَمْ غَمْرةٍ قَدْ خاضها لَمْ يثْنِه
عَنْها طِرادك يا ابْن فقْعٍ [1] القرددِ

فاذهب فما ظَفِرت يداكَ بمثله
فيما مَضى فيمَنْ يَرُوحُ ويَغْتدي

رضى الله عن «الزبير بن العوام» فى السابقين الأولين، وجزاه فى الجنة دَرَجة عِلّيين، وألحقنا به فى الصالحين.

---

(١) فقع القردد: حبُّ الكَمأة، وهي بقول «البطاطس» تنشق عنها الأرض إثر الرعد، تكثر في الأراضي الصحراوية، عند الكثبان والتلال.

أبو عبيدة عامر بن الجراح رضي الله عنه

- لما قدم أهل اليمن على رسول الله ﷺ ، قالوا: "ابعث معنا رجلاً يُعلمنا السنة والإسلام، فأخذ بيدي "أبي عبيدة"، فقال: (هذا أمينُ هذه الأمة).
- أسلم "أبو عبيدة" و "عثمان بن مظعون" و "عبيدة بن الحارث بن عبدالمطلب" و "عبدالرحمن بن عوف" و "أبو سلمة بن عبدالأسد" في ساعة واحدة، قبل دخول النبي ﷺ دار الأرقم، فهو من السابقين.
- قاد أكثر من سرية في عهد النبي ﷺ ولم يُهزم أبداً، وكان القائد العام في فتح الشام، فهو من القادة العظام في التاريخ.
- كانت خاتمة حياته الشهادة.
- وهو من الذين رضى الله عنهم ورضوا عنه.

بسم الله الرحمن الرحيم

قال تعالى :

﴿لا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُولَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الإِيمَانَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ أُولَئِكَ حِزْبُ اللَّهِ أَلا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [المجادلة: ٢٢]. ـ صدق الله العظيم ـ

قيل فى سبب نزول هـذه الآية الشريفة [١] ـ وهى أواخر سورة المجادلة ـ أنَّ «أبا عبيدة» ـ عامر بن عبدالله بن الجراح ـ رضي الله عنه؛ التقى يَوْم «بدر»، أثْناء احتدام مَعْمَعان القتال بأبيه.

«أبو عبيدة» فى صفوف المؤمنين، ووالده فى صفُوف المشركين. . !

هذا يقاتِل فى سبيل الله وذاك يُقاتل فى سـبيل الطاغوت. ، فكان «أبو عبيدة» ـ رضي الله عنه ـ يهرب من وَجْهِ ابيه ويَبْتعـد، لا خَوْفاً من سَطوة الأب وبأسه، ولا خَجَلاً أوْ حياءً منه. . ، ولكن ضَنّاً منهُ بأن يلطخ سيفه بدماء الأب، رقةً وعَطْفاً، وحفاظاً على صلة الرَّحم !.

لكن الأب كـان يُتابعُـه فى كلّ مكان ويتَـعـرَّض له، ويحاولُ قَـتْله. . ! فى عَنْجهيَّة جاهليَّة، وشِرْك أعْمى، قد أضَلَّهُ الشَّيْطان عن كُلّ خير.

وكان الأبُ ـ الجاهلى ـ يَظن انَّ وَلَده «أبا عُبَيْدة» إنما يفرّ مِنْه، خوفاً وجَزَعاً؛ فيزداد إصراراً.

وأخيـراً لم يجد «أبو عُـبَيْـدة» مَفَـراً. . ، وقد انْفَـرَد كُلٌّ منهمـا بالآخر. . ، فاسْتعان بالله تعـالى، وأنزل بأبيه ضَرَباتٍ متلاحقة، فسـقط أرْضاً والدماءُ الغزيرة

(١) أخرج ذلك الطبراني بسند جيد عن « عبد الله بن شوذب » .

تسيل من أنحاء جَسَدِه، ولفظ أنفاسَهُ.

بَعْدها عاش «أبو عُبَيْدة» أياماً فى قلقٍ وَهمّ ونَصَب..

وَحَدَّث بما وَقَعَ له رَسُول الله ﷺ ؛ وأبْدى له ما فى نَفْسه من وساوس ومخاوف..!

فأنزل الله تعالى هذه الآية الكريمة، كلاماً فَصْلاً لا جدال فيه ولا نزاع، مبيناً أنَّ الولاية لا تكونُ إلَّا لله وَحْدَه، فلا مُوالاة على الإطلاق بَيْن الإيمان والكُفر، حتى ولَوْ كان الكافر من أقرب المقرَّبين إلى المؤمن.. والده أو أخاهُ أو ابْنه، أو عشيرته..

هذا جزاؤه الجنة خالداً فيها، - رضي الله عنه -، ورضى هَو عن ربِّه - عَزَّ وَجَلَّ - وذاك جزاؤه جهنّم وبئس المصير.

هذا من حِزب الله - حقّاً وحقيقة -؛ وذاك من حِزب الشيطان..!

وحِزْبُ الله هم المفلحون، وحزب الشيطان هم الخاسرون. !

وكفى بالله حسيباً

ولقد كان - وسيظل «أبو عبيدة» - رضي الله عنه - رأساً لحِزْب الله ؛ وأميناً لأمَّة الحقّ والهُدى..، وصَدَقَ الله ورسوله

ليلة «أبي عُبَيْدة»

الهدوء يلف دروب «مكة»، والسكينة تخيِّمُ عليها، إنه الهزيع [1] الأخير من الليل. لكن هناك وقع أقدام تخبُّ [2] فوق التراب المبلل بالندى، وكأنها خطوات حارس ينتعل مداساً ضخماً يجوب الأحياء والمنازل، بعيون مفتحة، وآذان مرهفة، قامة مديدة، ترمى وراءها ظلاً طويلاً من نور القمر الفضى.

لو رأى صاحبها أى إنسان لعرفه، أنه: «عامر بن عبدالله بن الجراح» - أبو عبيدة -.

(١) الهزيع: القسم، أو الجزء

(٢) خب الفرس أو الجمل في عدوه نقل ايامنه جميعاً، وأياسره جميعاً.

ولكن ما باله؟

إنه فى طريقه إلى داره، وقد خرج لتوه من منزل صديقه «أبى بكر الصديق»، وما تعوَّد أبداً أن يطيل السمر والسهر، كان يَغْشى الحانات، حتى إذا طرب وانتشى، أتى مبكراً مأواه، ولا يرى إلا هاشاً باشاً.

وها هو الليلة قد امتد به الوقت، ظاهرة على محياه سيماء الجد، مقطبا ما بين حاجبيه ومعبساً، ولم يذق الليلة طعم الخمر أبداً، لذا تراه ثابت الخُطى، وحيداً فى الطريق إلى الدار.

بين «أبى عُبَيْدة» و«أبى بكر»

لقد سمع أثناء النهار همساً يدور بين عدد من سادة «قريش» فَحْواه أن «محمد بن عبدالله» يدَّعى دعوى غريبة، ويزعم أنه نبيٌ يوحى إليه، وأن «عتيق بن أبى قحافة» ـ أبا بكر الصديق ـ قد صدقه فى دعواه، وآمن به مع نفر قليل من أراذل [1] القوم.

سمع «أبو عبيدة» هذا الهمس، فتأثر به كثيراً، ولم يدخل فيه طرفاً، ثم مضى فى سبيله قاصداً دار «أبى بكر» فلقيه وحدثه بما سمع مستوضحاً، فوعده «أبو بكر» أن يلقاه فى داره حين يجن [2] الليل.

(اللقاء الحاسم)

قضى «أبو عبيدة» السويعات الفاصلة بين التقائه بـ« أبى بكر» ـ صديقه ـ وبين اللقاء المنتظر، مختلياً بنفسه، منقطعاً عن الناس، حتى عن أهله، منزوياً فى الدار، حتى لحظ منه أهله ذلك، فالحّ عليه والده «عبدالله» فى السؤال مستفهماً عن السبب، فلم يخبره «أبو عبيدة».

وكان كلما اقترب موعد اللقاء ازداد تلهفه وشوقه، وحين هبط الظلام، وانتشر سواد الليل، بادر «أبو عبيدة» إلى منزل «أبى بكر»، حيث قرع الباب قرعاً خفيفاً، ففتح له «أبو بكر» أحد المصراعين بوجهٍ متهلل يفيض بشراً وسروراً.

---

(١) أراذل القوم : اقلهم مكانة .
(٢) جن الليل : اظلم .

وكانت جلسة طويلة امتدت زمناً، وتشعب الحديث خلالها، وما درى الاثنان إلا أن الفجر يوشك أن يبزغ، لطلاوة الحديث.

الموْعد

ثم استأذن «أبو عبيدة» منصرفاً، على أن يلتقيا فى الليلة القابلة عند «محمد بن عبدالله» ﷺ ، حيث يشهد «أبو عبيدة» له بالنبوة والرسالة.

لذا. . ، كان فى طريقه إلى الدار ساهماً مفكراً، مشغول الذهن والخاطر، إنها ساعات مخاض [1] لمؤمن جديد، يوشك أن يولد، متحرراً من ربقة الجاهلية، متخلصاً من أوضار [2] مجتمع فاسد.

دخل الدار ومضى إلى فراشه حيث استلقى طلباً للراحة والنوم، بعد طول عناء وسهر.

لكن الكرى [3] لم يجد سبيله إلى عينى «أبى عبيدة»، فقد أرقه ما به من التفكير، فظل على حاله واجماً ساهماً، ولم يحركه من رقدته سوى شعاع الشمس المتسلل من النافذة، حاراً لاهباً.

انتصب على قدميه وتمطى، فشعر بِكَلل فى أطرافه، وتراخٍ فى جسمه، لقد أمضى ليلة مرهقة لم يذق فيها طعم النوم.

وظل طول يومه سارح الفكر، يرتقب قدوم الليل، إنه يعرف «محمداً» حق المعرفة، ويلقاه دوماً، لكنه اليوم فى اضطراب، لأن اللقاء المنتظر يوحى بالرهبة، إنه لقاء نبيٍّ ورسالة، لقاء دعوةٍ وداعية، لقاء كله تحول وتغير وتجديد.

مرت ساعاتِ النهار بطيئة، حاول خلالها «أبو عبيدة» أن يشغل نفسه بالعمل، يصرف به الهواجس، ويقطع الوقت.

ولما أقبل الليل، مضى مسرعاً إلى دار «أبى بكر» ثم خرجا معاً إلى دار «محمد» ﷺ .

لقاء الإيمان

(١) المخاض : الطَّلْق . (٢) أوضار : أوساخ . (٣) الكرى : النعاس .

إن «أبا عبيدة» يعرف وجه «محمد» معرفة أكيدة لكنه اليوم غيره بالأمس، إنه يتلألأ نوراً، ويفيض إشراقاً، فلم يتمالك «أبو عبيدة» إزاءه إلا أن قال:

ـ أشهد أن لا إله إلا الله، وأنك ـ يا محمد ـ رسول الله.

ثم عانق النبيَّ ﷺ عناقاً طويلاً، وجلسوا بعده يتحدثون.

أخذ النبى ﷺ يذكره ويبين له. . ، و«أبو عبيدة» مصغٍ، ونظره لا يريم عن وجه رسول الله ﷺ إنه الرجاء والأمل، إنه النهار المشرق بعد ليلٍ دامس، والشاطىء الأمين بعد بحر فجٍ متلاطم.

ومضى الوقت، وكم كان يتمنى «أبو عبيدة» أن لا يمضى، وتوقف الرسول ﷺ عن الحديث، وكم كان يتمنى «أبو عبيدة» أن لا يتوقف، وانفض المجتمعون وآب [1] كلٌ إلى مقامه وداره.

أيام الفتنة والابتلاء

وعاش «أبو عبيدة» أياماً من الكفاح المضنى مع أهله وعشيرته لما علموا بإسلامه، إذ قاوموه مقاومة عنيفة فلم يتراجع، وقاطعوه فلم يأبه، واشتدوا عليه فلم يضعف.

ولما هاجر بعض المسلمين الهجرة الأولى إلى «الحبشة»، أقام «أبوعبيدة» فى «مكة» لا تضره فتنة قريش.

ولما كانت الهجرة الثانية استأذن النبيَّ ﷺ، فأذِنَ له فارتحل، ولكن الحنين إلى الوطن، والشوق إلى رسول الله، والحياة فى ميدان المعركة أسرعت جميعاً بعودته.

المؤمن الثابت

ولما تراجع بعض ضعاف الإيمان عن الإسلام وشكُّوا، لَّما حدثهم النبى ﷺ، حديث الإسراء والمعراج، ثبت «أبو عبيدة»، وما اضطرب، لائذاً بإيمانه الراسخ، مستمسكاً بعقيدته الثابتة.

---

(١) آب: عاد ورجع ..

وكذلك - من قبل - عندما كانت القطيعة بين قريش و«بنى هاشم»، واتخذ المسلمون من شعْبِ «أبى طالب» مقاماً ومنزلاً لهم، كان «أبو عبيدة» واحداً من الصابرين فى البأساء والضراء.

لقد مرت بالمسلمين سنوات عجاف، وأعوام قاسية شداد، فما لان وما تزحزح بل ظل الجندى (الأمين) المجاهد، الصابر المكافح، الواثق بالله تعالى.

المهاجر إلى «يثرب»

ولما عاد «مصعب بن عمير» - رضي الله عنه - من المدينة، ليبشر رسول الله ﷺ بأن الغرسة الطيبة فى «طَيْبَة»[1] قد بدأت تؤتى ثمارها، وأن الإيمان بالله وبرسوله قد أخذ سبيله إلى قلوب أبناء «يثرب» جميعهم، أذن رسول الله ﷺ للمسلمين فى مكة بالهجرة إلى المدينة، فراراً بدينهم، فسيلقون هناك الأمن والطمأنينة، ويكونون بمنأى عن جبروت قريش وبطشها.

ووجدها «أبو عبيدة» فرصة للحرية الشخصية، فاستأذن النبى ﷺ بالهجرة فأذن له.

ولما آخى النبى ﷺ بين المسلمين فى المدينة، توثيقاً لروابط الأخوة بينهم، وتمتينا لعرى الإيمان فى نفوسهم، آخى بين «أبى عبيدة» و«سعد بن معاذ» - رضي الله عنهما -

ولقد كان «سعد بن معاذ» - رضي الله عنه - رأساً فى قَوْمه، زعيما لعشيرته، سيّداً مُطاعاً لا تُرَد له كلمة.

فاختيارُ النبى ﷺ لـ«أبى عُبَيْدَة» فى أُخُوته لـ «سَعْد» تُوحى بالمكانة التى كانت لـ«أبى عُبَيْدَة» عند رسول الله ﷺ ومِنْ المسلمين عامةً، مهاجرين وأنصار . . !

إنما النسب فى الله تعالى

وحين التحم المسلمون بالمشركين يوم «بدر»، كان «أبو عبيدة» يصول ويجول، والأعداء يفرون من بين يديه.

(١) طَيْبَة : من أسماء المدينة .

وحدث أثناء المعمعان أن التقى «أبو عبيدة» بأبيه فأشاح [1] عنه بوجهه، وشق طريقاً بعيداً عنه، لكن والده لم يلبث أن تعرض له مرة ثانية وثالثة.. وكأنه يتحداه، و«أبوعبيدة» - رضي الله عنه - في كل هذا يعرض عنه.

وأخيراً.. حدث الأمر الجلل، وسقط الأب مضرجاً بدمائه بسيف ابنه، إذ لم ير «أبو عبيدة» مندوحة عن قتله، وبهذه المناسبة أنزل الله تعالى قوله :

﴿ لا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُولَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الإِيمَانَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ أُولَئِكَ حِزْبُ اللَّهِ أَلا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾[المجادلة: ٢٢].

لقد كانت شهادة من البارىء - عز وجل - فى حق «أبى عبيدة»، فقرت بها عيناه، واطمأن بها فؤاده، وارتاحت إليها نفسه.

الأهتم

ولما أرادت قريش أن تثأر لهزيمتها فى «بدر»، وزحفت إلى المدينة بجيش لجب؛ وتمكنت يوم «أحد» من قلب موازين المعركة وهُزِم المسلمون بعد النصر؛ ولما فر الكثيرون من المسلمين من حول رسول الله ﷺ ثبت «أبو عبيدة» - رضي الله عنه - مع نفر قلائل، يدافعون عنه، ويحمونه، ويذودون عنه، بأبدانهم وأرواحهم.

ولقد تقدم «أبو عبيدة» - رضي الله عنه - من رسول الله ﷺ، حين كسرت رباعيَّته الشريفة، ودخلت حلقتان من المغفر[2] فى خده، فانتزعهما بأسنانه، فانكسرت ثناياه، وأصبح منذ ذلك اليوم يعرف بـ«الأهتم» [3] .

فكانت شهادة له، ووساماً يشرف وجهه وفمه.

---

(١) اشاح : حول نظره .
(٢) المغفر : درع واق للوجه
(٣) ويقال الأثرم : وهو الذي يفظ السين ثاء .

أمين الأمـة

ولقـد شهـد «أبو عـبيـدة» رضي الله عنه ـ كل الغزوات مـع رسول الله ﷺ ، لم يتخلف عن واحـدة، ولقد وكل إليه رسول الله ﷺ قيـادة بعض السرايا، فكان بحقٍ وصدقٍ على أعْلى مستوى فى القيادة، شجاعة ودراية، وحسن تدبير.

كمـا كان فى كل الميـادين فارساً لا يشـق له غبار، يهـابه الأعداء ويخـشون بأسه.

ولما قبض رسول الله ﷺ وقف «أبو عـبيدة» رضي الله عنه ـ من أمر الخلافة مـوقفاً شريفاً، يُذْكَرُ فيُشْكَر، إذ لم يكن يرغب فى منصب بقدر ما كان يرغب فى وحدة كلمة المسلمين وصفِّهم، يخشى تصدعهم وتفككهم، فكان أول من بايع «أبا بكر» على الخلافة، فى سقيفة «بنى ساعدة»، بَعْد «عمر بن الخطاب» رضي الله عنه ـ

ومما يُذْكر فى هذا المجـال؛ أنَّ بَعْضَـهُم سمَّى «أبا عُبَيْدَة» قَبل «أبى بكر» ـ خليفةً.

فما كان من «أبى عُبَيْـدة» إلاَّ أنْ بادَرَ ـ بَعْد «عمر» ـ لمبايعة «أبى بكر»، وهو الذى يعـرف مـا لـ «أبى بكر» مـن سَبْق، ومكانة عـند رسـول الله ﷺ ، والرجالُ تعْرِف أقدار الرجال!!.

ولا يفوتنا أن نذكر ـ وهنا مجال الذكر ـ أن رسول الله ﷺ هو الذى لقبه بـ «أمين الأمة».

إذ حـدث أن وفداً من «الـيمن» وآخـر من «نجـران» جاءا إلـى المدينة يعلنان إسلامـهمـا، ويطلبان إلى النبى ﷺ أن يرسـل معهم من يـفقهـهم فى الدين، ويقوم على الأمور فيهم، فوضع ﷺ يده الشـريفة على كتف «أبى عبيدة» وهو يقول:

ـ إننى سأبعث معكم بأمينٍ صادق، إنه «أبو عبيدة» أمين الأمة.

لهذا ترى ـ عزيزى القارئ ـ أنه ليس فى موقف «أبى عبيدة» يوم السقيفة إلا التوكيد على الأمانة على الإسلام.

لقد عرف القاصى والدانى أن «أبا بكر» - رضي الله عنه - أراد يوم السقيفة أن يبايع «أبا عبيدة»، لكنه - رضي الله عنه - رفض، لأنه يدرك ما لـ«أبى بكر» من سبق ومقام كريم بين المسلمين، وأن الإجماع عليه أمر محتوم، لذا بادره ماداً يده، ومبايعاً.

القائد الفاتح فى الشام

كان - رضي الله عنه - فقيهاً فى الدين بشهادة رسول الله ﷺ، أريباً فى السياسة، حكيماً فى المواقف الدقيقة الحرجة، فارساً فى ميدان المعامع والحروب، جامعاً للمجد الأثيل من أطرافه.

وتنفيذاً لأمر الله تعالى فى نشر الدين ورغبة رسول الله ﷺ ونبوءته فى فتح الشام، عقد الخليفة «الصديق» - رضي الله عنه - الألوية، لأربعة جيوش، وسيرها إلى الشام، على بركة الله.

وكان «أبو عبيدة» - رضي الله عنه - قائداً لأحد تلك الجيوش، وقائداً عاماً لها عند اجتماعها.

وهنا تبدأ صفحات مجيدة تُضاف إلى سفر حياة هذا الصحابىِّ الجليل، والمجاهد العظيم وأولاها: كتمان يوم «اليرموك» نبأ وفاة «أبى بكر» - الخليفة الصديق - رضي الله عنه - وتولّى «عمر بن الخطاب» الخلافة، ثم عَزْل «خالد بن الوليد» وتوليته هو مكانه، متحملاً المسؤولية، مقدرٌ ما سيكون لهذا الخبر - بجملته - من تأثيرٍ على معنويات الجند.

فنجحت خطته، وآتت ثمارها نصراً مؤزراً للمسلمين وهزيمة ساحقة للروم، إذ لم تقم لهم قائمة بعدها، اللهم إلا شراذم قليلة راحت تتجمع فى المدن الشمالية من سورية، تدافع عنها دفاع المستميت، الضعيف المتخاذل.

لقد كانت «اليرموك» بحقٍ مفتاح الشام كلها، الذى أمسك به المسلمون.

قيادة «خالد بن الوليد»

ولما كانت قيادة «خالد بن الوليد» - رضي الله عنه - العسكرية عنصراً بارزاً فى كسب المعركة، فإن حكمة «أبى عبيدة» وبعد نظره - رضي الله عنه - كانا عنصرين فعالين.

ولما أُبلِغَ «خالدٌ» - رضي الله عنه - بقرار العزل وتولية «أبى عبيدة» مكانه لم يتمرد ولم يغضب، بل تقبَّله وهو يردد: **أنا لا أقاتل من أجل «عمر» إنما أقاتل من أجل رب «عمر».**

وفى نفس الوقت كان «خالدٌ» - رضي الله عنه - يعرف ويُقدِّر مكانة «أبى عبيدة» - فى كُل الشؤون، فَلَم ينزعج، ولم يتردَّد، ولم تحجزه أنانية النفس البشرية عن متابعة الجهاد تحت قيادة «أبى عُبَيْدَة» قائداً فرعياً، فى مختلف المعارك، وفى أكثر الميادين من البلاد الشامية..

فتح دمشق

تجمعت بعض فلول الروم فى مدينة «دمشق»، وتحصنت بها، فى محاولة يائسة لِصدٍّ تيار المسلمين الزاحف المتدفق، ولما بلغها المسلمون ضربوا حولها الحصار، وأقاموا على ذلك فترة ليست قصيرة.

ونُمى إلى «خالد» - الذى كان على رأس فرقة من الجيش الإسلامى، تعسكر عند باب «الجابية» - أن الجند الرومان سيحتفلون الليلة بمولود لقائدهم فاغتنمها «خالد» فرصة، وأَوْعَزَ إلى بعض جنده أن يرتقوا الأسوار، بواسطة سلالم اتخذوها من الحبال، ثم يفتحوا الباب ويكبروا، إشارة ببدء الهجوم.

ولما علا الصوت من فوق السور بنداء: الله أكبر، اندفع «خالد» بجنده نحو الباب المفتوح، فوقعت البلبلة فى صفوف الروم، واختلط حابلهم بنابلهم، وراح بعضهم يضرب رقاب بعض دون تمييز.

وأسرع آخرون منهم إلى «أبى عبيدة» بِرُسُلِهم يوقعون معه معاهدة لِلصُّلْح، ويطلبون إليه أن يأمر «خالداً» بالتوقف عن القتال.

وهنا تبرز الصفحة الثانية المشرقة فى حياة «أبى عبيدة» - رضي الله عنه - إذ يأمر «خالداً» بالتوقف عن القتال وإراقة الدماء، لأنه القائد العام، ثم يوافق على معاهدة الصلح، نزولاً عند قول الله تعالى: ﴿ **وَإِن جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ** ﴾.

إلى «اللاذقية»

وتوجه «أبو عبيدة» - رضي الله عنه - بعد ذلك بجنده إلى ثغر من ثغور الشام، يعتبر شوكة تؤرق مضجع المسلمين، إن هو استمر فى أيدى الروم، تلك هى مدينة «اللاذقية».

كانت «اللاذقية» ذات حصون منيعة، يأتيها رزقها عن طريق المراكب بحراً إذا ما أوصدت [1] أبوابها البرية، وهى على استعداد لتحمل الحصار شهوراً، بل دهوراً.

فما أن أطل الجيش الإسلامى حتى أغلق حرس المدينة أبوابها وراء الأسوار العاتية، وراحوا يراقبون تحركات الجيش الإسلامى، وطول انتظاره، لعله ينفذ صبره فيرحل.

وبعد أن اختلى يوماً فى خيمته بنفسه، يفكر ويقدر، لمعت فى ذهنه خاطرة استدعى على أثرها أركان حربه من القادة الموثوقين، وأطلعهم على تفاصيل خطته؛ فوافقوا جميعاً.

العبقرية العسكرية

وأثناء الليل، وعند حلول الظلام الدامس، أخذ الجنود يحفرون حفراً كبيرة عميقة تحمى الفارس وفرسه، فلا يظهر له أثر، واختبأوا فيها، بعد أن قوّضوا خيامهم، وأزالوا كل أثر لهم عن وجه الأرض.

ولما أشرقت الشمس، فى اليوم التالى، لم ير جنود الرومان أثراً للمسلمين، وظنوا أنهم قد رحلوا تعالت أصواتهم بالفرح والسرور، وفتحوا الأبواب، وانطلق المزارعون إلى حقولهم وزروعهم..

وما هى إلا فترة حتى هب رهبان الليل وفرسان النهار من مخابئهم وانطلقوا نحو الأسوار المشرعة، فسقط فى أيدى الرومان، ولم يستطيعوا حَولاً ولا طولاً إزاء هذا الإعصار الزاحف، وأعلنوا استسلامهم.

---

(١) أوصدت : أغلقت.

ولعل هذه الواقعة وحدها كافية فى الدلالة على ما كان يتمتّع به «أبو عبيدة» ـ رضي الله عنه ـ من كفاءة قتالية، وقياديّة.

وإلا فإنّه ليس من السّـهْل أبداً أن يُسَيْطر المسلمون على الديار الشـامية ـ مع إتساع رقعتها ـ فى زمن قياسيّ وجيز، ويجعَلُوا منَ الفرس والرومان، وهما أعظم دولتين عرفهما ذلك العصر، أثراً بعد عَيْن.

وهكذا، ظل «أبو عبيدة» ـ رضي الله عنه ـ ينتقل فى ديار الشام من معركة إلى معركة، ومن نصر إلى نصر، حتى طهرت أرض الشـام كلها من التسلط الرومانى، فكانت هذه الصفحة هى الثالثة المشرقة المضيئة فى سِفْرِ حياة «أبى عبيدة».

شهيد طاعون «عمواس»

وفى أرض فلسطين، فى مكان يدعى «عمواس» [1] تفشى الطاعون في جيش «أبي عبيدة» وأصابه هو ما أصاب الجند وبلغ الخليفة الفاروق «عمر بن الخطاب» ـ رضي الله عنه ـ نبأ ذلك، فراعه وآلمه، وهم بزيارة «أبى عبيدة» وجيشه مواسياً.

وعلم «أبو عبيدة» بذلك، فاستعد له.

إلا أن «عمر» أخبر بحديث رسول الله ﷺ :

[إذا وقع الطاعون بأرض، فـلا تخرجوا منهـا إذا كنتم فيـها، ولا تدخلوها إذا كُنْتُم خارجها] [2].

فتوقف عن عزمه ونيته، فأرسل «أبو عبيدة» إليه يعاتبه ويقول:

ـ أتفر من قضاء الله . . !

فأجاب «عمر»:

ـ لو غيرك قالها يا «أبا عبيدة»، بل إننا نفر من قضاء الله إلى قضائه.

---

(١) عَمْواس : إحدى المدنُ الشامية الصغيرة ؛ ولم تدخُل التاريخ إلا من خلال إقامة « أبو عبيدة » بجيش المسلمين هناك . .

(٢) رواه مسلم .

ومضت أيام..

فاشتدت وطأة المرض على «أبي عبيدة» رضي الله عنه - وقد تساقط من حوله كثير من جنده صرعى وشهداء.

ثم وافته المنية، وأسلم الروح، آمناً مطمئناً، واثقاً من قضاء الله وقدره.

وكان ذلك سنة ثماني عشرة من الهجرة، ويُقال بأنه - رضي الله عنه - دُفِن فى أرض «بيسان».

رضي الله عن أمين الأمة وأرضاه، وأكرم منزله، وبوّأه من الجنة أعلى الدرجات

وحشرنا معه تحت لواء المصطفى ﷺ..

إنه أكرم مسؤول وخير مأمول.

(شذرات)

أ - سُئلت السيدة «عائشة» رضي الله عنها - من كان أحبّ إلى رسول الله ﷺ؟.

فقالت: «أبو بكر»، ثم «عمر»، ثم «أبو عبيدة بن الجرّاح».

ب - وقال رسول الله ﷺ: [ما من أحد من أصحابى إلا لو شئت لأخذتُ عليه فى خُلُقه، ليس أبا عبيدة] - مُرْسل ورجاله ثقات - (الإصابة).

جـ - وعن «عبدالله بن عمر» قال: (ثلاثة من قريش أصْبح الناس وجوهاً، وأحسنهم خُلُقاً، وأشدهم حياءً: أبو بكر، وعثمان، وأبو عبيدة) - رواه الطبرانى.

د - وروى ابن المبارك فى كتاب (الزُّهْد): أنَّ «عمر» قدمَ الشام [1] فتلقّاهُ أمراء الأجناد؛

فقال: أين أخى أبو عبيدة؟ فقالوا: يأتى الآن.

فجاءَ على ناقةٍ مخطومةٍ بحبْل، فسلَّم عليه، وساءَله حتى أتى منزله، فلم ير

(١) يوم فتح بيت المقدس.

فيه شيئاً إلا سيفه وترسه ورَحْله، فقال له «عمر»: لو اتَّخذْتَ متاعاً!؟.

قال: يا أمير المؤمنين إن هذا يبلغنا المقيل..!

هـ- وخطب «معـاذ بن جبل»- رضي الله عنه - في الناس بعـد وفاة «أبي عبـيدة» فقال: (إنكم فجـعتُم برجُلٍ ما أزعم - والله - أني رَأَيْتُ من عـباد الله قط أَقَلّ حقداً، ولَا أَبَرّ صدْراً، ولا أبعد غائلةً، ولا أشـد حياءً للعاقبة ولا أنْصح للعامّة منه، فَتَرحَّمُوا عليه..).

* * *



عبدالرحمن بن عوف رضي الله عنه

- كان رضي الله عنه ثامن ثمانية دخلوا الإسلام، فهو من السابقين الأولين.
- سمّاه رسول الله ﷺ بـ " الأمين " - (أمين في الأرض، وأمين في السماء) ولقد كانت الأمانة عنوان حياته قولا وعملا.
- كان مبارك اليد ، كثير الربح والكسب ، كثير الانفاق والصدقة، يأخذ من عطاء الله بيد ويعطي بالأخرى.
- نأى بنفسه عن منصب الخلافة، فكان حكما لأهل الشورى.
- كان قائدا مجاهدا ، وفقيها مجتهدا ، وإماماً ناجحاً،
- وباذلاً سخياً، وبكّاء من خشية الله.

بسم الله الرحمن الرحيم

إن أشَدّ ما يلفت النظر عند الحديث عن سيدنا «عبد الرحمن بن عوف» - رضي الله عنه - أنّه هُو راوي الحديث عن العشرة المبشرين بالجنّة، وقد سَمِعَهُ من رسُول الله «صلى الله عليه وسلم».

كما جَعَلَ نفسه فى تسلسل الترتيب حيث وَضَعَهُ رسُول الله «صلى الله عليه وسلم»، سابع العشرة.

وتلك هى أمانَةُ الرواية.

وعلى امتداد عمره - رضي الله عنه - حَمَلَ أكثَر من مَسْؤُولية، سواء فى عَهْد رسول الله «صلى الله عليه وسلم»، أوْ فى عَهْد الشيخيْن: «أبى بكر» و«عمر» أوْ فى عهد «ذي النورين - عثمان بن عفّان» - رضي الله عنه -؛ فكانَ أميناً علىَ العهد وفياً بِهِ، لا يزيغ ولا يَضِلّ.

ثُم إنَّه كانَ مِنْ كبار التجّار، ميمون النقَيبة، مُبارك اليد، حريصاً كل الحرْص على أنْ تكون الأمانة فى كُلّ صفقةٍ هى ديْدنه وطريقه ووسيلته، لا يحيد عَنْها ولا يميل، مهما كانت المغريات.

وقد ارْتفعت بِهِ هذه الأمانَةُ إلى مكانةٍ سامية ورُتْبة عالية، فوق دُنيا الناس.

فقال عنه رسُول الله «صلى الله عليه وسلم»:

- { أمينٌ فى الأرض وأمينٌ فى السّماء} -.

مولده ونسبه

بعد عشرة أعوام من عام الفيل وُلد فى قبيلة «زهرة بن كلاب» مولود عظيم، وطفل كريم ففرحت به قبيلته، ونَشّأهُ أبواه على الشهامة والنجدة والسخاء والوفاء.

هذا المولود هو: **«عبد الرحمن بن عوف بن عبد الحارث بن زهرة بن كلاب بن مرة بن كعب بن لؤى - القرشى الزهرى».**

وأمه «الشَّفاء بنت عَوْف» ويرتفع نسبها إلى زهرة ابن كلاب، فهى زهرية أيضاً، أسلمت وهاجرت.

و«بنو زهرة» هُمْ أَخْوال رسول الله «ﷺ»، إليْهم تنتسب «آمنة بِنْتُ وَهْب»- أم الرسول «ﷺ».

فبْين رسُول الله «ﷺ» وبَيْن «عبد الرحمن» صِلَةُ رَحِمٍ وقرابة نَسَب.

شب سيدنا «عبد الرحمن»- رضي الله عنه - عفيف النفس، سخيّ اليد، متسامح الخلق، وتشرب بالعادات العربية الأصيلة، فقبيلة «زهرة» قبيلة عريقة النسب والحسب، شريفة الأصل والمحتد.

ولهذه العوامل مجتمعة، نشأ - رضي الله عنه - عزوفاً عن المآثم الجاهلية الشائعة، كعبادة الأوثان، إلى الاشتهار بالفضائل والأخلاق.

«عبْدالرَّحمن»

كان اسمه فِى الجاهلية «عبد عمر» - وقيل أيضا: «عبد الكعبة»، فلما أسلم سماه رسول الله ﷺ «عبد الرحمن».

وكان صحابينا الجليل مملوءاً بالرحمة على عباد الله، فكانت يداه مبسوطتين بالخير والعطاء، وكانت عيناه تفيضان بالعبرات، إشفاقا وحناناً.

ولا غرو فهو أحد الثمانية الذين سبقوا للإسلام وأحد الذين أسلموا على يديْ «أبى بكر الصديق»- رضي الله عنه -.

وهو أيضا أحد العشرة المبشرين بالجنة على لسان الصادق الأمين، رسول الله ﷺ، وأحد الستة الذين شهد لهم الفاروق «عمر بن الخطاب»- رضي الله عنه - بان رسول الله ﷺ توفى وهو راضٍ عنهم - فكان أحد عناصر مجلس الشورى -.

ولا عجب أن يكون الصحابى الجليل «عبد الرحمن بن عوف» - رضي الله عنه - من السابقين إلى الإسلام، لأنه وجد فى هذا الدين بغيته وأمنيته، ولأنه وجد فى رسول الله ﷺ الحق الذى كان يبحث عنه، ورسول الهدى، والرحمة المهداة للعالمين.

صفته

كنت إذا نظرت إلى الصحابى الجليل «عبد الرحمن بن عوف» ـ رضي الله عنه ـ وجدت رجلاً حسن الوجه، رقيق البشرة، أبيض اللون، مشرباً بحمرة، لا يغير لحيته، ولا رأسه [1]، ضخم الكفين، غليظ الأصابع، أصيب فى رجله يوم «أحد» فعرج.

هجرته

كانت الحبشة هى المستقر الآمن الذى وجد فيه المسلمون المضطهدون ـ فى صدر الإسلام ـ مأمناً طيباً كريماً، وإيواءاً حسناً.

ذلك لأن النجاشى كان يحسن استقبال هؤلاء المسلمين المظلومين، ويعطيهم الأمان فى الأرض، وفى الرزق، رغم ما ترسله إليه قريش من صلات وهدايا.

وكان صحابينا الجليل «عبد الرحمن بن عوف» من هؤلاء الصفوة الذين تكبدوا مشاق الهجرة من مكة إلى الحبشة مخلفين وراءهم الأهل والوطن.

ونحن ندرك أن السفر له مشاقه وله أهواله وأخطاره، خصوصاً وأن الوسائل كانت ضعيفة، لذلك لاقى المسلمون من المهاجرين العنت والمشقة.

ولم يكن هذا السَّفَر عادياً، أو قريباً، أو فى تجارة، أو سياحة. . ، بل كان هجرة تحمل معانى القسوة على النفس. . ، وبعيداً لابدَّ من بلوغ الغاية فيه من تحمُّل ومكابدة؛ ولا يدرى صاحبه متى تكون العودة إلى الوطن والأهل. . !

قضى «عبد الرحمن بن عوف» ـ رضي الله عنه ـ أيام الهجرة الأولى إلى أرض الحبشة فى هم وعسر، فلما علم بإسلام «حمزة بن عبد المطلب» و«عمر بن الخطاب» ـ رضي الله عنهما ـ اشتاقت نفسه للعودة إلى الوطن، ظنا منه بأن المسلمين قد عزوا بإسلام هذين الفذين.

فعاد. . ، ولكنه ما لبث أن شعر بازدياد طغيان قريش واستبدادها، فآلمه ذلك وأحزنه.

---

(١) لا يُغيِّر لحيته ولا رأسه : لا يصبغُ شَيْبَهُما

فلما أذن رسول الله ﷺ للمسلمين بالهجرة إلى «يثرب»، بعد بيعة العقبة، انطلق «عبد الرحمن» إلى «يثرب»، مهاجراً للمرة الثانية، راغباً بالأمان والأمن على دينه وعقيدته.

عبد الرحمن وكسب اليد

ولقد ضرب لنا هذا الصحابى العظيم أروع الأمثلة وأعظمها فى عفة النفس وكرامتها، والاعتماد على الله تعالى فى السَّعْى والكسب، وكان جل اهتمامه أن يأكل من كسب يده.

فقد جاءه أخوه فى الإسلام، الأنصاريُّ: «سعد ابن الربيع» ـ رضي الله عنه ـ يعرض عليه ـ بعد المؤاخاة ـ نصف أرضه وقُوتِه، ورأسماله، فشكره «عبد الرحمن» ـ رضي الله عنه ـ وقال له:

ـ أوصلنى إلى السوق لأبيع وأشترى.

وتمسك بمبدئه بإباءٍ وشممٍ.

وصل إلى السوق، فباع واشترى، وكان صدوقاً أميناً مبارك اليد؛ فأفلح ونجح، بل كان ـ رضي الله عنه ـ التاجر الناجح، أكثر ما يكون النجاح وأرقاه.

ثم غدا الثريَّ، أكثر ما يكون الثراء، وفرة مالٍ وبحبوحة رزقٍ.

وكان ـ أيضاً ـ المؤمن الأريب اللبيب، الذى يأبى أن تذهب حظوظه من الدنيا بحظوظه من الدين.

المجاهد فى سبيل الله

ولقد كان ـ رضي الله عنه ـ تاجراً مع الله تعالى، إذ شرى نفسه ابتغاء مرضاة الله عز وجل.

فهو من المجاهدين العظام، والمقاتلين الأشداء الشجعان، الذين وهبوا أنفسهم فداءً لدينهم فى بناءصرح الأمة الإسلامية، وتثبيت أركان الإسلام فى أنحاء

الجزيرة العربية؛ واضعاً نُصب عينيه قول الله تعالى: ﴿ إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَىٰ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُم بِهِ.. ﴾.

الجندى والمقاتل

وكان للنبى ﷺ فيه ثقة عظيمة جعلته يرسله على رأس سرية فيها سبعمائة مقاتل إلى «دومة الجندل»، وذلك فى شهر شعبان سنة ست من الهجرة.

ولقد نقض رسول الله ﷺ، عمامَةَ «عبد الرحمن»، وعمَّمه بعمامة أخرى، وأرخى بين كتفيه منها، وقال له:

ـ سر باسم الله ووصاه بوصايا.

فقدم «دومة الجندل» فدعا أهلها إلى إحدى ثلاث: الإسلام، أو الجزية، أو الحرب، فأبوا فقاتلهم، وفتح الله عليه وعلى إخوانه بالنصر والظفر.

فأسلم «الأصبغ بن عمرو» ـ وكان نصرانياً ـ وكان رأس القوم؛ فبعث «عبد الرحمن» ـ رضي الله عنه ـ مُخبراً رسول الله ﷺ بذلك، فكتب إليه:

أَنْ تَزَوَّج «تُماضِر بنت الأصبغ».

فتزوجها «عبد الرحمن» وبنى بها، وأقبل بها إلى المدينة، وهى أم «أبى سلمة بن عبد الرحمن بن عوف».

شهوده الغزوات

ولقد شهد الصحابى الجليل ـ رضي الله عنه ـ: «بدراً» و«أُحداً»، وكان ممن ثبت إلى جانب رسول الله ﷺ وقد أُصيب يومئذ بسهم فى إحدى قدميه، وجُرِح جُرْحاً بالغاً، سبَّب له عَرَجاً بعد ذلك. كما شهد أيضاً «الخندق»، والمشاهد كلها، لم يفته واحدة منها.

ولقد كان له يوم «أحد» دور عظيم فى الدفاع عن رسول الله ﷺ ، ولقد أحصيت جراحاته فبلغت واحداً وعشرين، فكان الوسام العظيم الذى يذكره دائماً بالجهاد مع رسول الله ﷺ ، ويفخر به ويعتز.

ولم يمنعه عَرَجه عن أداء رسالته الإسلامية الجهاديَّة فى جميع الميادين، فكان الكريم المقدام، الحريص على إرضاء ربه سبحانه.

﴿وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ﴾

المسلمون الآن مجتمعون لغزوة «تبوك»، فى السنة التاسعة من الهجرة، وقد بلغ تعداد الجند ما يقرب من ثلاثين ألفاً، وكانت هذه الغزوة ذات أهمية خاصة، لأنها كانت رداً عسكرياً، إسلامياً على تحدى الروم.

وتعتبر هذه الغزوة مثلاً فى التكاتف والتعاضد وبذل المال، والدافع إليها أن النبى ﷺ بلغه أن الروم يحشدون الألوف للزحف على المسلمين فى بلادهم، ومعهم بعض قبائل العرب النصرانية من «لخم» و«جذام» و«بَلِّي» وغيرها.

وكان ذلك فى زمن عسرة، وقيظ، وجدب فى البلاد، وشدة حرٍ . . ، وقد طابت الثمار، والناس يحبون المقام فى ثمارهم وظلالهم.

فأمر «عليه الصلاة والسلام» بالتجهُّز، وكان قلما يخرج من غزوة إلا ورَّى[1] بغيرها ليعمِّى الأخبار عن عيون العدو ورصده، اللهم إلا فى هذه الغزوة فإنه أعلن عن مقصده صراحة، لبعد الشقة، وكثرة العدو، ليأخذ الناس من عدتهم لذلك، وبعث إلى «مكة» وقبائل العرب يستنفرهم لذلك، وحث الموسرين والأغنياء على البذل.

فأنفق «عثمان» - رضي الله عنه - عشرة آلاف دينار، وتبرع بألف بعير بأحلاسها وأقتابها، وخمسين فرساً، فقال ﷺ :

- اللهم ارْضَ عن «عثمان» فإنى عنهُ راضٍ.

---

(١) ورى: أعلن غير ما يريد .

وجاء «أبو بكر» بكل ماله وهو أربعة آلاف درهم، فقال له ﷺ :

- **هل أبقيت لأهلك شيئاً؟ قال: نعم، أبقيت لهم الله ورسوله.**

وجاء «عمر بن الخطاب» - رضي الله عنه - بنصف ماله، وجاء «**العباس بن عبد المطلب**» و«**طلحة بن عبيدالله**» بمالٍ كثير، وتصدق «**عاصم بن عدي**» بسبعين وسقاً من تمر.

﴿ وَتَوَلَّوْا وَّأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ ﴾

وممّا هو جدير بالذكر فى هذه الحادثة أن نساء الصحابة - رضي الله عنهن - قد تبرعن بحليهن وأرسلنها إلى الجيش.

وجاءه «**عليه الصلاة والسلام**» سبعة نفر من فقراء المدينة من الصحابة يطلبون إليه أن يحملهم، فقال: لا أجد ما أحملكم عليه. . ، فتولوا وأعينهم تفيض من الدمع حزناً ألا يجدوا ما ينفقون، فجهز «**عثمان**» ثلاثة، وجهّز «**العباس**» اثنين، وجهز «**يامين بن عمرو**» اثنين.

ولما اجتمع الجند وتهيّأوا، خرج بهم رسول الله ﷺ ، وولىَ «**محمد بن مسلمة**» على المدينة وعلى أهله «**علىّ بن أبى طالب**».

وتخلف كثير من المنافقين،على رأسهم «**عبدالله بن أُبىّ بن سلول**» وقال: يغزو «محمد» بنى الأصفر مع جهد الحال والحر والبلد البعيد. . ! أيحسب «محمد» أن قتال بنى الأصفر معه اللعب، و الله لكأنى أنظر إلى أصحابهُ مَقرَّنين فى الحبال.

وسار «عليه الصلاة والسلام» بالجيش، وأعطى لواءه الأعظم لـ«**أبى بكر**» - رضي الله عنه -.

[وفى إعطاء اللواء لأبى بكر فى آخر غزوة للرسول الأعظم ﷺ ، وتخليف «على» - رضي الله عنه - على أهل البيت حكمة لطيفة، لها أبعادها ومدلولاتها، لمن كان له قلب وعقل وفهم، أو لمن ألقى السمع وهو شهيد].

ثم فرق ﷺ الرايات، مستعملاً على حرس الجيش «عبَّاد بن بشر» ـ رضي الله عنه

وكان «أبو بكر» يصلِّي بالجيش، ولما وصلوا إلى «تبوك»، قال الرسول ﷺ لـ«معاذ بن جبل»: **يوشك إن طالت بك الحياة أن ترى ما هنا مليئاً بساتين..!**، وقد كان، وصدق رسولُ الله «ﷺ».

وكان لبطلنا العظيم «عبد الرحمن بن عوف» أدوار كثيرة فى هذه الغزوة، فلقد قدم تبرعاً مالياً ضخماً، يقدر بالآلاف من الدراهم..

واشترك بنفسه مع المجاهدين، مع أنه: ﴿ **وَلا عَلَى الأَعْرَجِ حَرَجٌ** ﴾.

الرَّجل الصَّالح

وبينما كان المسلمون فى مكان بين «الحِجْر»[1] وتبوك وحيث أدركتهم صلاة الصبح، ذهب رسول الله ﷺ ليقضى حاجته ويتوضأ، فتأخر حتى كاد الصبح أن يسفر فقدَّم المسلمون «عَبْد الرحمن بن عوف» ليصلى بهم إماماً، فتقدم وصَلى..

وفى أثناء الصلاة حضر رسول الله ﷺ، فصلى خلف «عبد الرحمن» الركعة الثانية، ثم أتم صلاته.

جاء فى (الرياض النضرة) عن «المغيرة بن شعبة» ـ رضي الله عنه ـ قال:

[تخلفت مع رسول الله ﷺ فى غزوة «تبوك»، فذكر وضوءهُ، ثم عمد الناس، و«عبد الرحمن» يُصَلِّى بهم فصلى مع الناس الركعة الأخيرة، فلما سَلَّم «عبد الرحمن» قام رسول الله ﷺ يتم صلاته، فلما قضاها، أقبل عليهم وقال:

ـ «قد أصبتم وأحسنتم..».

يغبطهم أن صلوا الصلاة لوقتها، ولم ينتظروه].

---

(١) الحجر: ديار ثمود.

وأعلن رسول الله ﷺ لـ«عبد الرحمن بن عوف» شهادته فيه، فقال:

ـ [ما قُبِضَ نَبِيٌّ حتى يُصَلِّى خَلْفَ (رَجُلٍ صالِحٍ) مِنْ أُمَّتِه [1]].

أمين فى الأرض، أمين فى السماء

وعن «عبدالله بن عمر» ـ رضي الله عنهما ـ:

ـ أن «عبد الرحمن بن عوف» قال لأصحاب الشورى:

هل لكم أن أختار لكم وأنتفى منها؟

قال «علىٌّ» كرم الله وجهه ـ.

[ـ أنا أوّل من يرضى، فإنى سمعت رسول الله ﷺ يقول:

أنت أمين فى أهل السماء وأمين فى أهل الأرض].

والأمانة، صفة من الصفات الإسلامية البارزة، فإذا شهد رسول الله ﷺ لـ«عبد الرحمن بن عوف» بهذه الأمانة، أعطاه ومنحه تقديراً تاريخياً يدوم على مر الليالى وتعاقب الأيام.

وسئل رسول الله ﷺ عن ألين شىء فى الدين وعن أشده فقال:

ـ [ألين شىء فى الدين: أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، وأشد شىء فى الدين هو الأمانة].

من رسول الله ﷺ إلى «عبد الرحمن»

عن إبراهيم بن عبد الرحمن بن عوف عن أبيه:

[أن رسول الله ﷺ قال له:

ـ يا «ابن عوف» إنك من الأغنياء، ولن تدخل الجنة إلا زَحْفاً، فأقرضِ الله عز وجل، يُطلِقْ لَكَ قَدَمَيْك.

قال «ابن عوف»: وما الذى أُقرِضُ الله؟

---

(١) رواه أحمد .

قال: تَبَرّأ بِما أمْسَيْت. قال: من كله يا رسول الله؟

قال: نعم.

فخرج «عبد الرحمن» وهو يهم بذلك - فأتى الرسولَ ﷺ «جبريل» - عليه السلام - فقال: يا «محمد» مر «ابن عوف» فَلْيُضِفِ الضَّيْف، وليُطعم المسكين، وليعط السائل، فإنه إذا فعل ذلك كانت كفارة لما هو فيه.

وعن «ابن عمر» - رضي الله عنهما - قال:

-[رأيت رسول الله عَمَّم «عبد الرحمن بن عوف» وقال له: هكذا تعمم].

الصحابيُّ الفقيه.

استمع «عبد الرحمن بن عوف» - رضي الله عنه - إلى رسول الله ﷺ وهو يقول: [مَنْ يردِ الله به خَيْراً يُفَقِّهْهُ فى الدين]. وإلى قوله - ﷺ -:

[الناس معادن خيارهم فى الجاهلية خيارهم فى الإسلام إذا فقهوا].

فعرف «عبد الرحمن بن عوف» - رضي الله عنه - من فقه النبوة ما شاء الله له أن يعرف، ولازم النبىَّ ﷺ فأخذ عنه الكثير من التعاليم النبوية، وتعرف تماماً على التشريعات الإسلامية.

وكان - رضي الله عنه - من الذين إذا سمعوا فقهوا وعملوا وطبقوا، فكان من أَجَلّ (علماء) الصحابة.

ومن أجل ذلك ثبت أنه كان يُفْتى فى حياة رسول الله ﷺ.

فعن «ابن عباس» - رضي الله عنهما -:

[أن «عمر» خرج إلى الشام، فلما بلغ «سرع» أخبر أن الوباء [1] قد نزل بالشام، فجمع أصحاب رسول الله ﷺ فاستشارهم، فاختلفوا، فوافق رأيه رأى من قال بالرجوع فرجع.

(١) الوباء: وباء الطاعون.

فجاء «عبد الرحمن بن عوف» وكان مُتَغَيِّباً فى بعض حاجته، فقال:

- إن عندى من هذا علماً، سمعت رسول الله ﷺ يقول:

- إذا وقع الطاعون بأرض بلاء فلا تقدموا عليه، وإذا وقع بأرض وأنتم بها فلا تخرجوا فراراً منها].

وعن سعد بن إبراهيم بن عبد الرحمن بن عوف قال:

[كان «عبد الرحمن بن عوف» إذا أتى «مكة» كره أن ينزل منزله الذى هاجر منه] إنه منزل يذكره بعادات الجاهلية الممقوتة، وصورها الممسوخة.

إنه منزل يذكره بالاضطهاد الذى كان يتعرض له المستضعفون من المسلمين فى الإسلام، أمثال «بلال» و«صهيب» و«عمار» و«عبد الله بن مسعود» - رضوان الله عليهم أجمعين -.

خوفه من ربه

وكان - رضي الله عنه - شديد الخشية من الله تبارك وتعالى، يخاف على نفسه من غضب الله - عز وجل - فقد كانت كثرة ماله تؤرقه ولا تفتأ تكرِّه له الدنيا، على عكس الكثيرين من أهل الطمع والجشع الذين يرون الراحة فى كثرة المال، ويرون الغنى فى الثروة الوفيرة.

فها هو «عبد الرحمن» - رضي الله عنه - يذهب إلى «أم سلمة» - رضي الله عنها - ليقول لها:

- يا أمَّه، قد خشيت أن يهلكنى كثرة مالى، فأنا أكثر قريش كُلّها مالاً.

فقالت: - يا بُنَىَّ، تصدق. . .

فإنّى سمعت رسول الله ﷺ يقول:

«إن من أصحابى من لا يرانى بعد أن أفارقه».

فخرج «عبد الرحمن» فلقى «عمر» فأخبره بما قالت «أم سلمة»، فأتاها يشتد ويسرع، فقال:

ـ أنشدك الله ، أنا فيهم؟!

قالت: لا، ولن أبَرِّىء بَعْدَكَ أحداً.

وعن سعد بن إبراهيم عن أبيه:

ـ أن «عبد الرحمن بن عوف» ـ رضي الله عنه ـ أُتى بطعام ـ وكان صائماً ـ فقال: قتل «مصعب بن عمير» وهو خير منى، فكفِّن فى بردة، إذا غطى رأسه بدت رجلاه، وإن غُطِّيت رِجْلاهُ بدا رأسه.

وقتل «حمزة» وهو خير منى، فلم يوجد له ما يكفن فيه إلا بردة؛ ثم بسط الله من الدنيا ما بسط ـ أو ـ قال ـ: أعطينا من الدنيا ما أعطينا، وقد خشينا أن تكون حسناتنا قد عُجِّلت لنا.

ثم جعل يبكى حتى ترك الطعام.

لقد ضرب لنا الصحابى الجليل أروع الأمثلة على خوفه من ربه ـ تبارك وتعالى ـ ذلك الخوف الذى يتمثل أمامه فى كل فترة من فترات حياته.

فإنه لم يكتف بشهادة النبى ﷺ له بأنه من أهل الجنة، بل كان يحاول دائماً التقرب من الله ـ عز وجل ـ، وبالتصدُّق بالعطاء للمساكين والفقراء.

لقد كان يستمع إلى رسول الله ﷺ وهو يقول:

«أنا أعملكم بالله ، وأخشاكم لله ، وأتقاكم لله ».

وكان ـ رضي الله عنه ـ كلما زاد قربه من ربه زاد خوفه من مولاه.

كرمه وسخاؤه

إذا أردنا أن نعلم كيف كَوَّن «عبد الرحمن بن عوف» ـ رضي الله عنه ـ تلك الثروة العريضة والغنى الواسع، وجدنا عجباً.

لقد عرفنا ـ فيما سبق ـ أنه دخل المدينة مهاجراً ليس معه شىء، وعرض عليه «سعد بن الربيع» نصف ماله، فأبى وطلب إليه أن يذهب به إلى السوق. . .!

لقد بدأ - رضي الله عنه - الطريق من أوله، فلم يأته المال طفرةً، ولكنه جاءه بعد جد وجهد، وكدٍّ وعرق.

إن «عبد الرحمن بن عوف» - رضي الله عنه - لم يبدأ التجارة برأس مالٍ، وإنما بدأها بالثقة في الله، والاعتماد عليه، وبأمانة في البيع والشراء، والصدق والإخلاص، والقناعة بالربح القليل.

واجتهد - رضي الله عنه - في التجارة، فتدفق المال في يديه كثيراً وفيراً، حتى روى أنه قال:

- لو رفعت حجراً من مكانه لوجدت تحته مالاً.

ولقد سأله بعض أصحابه فقال:

- بم أدركت في التجارة ما أدركت؟

قال. **لأني لم أشتر مَعِيباً، ولم أرد ربحاً كثيراً، و الله يبارك لمن يشاء.**

وكان ينظر إلى المال على أنه عرض زائل، ومتاع فانٍ، ولكنه كان يحبه لينفق منه ويسخو به في مجالات الخير.

صور من جوده....

قال «إبراهيم بن سعد بن إبراهيم بن عبد الرحمن بن عَوْف»:

حدثني بعض أهلي من ولد «عبد الرحمن بن عوف»: **أن عبد الرحمن بن عوف باع أمواله من «كيدمه» وهو سهمه من «بني النضير» بأربعين ألف دينار، فقسمها على أزواج النبي ﷺ.**

وعن «الزهري» قال:

- تصدق «عبد الرحمن بن عوف» على عهد رسول الله بشطر ماله أربعة آلاف درهم، تصدق بأربعين ألف دينار، ثم حمل على خمسمائة راحلة في سبيل الله، وكان عموم ماله من التجارة.

وقيل إن الآية الكريمة:

﴿الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ لا يُتْبِعُونَ مَا أَنفَقُوا مَنًّا وَلا أَذًى لَّهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [سورة البقرة، الآية: ٢٦٢].

نزلت فى «عبد الرحمن بن عوف» - وكرام الصحابة - رضوان الله عليهم -.

وعن «أنس بن مالك» - رضي الله عنه - قال:

- [بينما السيدة «عائشة» فى بيتها إذ سمعت صوتاً رُجت منه المدينة، فقالت: ما هذا ؟ قالوا: عِيرٌ قدمت لـ «عبد الرحمن بن عوف» من الشام، وكانت سبعمائة راحلة.

فقالت «عائشة»: - رضي الله عنها -:

- أما إنى سمعت رسول الله ﷺ يقول:

رأيت - «عبد الرحمن بن عوف» يدخل الجنة حَبْواً.

فبلغ ذلك «عبد الرحمن بن عوف» فأتاها فسألها عما بلغه، فحدثته، فقال. - **فإنى أُشْهِدُكِ أنها بأحمالها وأقتابها وأحلاسها فى سبيل الله**].

وعن «ابن عباس» - رضي الله عنهما - قال.

[وردت قافلة من تجارة الشام لـ «عبد الرحمن ابن عوف» فحملها إلى رسول الله ﷺ، فأنفقها على المسلمين، فدعا له بالجنة.

فنزل «جبريل» - عليه السلام - وقال:

- أقرىء «عبد الرحمن» السلام، وبَشِّرْهُ بالجنة].

وعن «عمر بن الخطاب» - رضي الله عنه - قال:

- رأيت النبىَّ ﷺ فى منزل «فاطمة»، والحسن، و«الحسين» يبكيان جوعاً ويتضوّران، فقال ﷺ:

- مَنْ يَصِلُنا بِشَىء؟

فطلع «عبد الرحمن بن عوف» بصحفة فيها حيس ورغيفان، بينهما إهالة،

فقال النبى ﷺ :

«كفاك الله أثر دنياك، وأما آخرتك فأنا لها ضامن».

وروي عنه - ﷺ - أنه قال:

«سقى الله «ابن عوف» من سلسبيل الجنة».

مشاركته فى تحرير الرقيق

جاء الإسلام الحنيف والرقيق منتشر فى أنحاء العالم، وبخاصة فى جزيرة العرب، إذ كان الإنسان يباع ويُشترى..، وكان الفلاحون يباعون مع مساحات الأرض فى دولة الرومان.

فلما جاء النبى ﷺ بالدين الحنيف، كرَّم الإنسان أيما تكريم، وأعاد إليه حقوقه فى الحياة الكريمة، فى الحرية والمساواة والعدل... أقر الإسلام للإنسان بعزة الإيمان ﴿ وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ ﴾، كما أقر بكرامة العاملين ﴿ وَلِكُلٍّ دَرَجَاتٌ مِّمَّا عَمِلُوا وَلِيُوَفِّيَهُمْ أَعْمَالَهُمْ وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ ﴾.

ولقد كان «عبد الرحمن بن عوف» - رضي الله عنه - من أوائل الذين استجابوا لربهم فى هذه النداءات، فأضاف إلى أياديه البيضاء فى السخاء أيادى أخرى فى تحرير العبيد.

فعن «جعفر بن بركات» قال:

- بلغنى أن «عبد الرحمن بن عوف» - رضي الله عنه - أعتق ثلاثين ألفا من العبيد.

- وقد رُوِىَ أنه أعتق فى يوم واحد ثلاثينَ عَبْداً.

استعداده للموت!!

وكان - رضي الله عنه - يذكر الموت كثيراً، ويستعد له، وكان يكتب وصيته مراراً.

فعن «ابن عباس» - رضي الله عنهما - قال:

{ (- مرض «عبد الرحمن بن عوف» فأوصى بثلث ماله، فَصَحَّ، فتصدق بذلك بيد نفسه، ثم قال:

ـ يا أصحاب «محمد» ﷺ كل من كان من أهل «بدر» له عليَّ أربعمائة دينار، فقام «عثمان» وذهب مع الناس، فقيل لـ «عثمان»: يا أبا عمرو ألست غنياً؟ قال: هذه من «عبد الرحمن بن عوف» لا صدقة، وهو من مال حلال .

فأنفق عليهم ـ ﷺ ـ في ذلك اليوم مائة وخمسين ألف دينار، فلما جَنَّ عليه الليل جلس في بيته وكتب وصيّته في ورقة بتفريق كثير من المال لفلان، وكذا لفلان، حتى كتب أن قميصه الذى على بدنه لفلان، وعمامته التى يلبسها لفلان، ولم يترك شيئاً من ماله إلا كتبه للفقراء)].

ألا تريان؟ هذا أبو جهل....!

يقول «عبد الرحمن بن عوف» ـ ﷺ ـ

نظرت يوم «بدر» عن يمينى وعن شمالى، فإذا أنا بغلامين من الأنصار، حديثة أسنانهما، فتمنّيتُ أن أكون بين أضلع منهما، فغمزنى أحدهما فقال أيْ عَمِّ، هل تعرف «أبا جهل»؟ قلت: نعم، فما حاجتك إليه يا ابن أخى؟ قال: أخبرت أنه يسب رسول الله ﷺ ، والذى نفسى بيده لئن رأيته لا يفارق سوادى سواده [١] حتى يموت الأعجل منا.

قال «عبد الرحمن»: وغمزنى الآخر فقال لى مثل ما قال الأول.

فلم ألبث أن نظرت إلى «أبى جهل» يجول فى الناس، فقلت

ـ الا تريان؟ هذا «أبو جهل» الذى تسألان عنه، فابتدراه بسيفيْهما واشتركا فى قتله مع «معاذ بن عمرو بن الجموح» و «معاذ بن عفراء».

اعترافه ﷺ بتقصيره فى طاعة ربه

قدم رجل المدينة، فلقى أناساً من المهاجرين، فسألهم عن «عبد الرحمن بن عوف» فأخبر بأنه فى أرضه بـ «الجرف» [٢].

١) أي : لا يفارق ظلي ظله .

٢) الجرف : ضاحية من ضواحي المدينة ، ذات مياه وزروع ، وكانت معسكراً لتعبئة جيوش المسلمين .

فجاءه فوجـده يُحوِّل الماء بمسحاةٍ [1] في يده، واضعا رداءه، فـسلم عليه ثم قال:

ـ هل جاءكم إلا ما جاءنا، وهل علمتم إلا ما قد علمنا؟

فقال «عبد الرحمن»:

ـ ما جاءنا إلا ما جاءكم، وما علمنا إلا ما علمتم.

فقال الرجل:

ـ فما بالنا نزهد في الدنيـا وترغبون فيها؟ ونخفُّ في الجهـاد وتتثاقلون عنه؟ وأنتم خيارنا وسلفنا وأصحاب نبيِّنا «محمد» ﷺ !!!

فقال «عبد الرحمن»:

إنه لم يأتنا إلا ما جاءكم، ولم نعلم إلا ما قـد علمتم، ولكن ابتلينا بالضراء فصبرنا، وابتلينا بالسراء فلم نصبر...!

أحد أصحاب الشورى

حين طعن سـيدنا «عمـر بن الخطاب» ـ رضي الله عنه ـ، سمى سـتة من أصـحاب رسول الله ﷺ يختارون من بينهم الخليفة، وكان فيهم «عبد الرحمن بن عوف» ـ رضي الله عنه ـ وهؤلاء الأجلاء هم الذين تُوفِّي رسول الله وهو راضٍ عنهم، كـما أخبر «عمر» بذلك، وكما يعرفه أكثر الصحابة.

وكان قد سمى ابنه «عبدالله» سابعاً، ولكن مـستشاراً ـ كـما سبق وَعلمْتَ ـ ليس له من أمر الخلافة شيء.

وكان «عبـد الرحمن بن عوف» ـ رضي الله عنه ـ أول المتنازلين عن حقه، نائيـاً بنفسه عن مسؤولية الخلافة، وهذا ما دعا المجتمعين إلى اختياره حكماً بينهم.

فلما حصر الأمر بين «علي» و«عثمان» ـ رضي الله عنهما ـ، سأل «عبد الرحمن» كليهما: هل يتبع كتاب الله تعالى، وسنة نبيه ﷺ، ونهج الشيخين «أبي بكر» و«عمر».

---

(١) المسحاة: المجرفة.

فقـال «عثمـان»: نعم، وتعهَّد بذلـك، أما «على» - رضي الله عنه - فقـد قال: نعم لكتاب الله، وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم، ثم أجْتَهِدُ رأيى.

من هنا - عزيزى القارىء - كان الاتفاق على «عثمان» - رضي الله عنه -.

ولقد عـاش «عبـد الرحمن بن عـوف» بعد ذلك ناصـحاً أمينا، ومـستـشاراً صادقاً.

ثم كانت وفـاته فى خلافـة «عثمـان» - رضي الله عنه - سنة إحدى وثلاثين للهـجرة (٣١هـ).

فصلى عليه «عثمان» ودفن فى «البقيع»، وله من العمر خمسة وسبعون سنة.

رضى الله عن «عـبد الرحـمن بن عـوف» فى الأولين والآخرين، وأنزله فى الجنة منازل الأبرار الصالحين، وأثابه من لدنه ثواب السابقين الصادقين...

سعد بن أبي وقّاص رضي الله عنه

عن جابر رضي الله عنه قال :-

- أقبل سعد فقال النبي ﷺ : (هذا خالي فليُرني امرؤ خاله) .. الترمذي.
- وعن قيس بن أبي حازم عن سعد أن النبي ﷺ قال: (اللهم استجب لـ «سعد» إذا دعاك) .. الترمذي.
- وجاءه ابن أخيه "هاشم بن عتبة بن أبي وقّاص" يوم الشورى، فقال له: ها هنا مائة ألف سيف يرونك أحق بهذا الأمر .. فقال «سعد» : أريد سيفاً واحداً إذا ضربت به المؤمن لم يصنع شيئا، وإذا ضربت به الكافر قطع.
- كان أول من أسال دماً في سبيل الله.
- وأول من رمى بسهم.

بسم الله الرحمن الرحيم

لقد ارتبط اسم «**سعد بن أبي وقاص**» - رضي الله عنه - بـ«**القادسيَّة**» ارتباطاً لا انفصام له؛ كما ارتبط اسم «**خالد**» بـ«**اليرموك**» و«**عمرو بن العاص**» بـ«**مصر**» و«**الزُّبَيْر**» بـ«**حصن بابليون**». . . ، وكثير. . كثير من الأبطال الأعلام - من الصحابة والتابعين وتابعيهم، بمسمَّيات من الأماكن والبُلْدان والأقْطار.

وأضحُوا فى سجلِّ التاريخ (**أعلاماً**)؛ قُدْوةً فى القيادَة، وأُسْوةً فى الإمارة، ونماذج فى العبقرية العسكريَّة.

وأُمثولات سامية رفيعةً يتمثَّل فيها الإسلامُ الذى من أجْله انطلقوا، فشرَّقوا وغرَّبوا، وأرْسوا فى تلك الديار شهادة: أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله .

لقد وقف بطلنا العظيم «سعد بن أبي وقاص» بَعَد أن دَخَل «**المدائن**» عاصمة «كسرى»، وتوسَّط «الإيوان»، يَنْظر ويتأمَّل، ثم يردِّد: **﴿كَمْ تَرَكُوا مِن جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ۝ وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ۝ وَنَعْمَةٍ كَانُوا فِيهَا فَاكِهِينَ﴾**[الدخان: ٢٥ - ٢٧].

إنَّه لم يتذكر إلا قَوْل الله تعالى؛ الذى تلبَّس بِهِ منذ يفاعتِهِ، وتأصَّل فى صميم قلْبه وكيانه، فنطق به لسانه. . !

تلك - عزيزى القارئ - هى مدرسة «محمد بن عبدالله» - صلوات الله وسلامه عليه -، وتلك هى رسالته **﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾**.

يخرج الناس من الظلمات إلى النور بإذْن ربِّه، يخرجُهم من جبروت الكُفْر إلى هداية الإيمان، ومن غطرسة «كسرى» و«فرْعَوْن» إلى رَحْمة الإسلام وعدله.

و«الأبطال» هم التلامذة النُّجباء و«سعد» - رضي الله عنه - من سابقيهم، ومقَدَّميهم. . !

النَّسَبُ والولادة والنشأة

هو : سعد بن مالك بن أُهيب - ويقال ابن وهَيْب بن عبد مناف بن زهرة بن

كلاب - «القُرشى الزهرى» وكان يُكَنّى بـ«أبى إسْحاق».

أَسْلَمَ مُبكّراً، وكان فتىً يافعاً، فَقَدْ وُلِدَ قبْل البعثة بأعْوام قلائل.

ينتسب إلى «بني زهرة» أخوال النبيّ «ﷺ» - كـ«عبد الرحمن بن عوف»؛ ولقد عَرَفْت أن اسْم «أبى وقاص» - والد «سعد» هو: «مالك»، لكن غلبت الشهرة على الإسْم، فاشتهر - رضي الله عنه - بأنه «سعد بن أبى وقاص».

سعد وأمه

أوى «سعد» إلى فراشه بعد نهارٍ بذل فيه جهداً كبيراً، وبعد أن تناول طعام العشاء مع والدته «حَمْنَة[1] بنت أبى سفيان بن أبى أمية» وقد تجاذبا خلال الطعام حديثا كان مداره حول ما يلاقيه من مشاق العمل ومتاعبه.

وكانت والدته أثناء ذلك تلح عليه أن يترك صنعته بِبَرْي السهام والنبال، فلها من مالها ما يكفيه مؤونته ويسد حاجته، لكن «سعداً» لم يرق له ذلك لأنه يتخذ من هذه الحرفة هواية ليشبع بها ميله إلى الفروسية، ويسر كثيراً حين تمتلىء دكانه بالفرسان، وكلهم يرجوه أن ينجز له بغيته وطلبه مما يرضى فضوله وكبرياءه.

كان يشعر أثناء تمدده فوق فراشه كَلَلاً ينتاب ذراعيه وكتفيه، ورغم هذا الإعياء ظل مفتّح العينين، لا يجد النوم سبيلاً إلى جفنيه.

ومضت عليه ساعة، أو بعض ساعة، وهو يتقلب فوق فراشه حتى أغفى.

الرُؤْيا

ورأى فى منامه كأن الدنيا قد انحجبت شمسها، وأطبق الظلام على أطرافها، وتكاثف سوادها، وأغطش[2] ليلها، فشعر بانقباض شديد يتناب نفسه، ويزايل روحه، ووجد حرجاً بالغا فى صدره كأنما يصّعد فى السماء..

---

(١) جاء فى الإصابة، ان اسمها: «حمزة»؛ وهو تصحيف ولا شك فما عُرِف في النساء من اسمها «حمزة»

(٢) أغطش : أظلم.

وما هى إلا هنيهة حتى ظهر فى الأفق نور شديد، كالبرق الخاطف، بدّد الظلام، وفرق السواد، وانتشر فوق الربوع والآكام، وفى كل مكان، فأعاد البهجة إلى الطبيعة، والانشراح إلى النفوس، ومع الضوء الساطع رأى وجوهاً يعرفها حق المعرفة، تلوح فى الأفق، وجه «أبى بكر» ووجه «علّى بن أبى طالب» ووجه «زَيْد بن حارثة»، فسألهم: متى أتيتم إلى هنا؟ فقالوا: الساعة. ثم تلاشت صورة تلك الوجوه واختفت، فاستيقظ من نومه...، وقد حيرته الرؤيا، وشغلته كثيراً، لماذا هذه الوجوه بالذات يعلوها النور الساطع والضوء الباهر دون غيرها ممن يعرفهم من أهل مكة؟ ولماذا اجتمعت؟ وعلى أى شىء؟.

حاول العودة إلى النوم فلم يستطع، وظل يتقلب فى فراشه مؤرقا مُسَهّداً.

وعندما جمعه فطور الصباح مع والدته كان صامتاً لا ينبس ببنت شفة، تبدو على قسمات وجهه أمارات الجد وعلامات التفكير.

أول الوجوه

وبينما هو فى دكانه منهمكاً فى عمله، وقد شغلتْهُ وقائع اليوم من بيع وشراء وأحاديث مع الناس عما كان يهمه، إذ أقبل عليه «أبو بكر» مسلّماً:

- عِمْتَ صباحا يا «سعد».

- عمت صباحاً يا «أبا بكر»..

ثم دعاه للجلوس. قال «أبو بكر»:

- لقد جئتك اليوم يا «سعد» لأمْرٍ على غاية من الأهمية..

- خيراً..! - هل تعرف «محمد بن عبدالله»؟.

- نعم..، فنحن «بنو زهرة» أخواله كما تعلم.

- هل تراه متّهماً فى شىء؟ - لا والله، إنه خير الناس وأفضل الناس.

- لقد أوحى الله - إليه بالنبوة، وأنزل عليه قرآناً، فهو يدعو إلى ترك عبادة

الأوثان، والإيمان بالخالق وحده، وإنصاف المظلوم، والمساواة بين الناس.

ـ أيكفر باللات والعزى ومناة؟.

ـ ولم لا، إنها أحجار صماء، لا تضر ولا تنفع.. وأطرق «سعد» قليلاً إلى الأرض، ثم سأل: ـ ومن آمن به من الناس يا «أبا بكر»؟.

ـ أنا، و«على بن أبى طالب» و«زيد بن حارثة»..

حينئذ تنبهت حواس «سعد» واستيقظ وجدانه، وعادت به الذكرى إلى الرؤيا التى رآها..، إلى النور الذى أضاء الكون بعد ظلمة، وأنار الدنيا بعد عتمة، والوجوه الثلاثة التى غمرها بفيضه، ولفّها بسناه فالتفت إلى «أبى بكر» قائلاً ـ وأين «محمد» الآن؟.

ـ فى شعب «أجياد» [1].

ـ هيا إليه الآن.

بين يدى رسول الله «ﷺ»

وحين وصلا، أدركا النبى ﷺ يُصلى، فانتظراه حتى يفرغ من عبادته؛ وسمعه «سعد» وهو يتلو بعض آيات القرآن الكريم، التى أثلجت صدره، وولجت قلبه وخالطت روحه.

وما أن فرغ النبى ﷺ من صلاته حتى أقبل على «سعد» مرحّباً مسلّماً، وواعظاً مرشداً، مبشراً، ثم دعاه إلى الإسلام. وسرعان ما استجاب «سعد» وشهد لله بالوحدانية ولمحمد ﷺ بالرسالة.

فكان «سعد» ـ رضي الله عنه ـ رابع أربعة آمنوا بالله ورسوله من الذُّكور

إنَ بُشرى «سعد» بالجنّة، مع إخوانه العشرة، على لسان رسُول الله «ﷺ» لم يأتِ من فراغ: فإن فى موقف كُلّ منهم، ومواقفه، آياتٌ تُشير إلى الرفعة، وعُلُوُّ المكانة، وسموُّ المقام.

(١) أجياد: أحد أحياء مكة المكرمة.

وهذه العاجلَةُ من «سَعْد» فى الدخول فى الإسلام، والرؤيا التى رآها، وكونه رابع أربعـة بعد «أبـى بكر» و«على» و«زيد»، هى التى أهَّلَتْـه لهـذه الشهـادة من رسول الله «ﷺ»، أضف إليـها ما سَـوْفَ تكُونُ عَلَيْه سيـرةُ حياته، وتفـانيه، وإخلاصه، وصدقه مع الله تعالى.

بين «سعد» وأمه

وتكرر لقـاء «سعـد» ـ رضي الله عنه ـ برسـول الله ﷺ، فرسخ الإيمان فى قلبـه، وتمكّن من نفسه، وتعلم كيف يُصَلى .

وحين عاد فى أحـد الأيام إلى البيت انتـحى ناحية وأخـذ يُصَلى كمـا علمه رسول الله ﷺ .

ورأته أمه على تلك الحال، قائماً راكعاً ساجداً، فاستغربت تصرفه ونادته وهو قائم يصلِّى، فلم يرد عليها. . ، ثم رفعت صوتها ظناً منها أنه لم يسمعها، ولكنه لم يرد أيضا، حتى فرغ من صلاته، فسألته مستنكرة صنيعه: ماذا كنت تفعل؟ .

فأجابها بأنه كان يصلى لله رب العالمين، خالق السماوات والأرض وما بينهما الرحمن الرحيم. . !

فُروِّعت للنبـأ العظيم وحاولت جهـد طاقتهـا أن تُثْنى ولدها عن إيمانه، فلم تفلح وحين وجـدته على صلابته لا يـلين، حاولت أن تُرْهِبَه. . ، فـحلفت أن لا تذوق طعـاماً ولا شراباً حـتى يعود إلى ديـن الآباء والأجداد، إلى عـبادة اللات والعزى ومناة

﴿ وَإِن جَاهَدَاكَ . . ﴾

ووقع «سعد» فى حيرة وارتباك، أيترك أمه تهلك من الجوع والعطش؟ أم تراه يذعن لرغبـاتها وتوسلاتهـا ! أم يظل مستـرسلاً فى إيمانه متـمسكاً برأيه ولو أدى ذلك إلى موتها؟.

وتجاذبت نفسه نوازع مـختلفة وعوامل متفرقـة، ثم وصل إلى قراره النهائى،

وهو أن لا يتنازل قيد أنملة عن إيمانه مهما كانت النتائج.

ثم دعا والدته إلى طعام العشاء معه، فلم تُجبْهُ، فأكل وشبع، وهى ترمقُه بنظرات كلها استغراب وتعجب، وتكرر الأمر عند صباح اليوم التالى، وغادر «سعد» الدار إلى عمله.

ومر يومٌ بكامله على الأم لم تذق خلاله أىّ طعام وشراب، وعضّها الجوع بنابِه، وعندما أقبل المساء وأطل «سعد»على المنزل، وأحست امه بوقع أقدامه استقبلته هاشة باشة، وكذلك فعل هو، وقد بادلها تحيتها وترحيبها، وكل منهما يظن أن الآخر قد بَدَّل موقفه، ولما همّ بتناول الطعام ودعاها إليه، سألته بالآلهة أن يستجيب لندائها، وأن يعود إلى رشده وعقله، فيترك ما هو فيه من الصَّبَأة..!

فانتفض كمن لسعته عقرب، وأنذرها للمرة الأخيرة - غاضباً - أنه لن يعود إلى عبادة الأوثان، فقالت له: إننى إذاً لن أشاركك طعامك وسأظل على عهدى حتى أهْلك..

فقال لها «سعد»- ﷺ -: - اسمعى يا أماه، والله لو كانت لك ألْف نفسٍ فخرجت نفساً بعد نفس ما تركت هذا الدين..!

فنزلت كلماته عليها نزول الصاعقة، فارتجفت وأدركت أنه جاد فى موقفه كل الجدِّ، فتخاذلت.

ثم انصرف عنها إلى طعامه..، وعندما استبد بها الجوع وآذاها تمنت لو أن ابنها عاود دعوته لها، ثم نظر إليها «سعد» فرآها مقبلة نحوه، فقام إليها، وأقعدها إلى جانبه، وأكلا سوياً.

فى الصباح.. قصد «سعد» إلى النبى ﷺ وجلس إليه يستمع إلى توجيهاته ونصائحه، وبينما هم فى مجلسهم هذا نزل قول الله تعالى:

﴿وَوَصَّيْنَا الإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ ۝ وَإِن جَاهَدَاكَ عَلَىٰ أَن تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ

بِهِ عِلْمٌ فَلا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ [سورة لقمان: الآيتان: ١٤، ١٥].

وعندما تلا النبى ﷺ هذه الآية أحس «سعد» فى قرارة نفسه أنها إنما نزلت فى شأنه، فاستبشر خيراً، واطمأنت نفسه، وأدرك أن ما قام به من عمل، قد أرضى الله تعالى، ولو أغضب أهل الأرض جميعاً.

أول من ضرب فى سبيل الله

قام «سعد» - رضي الله عنه - من مجلس النبى ﷺ مستأذناً بالانصراف، وفى الطريق اعترضه «أبو جهل» ومعه بعض المشركين، فقالوا لـ«سعد»:

- ماذا تقولون في آلهتنا؟

قال «سعد»: إنها أحجارٌ صَمّاء، لا تَنْفَع ولا تَشْفَع..!

فقال «أبو جهل»: - كَذَبْتُم وَخَسِئْتُم..

فأجاب «سعد»: - بَلْ أَنْتُم الكاذِبُون الخاسِئُون.

واشتبك الطرفان فى قتال، وكان بيد «سعد» - رضي الله عنه - لحىَ بعير[1]، فضرب به أحد رفاق «أبى جهل» فَشَجَّهُ، وضربه الآخر على أذنه فسال دَمُ «سعد». وتدخَّل بعض الناس، ففرقوا بين المتخاصمين، فعاد «سعد» إلى النبىّ ﷺ وجرحه ينزف، فأسعفه، وضمده النبىُّ ﷺ بيده الشريفة، وهو يقول: - فى سبيل الله ذلك دمك يا «سعد»..!

وكانت دماء «سعد» - رضي الله عنه - أول دماءٍ تراقُ فى الإسلام.

ارمِ فداك أبى وأمى

ومرت الأيام، وتلتْها الأعوام، وكانت الهجرة.

واشترك «سعد» - رضي الله عنه - يوم «بدر» فى القتال، وأبدى من ضروب المهارة والفروسية، ورَمْيِ النبال ما شهد له به التاريخ، وكان يومها يرتدى جبة صوف،

---

(١) لحى بعير: فكه الأسفل.

وحين عاد مع الركب المنتصر إلى المدينة خلع عنه جبته وطلب إلى زوجته أن تحتفظ بها، رمزاً لذلك النصر المؤزَّر الأول الذى أحرزه المسلمون على أعداء الله مِنَ الكَفَرَةِ والمشركين.

وكيف لايكون «سعد» راميًا ماهراً بالسهام، فلمّا يُخطئ الغرض، وهو الذي كانت صنعتَه - مُنْذُ أن تفتحت عيناهُ على الحياة - صناعةُ السِّهام، يَبْريها ويريشها، ويُتْقِنُهَا، حتى فاضت شهرته في ذلك.

كما كان يوم «أحد» البطل المرموق، والرامى المسدد..

وفى إبّان احتدام المعركة، وقد أجْهَد المسلمين أحد رماة المشركين، بما أمْطرهم به من سهامه، فقال النبى ﷺ لـ«سعد»:

ارم فداك أبى وأمى، ارم أيها الغلام الحَزوَّر(١) . ودعا له ﷺ فقال:

[اللهم سَدِّدْ رَمْيَتَه، وَأَجِبْ دَعْوَتَه].

ولم يجمع الرسول ﷺ أبويه لأحدٍ من الناس غير «سعد».

ولذا كانَتْ رمْيتُهُ - رضي الله عنه - لا تُخطىء الهدَفَ أبداً، إذ جَمَع إلى المهارَة فى الصنعة دعاء النبى ﷺ له، ويالَهُ من دُعاء..!

وكذلك دَعْوته - رضي الله عنه - فما كانت لتُخْطىء صاحبها، سواءٌ كانَتْ له بالخير، أوَ عَلَيْه بالحُسْبان. ومَنْ ثَّم عُرِف بأنَّه: مُجابُ الدَّعوة.

بطل القادسية

بعد أن تولى «أبو بكر الصديق» - رضي الله عنه - الخلافة، قام بمهمة تنفيذ أمر الدعوة إلى الإسلام والتصدى لدولتَيْ الروم والفرس.

فوجه الجيوش إلى الشام أولاً، ثم جاء «المثنى ابن حارثة» الشيبانى - مستأذناً الخليفة أن يوليه على قومه ليغزو بهم العراق، فأذن له، وبعد رحيله أردفه بمدد

(١) الحزور: القوي؛ أو الذي يُحسن التقدير والتخمين.

على رأسه «خالد بن الوليد».

ولكن الجيوش الإسلامية فى الشام بعثت إلى «أبى بكر» فى المدينة تطلب العون، فأرسل إلى «خالد» فى العراق يأمره بالتوجه إلى الشام، وملاقاة جيوش المسلمين.

واستمر «المثنى» فى غزو العراق وحده، فكان ينتقل من نصر إلى نصر حتى أصبح من «المدائن» على بعد أميال معدودة، وداعبت نفسه المتعطشة إلى الجهاد أحلام فتحها، فأسرع إلى المدينة يطلب المدد من الخليفة، ولكن «أبا بكر» ـ رضي الله عنه ـ كان فى مرض موته، فأرسل فى إثر «عمر بن الخطاب» وطلب إليه أن يَنْتدب الناس للخروج إلى العراق، فلبوا دعوته، ثم أمَّر عليهم رجلاً يدعى «أبو عبيد بن مَسْعُود الثقفى» وكان شجاعاً فارساً مقداماً.

فى هذه الأثناء كان «سعد» ـ رضي الله عنه ـ موفداً من قبل الخليفة إلى «هوازن» ليجمع منها الزكاة والعشور، ولم يكن ليدور فى خلده أن الأقدار ستحمله إلى العراق قريباً، وتربط بين اسمه وبين أكبر انتصار لأكبر معركةٍ خاضها المسلمون فى وجه الجيوش الفارسية.

وبينما كان «أبو عبيد» فى طريقه إلى العراق، كانت ملكة فارس «بوران» تتنازل لـ«رُستم» قائد جيوشها عن الملك، لمدة عشر سنين إذا هو قاد جيوشها وصد المسلمين عن البلاد.

قبل «رستم» المهمة، وأرسل جيشاً ضخماً لمقاتلة «المثنى» فأرسل «المثنى» بدوره إلى «أبى عبيدٍ» أن ينجده ويلحق به فى مكان اسمه «خامان»، انتظاراً لملاقاة جيش الفرس.

وفى مكان يقع بين «الحيرة» و«القادسية» اسمه «النمارق» التقى الجيشان، جيش الفرس بقيادة «جابان» وجيش المسلمين بقيادة «أبى عبيد» و«المثنى» وانهزم الفرس، ووقع «جابان» أسيراً، ثم تتبع «أبو عبيد» فلول المنهزمين ومزَّقهم شر ممزق.

ثم حمل «المثنى» إلى «أبى عبيد» رجلين من زعماء مناطق العراق يريدان الصلح، فَقَدَّما له على سبيل الاسترضاء آنية فيها الطعام والشراب وهما يقولان: - هذه كرامة أكرمناك بها.

فقال لهما: هل أكرمتم الجند بمثلها؟

فقالا: لم يتيسر لنا ذلك، وسنفعل عندما تسنح الفرصة.

فقال لهما: لا حاجة لى بها، بئس المرء «أبو عبيد» إن صحب قوماً من بلادهم فاستأثر عليهم بشىء، لا والله لا آكل ما أتيتم به حتى يأكل مثله الجند.

جسر «أبى عبيد»

وعندما وصل الأمر بالفرس إلى هذه الهزائم المتتالية، عزم «رستم» على إخراج راية الفرس الكبرى المسماة عندهم «الدرفش - كابيان» لتكون حافزاً لِهِمَم الجنود، وهى مصنوعة من جلود النمور، وطولها اثنا عشر ذراعاً.

والتقى الجيشان عند ضفتى نهر «الفرات» وأرسل قائد الفرس إلى «أبى عبيد» يقول: إما أن تعبروا إلينا وإما أن تدعونا نعبر إليكم.

وأصر «أبو عبيد» على العبور إلى الضفة الأخرى، رغم معارضة بعض أركان حربه، وبعد أن أنشأ فوق النهر جِسْراً وعبره جنود المسلمين، أمر «أبو عبيد» بالجسر فقطع.

واصطدم الفريقان وحَمِىَ وطيسُ القتال، وكان يتقدم جيش الفرس فيل ضخم، يلوّح بخرطومه يميناً وشمالاً ويضرب الجنود، فيقعون ساقطين تحت أقدامه الضخمة صرعى.

وحاول «أبو عبيد» أن يتخلص من الفيل، فتقدم منه، وصوب رمحه إلى عينيه فأصابه فيها، فجن جنون الفيل، وثارت ثائرته، وأصابت إحدى ضرباته «أبا عبيد» فقضت عليه، وتضعضع جيش المسلمين، فبادر «المثنى» وأمر بعقد الجسر ثانيةً، ونجا بالمسلمين إلى الضفة الثانية..، وكانت الهزيمة أليمة شديدة، وصلت أنباؤها إلى المدينة، فاغتم لها الناس وحزنوا.

الأسد فى براثنه

واتجهت نية الخليفة «عمر بن الخطاب» ـ رضي الله عنه ـ أن يخرج بنفسه على رأس جيش لقتال الفرس، وندب الناس إلى ذلك وعسكر بالمسلمين على بعد فراسخ من المدينة فى ضاحية «الجرف»، يتهيأ للخروج إلى العراق.

ثم جاءه من ينصحه بالإقامة فى المدينة وبعث قائد مكانه.

ففكر فى من يختار لهذه المهمة، فقيل له بعد استشارات طويلة: «**سعد بن أبى وقاص**» ـ رضي الله عنه ـ فهتف «عمر»: **نعم، إنه الأسد فى براثنه.**

وأرسل إليه يستعجله العودة من ديار «هوازن».

فأقبل «سعد» ـ رضي الله عنه ـ مسرعاً، فكلفه «عمر» بالمهمة الشاقة، ووصاه وصيته المشهورة قائلا له:

ـ يا «سعد بن وهب»[1] لا يغرنك من الله أن قيل خال رسول الله ﷺ وصاحب رسول الله، فإن الله عز وجل لا يمحو الحسن بالسيئ، ولكن يمحو السيئ بالحسن، فإن الله ليس بينه وبين أحد نسب إلا طاعته، فالناس شريفهم ووضيعهم فى ذات الله سواء، الله ربهم وهم عباده، يتفاضلون بالعافية، ويدركون ما عنده بالطاعة، فانظر الأمر الذى رأيت النبى ﷺ عليه؛ منذ بعث إلى أن فارقنا فالزمه، فإنه الأمر، هذه عظتى إليك، إن تركتها ورغبت عنها حبط عملك وكنت من الخاسرين.

وصية أخرى

ولما تجهز «سعد» ـ رضي الله عنه ـ للخروج، وصاه «عمر» وصية أخرى، فقال له: إنى قد وليتك حرب العراق، فاحفظ وصيتى، فإنك تقدم على أمر شديد كريه لا يخلص منه إلا الحق، فعوّد نفسك ومن معك الخير واستفتح به واعلم أن لكل أمر عتاداً، فعتاد الخير الصبر على ما أصابك أو نابك، تجتمع لك خشية الله، واعلم

(١) وهب: أو «أهَيْب» والد «مالك» أبي وقّاص.

أن خشية الله تجتمع فى أمرين: طاعته، واجتناب معصيته، وإنما أطاعه من أطاعه ببغض الدنيا وحب الآخرة، وإنما عصاه من عصاه بحب الدنيا وبغض الآخرة، وللقلوب حقائق، ينشئها الله إنشاءً، فتعرف بظهور الحكمة فى قلبه على لسانه، وبمحبة الناس، فلا ترهب التحبيب فإن النبيين قد سألوا محبتهم، إن الله إذا أحب عبداً حببه إلى خلقه، فاعتبر منزلتك من الله بمنزلتك من الناس، واعلم أن مالك عند الله مثل ما للناس عندك.

فى القادسية

ووعى «سعد» - ﷺ - وصية أمير المؤمنين «عمر» - ﷺ - وسار بجيشه على بركة الله، وهو حريص كل الحرص على أن لا يقع فيما وقع فيه «أبو عُبَيْد» - رحمه الله - من تَهورٍ واندفاع، مَبْعثهما الحماس الزائد، والثقة بالنفس المبالغ فيها.

وحين وصل إلى القادسية أقام بها يتهيأ لملاقاة الفرس، الذين حشدوا قواتهم، والتى بلغ تعدادها مائة ألف.

ورأى «سعد» أن يرسل إلى «رستم» قائد الفرس ينذره بالإسلام أو الجزية أو القتال، وهذا أمْر طبيعى وأساسى، فلابد من عرض هذه الأمور على كل من يتصدّى لحرب المسلمين؛ فإن أسلموا فقد اهتدوا، وكفى الله المؤمنين القتال، وإن أرادوا الجزية، تركوا. . ؛ فكان لهم ما لنا وعليهم ما علينا ؛ وإن أبُوا إلا القتال. . فقد اختاروا الشرَّ الذى لابدَّ منه، وعلى الباغى تدور الدوائر.

وتألف وفد المسلمين إلى «رستم» من «النعمان بن مقرِّن» و«عمرو بن معدى كرب» و«عاصم بن عمرو» و«المغيرة بن شعبة».

لكن «رستم» رد الرسل رداً قبيحاً، وحملهم عِدلاً من تراب الأرض إمعاناً فى السخرية منهم وهزءاً بهم.

وعندما عاد الوفد إلى المعسكر وأخبروا «سعداً» بما كان، قال لهم:

- أبشروا، فقد و الله أعطاكم الله أقاليد مُلكِهم.

مَرَضُ «سَعْد» واستعد الفريقان للقتال..

لكن «سعداً» استفاق من نومه فى ليلته تلك على ألم شديد فى ساقه منعه من كل حركه، وآلمه أن لا يستطيع ركوب فرسه، فكان عليه - فقط - أن يرسم خطة المعركة، ويوجه الكتائب والفِرَق.

ثم أرسل «رستم» إلى «سعد» يقول:

- إما أن تعبروا إلينا، وإما أن نعبر إليكم. فأجاب «سعد»:

- بل اعبروا أنتم.

وقبل نشوب القتال وابتداء المعركة، أطل «سعد» على الجند قائلاً:

- إن الله - تعالى - هو الحق، لا شريك له فى الملك، وليس بقوله خلف، قال الله عز وجل ثناؤه:

﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ﴾ [سورة الأنبياء الآية: ١٠٥]. إن هذا ميراثكم وموعود ربكم، وقد جاءكم هذا الجمع وأنتم وجوه العرب وخيار كل قبيلة، فإن تزهدوا فى الدنيا وترغبوا فى الآخرة جمع الله لكم الدنيا والآخرة، ولا يقرب ذلك أحداً إلى أجله، وإن تقعدوا وتهنوا وتضعفوا، تذهب ريحكم وتقربوا آخرتكم...

ثم وجههم فقال:

- الزموا مواقفكم، لا تحركوا شيئاً حتى تُصَلُّوا الظُّهر، فإذا صليتم الظهر فإنى مُكَبِّر تكبيرة، فكبروا واستعدوا، واعلموا أن التكبير لم يُعْطَهُ أحدٌ غيركم، واعلموا أنما أعطيتموه تأييداً لكم.

ثم إذا سمعتم الثانية فَكَبِّروا وليتم عدتكم، فإذا وليتم عدتكم، فإذا كبرت الثالثة فكبروا ولينشط فرسانكم إلى الناس ليبرزوا وليطاردوا، فإذا كبرت الرابعة، فازحفوا جميعاً حتى تخالطوا عدوكم، وقولوا: لا حول ولا قوة إلا بالله العليّ العظيم.

التكبيرة الرابعة

ولما كانت التكبيرة الرابعة، كما خَطّط «سعد» - ﷺ - اشتبك الجيشان، والتحم الطرفان، وراحت الفيلة فى مقدمة جيش الفرس تضرب المسلمين بخراطيمها، وتزعزع صفوفهم، وتعيق تقدمهم، وكان «سعد» يراقب كل ذلك، فأرسل، إلى جماعة الرماة من المسلمين يطلب إليهم أن يصدوا الفيلة بسهامهم، ثم أمر جماعة آخرين أن يستدبروا من خلفها فيقطعوا أحزمتها. . . ، ففعلوا وسقطت الأكواخ بالجنود، واختلط حابل الفرس بنابلهم، وسقط فى أيديهم، وتضعضعت صفوفهم، وكان المساء قد أقبل، فحجز بين الفريقين.

وجاء المسلمين مدد من المدينة على رأسه «القعقاع بن عمرو» و«هاشم بن عتبة»، فَهَلَّلُوا لذلك وكبروا، وعمتهم الفرحة.

ولما كان صباح اليوم التالى، عاد الفريقان إلى الاشتباك، والمسلمون يحاذرون كل الحذر مما تعرضوا له بالأمس من خطر الفيلة، والتى أصبحت عقبة كئود أمام انتصارهم الساحق.

ورأى «سعد» - ﷺ - أنه لابد له من إزاحتها والقضاء عليها، فاستدعى إليه بعض الخبراء الذين أخبروه عن مقاتلتها، وأنها مشافرها وعيونها، فطلب إلى بعض فرسان المسلمين التعرض لها. . .

وما هى إلا فترة وجيزة حتى كانت تجرى مذعورة متألمة، وتتجه بسرعة هائلة منكفئة على نفسها إلى الوراء، فتفرق صفوف جيش الفرس، وتمزق جمعه، وتدوس بأقدامها الضخمة جنوده، وتزهق أرواحهم.

مَقتلُ «رُستم»

وحين أقبل الليل. . . ، كانت المعركة فى إبانها، وجيش المسلمين المؤيَّد من الله تعالى يمسك بزمام الموقف، واستمر الجند فى القتال والطعان.

ولمح أحد فرسان المسلمين واسمه «هلال بن علقمة» - بغلاً عليه حِمل،

فضربه بسيفه، فانكشف من تحته «رستم» مُـختبئاً فذعر «رستم» ذعراً شديداً والقى بنفسه فى مياه نهر الفرات..، فتتبعه «هلال» وسبح خلفه حتى ألقى عليه القبض وجره إلى خارج النهر، ثم ضربه بسيفه فارداه قتيلاً، ثم نادى فى الناس:

- إلىَّ إلىَّ...، قتلت «رستم» ورب الكعبة..، قتلت «رستم»..!

ولما سمـع الفرس بذلك دب الهلع إلى قلوبهم، وولـوا الأدبار؛ وصدق الله العظيم: ﴿ وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ [الروم: ٤٧].

﴿كَمْ تَرَكُوا مِن جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ﴾

وصلت أنباء النصـر المؤزر إلى المدينة، فَسُرَّ بهـا أمير المؤمنين «عمـر» سرو عظيماً، فحمد الله وأثنى عليه.

ثم بعث إلى «سعد» يأمره بالتوجه الى «المدائن».

ففـتحهـا، ولما دخل «سعـد» إيوان «كسرى» صلى بالناس، وإزاء ما رآه من عجب عجاب، قرأ فى صلاته قول الله تعالى: ﴿كَمْ تَرَكُوا مِن جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ۝ وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ۝ وَنَعْمَةٍ كَانُوا فِيهَا فَاكِهِينَ﴾ [الدخان: ٢٥-٢٧].

وانتقل «سعد» من «المدائن» إلى «الكوفة» والياً عليها، بأمر من الخليفة، «عمر بن الخطاب» - رضي الله عنه -.

لكن بعض الوشاة أبلغوا الخليفـة بأن «سعداً» لا يعدل فى الرعية!!! فأرسل «عمر» - رضي الله عنه - من يحـقق فى الأمر، وخرج «سعد» - رضي الله عنه - من التهـمة بريئاً، وهكذا شأن الصادقين؛ لكن «عمر» عَزل «سَعْداً».. رغم أنَّهُ قال عنه: **(تركتُه فى ولايتـه أكرم الناس مـقدرة وأقلهم قـسوةً، هو لهم كـالأم، يجمع لهم كـما تجـمع الذَّرة، أشدَّ الناس عند الباس، وأحب قريش إلى الناس).**

ولقد قال «عمر» فى ذلك: - إنى لم أعزْله عن عَجْز ولا خيانة.

ثم أعاده «عثمان» على ولاية الكوفة فى عَهده.

طلحة بن عُبيد الله رضي الله عنه

- كان «طلحة» رضي الله عنه من السابقين. (والسابقون السابقون. أولئك المقربون).
- وكان ممن فُتن في دينه. فما لان وما هان.
- كان شهيداً حياً يمشي على الأرض ، شهد له بذلك رسول الله ﷺ.
- كان حوارياً لرسول الله ﷺ.
- حمل رسول الله ﷺ على ظهره يوم «أحد» مرتين.
- وحمل من أحُد جراحات هي بمثابة الأوسمة تُزيّن صَدره، وكل أنحاء جسمه.
- كان يَوْمُ أحد يومه ، بشهادة الصديق له.
- وعُرف .. واشتهر .. بأنه: «صَقر أُحُد» ، حِدَة بصر ، وقُوَّة انقضاض ، وسرعة حركة !!.
- الشهيد المغدور ، الذي لم يُعرف قاتله ، يوم الجمل.
- الجوَّاد .. الخَيِّر .. الفيَّاض .. ، الذي كان يُثقله الدرهَم فيُنفقه في سبيل الله.

بسم الله الرحمن الرحيم

لقد اجتمعت فى شخصيَّة «طلحة بن عُبَيْدالله» - رضي الله عنه - صفاتٌ كثيرة متعدّدة، كُلٌّ منها كفيل وَحْدهُ أن يُؤهِّله ليكُونَ من رؤوس الصحابة ومقدِّميهم.

ولم تكن هذه الصفات كَسْبِيَّة جاءَتْهُ عن خِبرة وتجربة، أوْ تعلّمها..! لكنها كانت أصيلةً فى طَبْعة وفى كيانه، صَقَلَتها الأيام وهَذَّبَتْها.

وغَلَّفها الإسلام والإيمانُ جميعاً؛ كما كان حُبُّه لرسُول الله صلى الله عليه وسلم شاهداً عليها.

ولئن قُدر لـ«الزُّبَيْر بن العوام» - رضي الله عنه - أنْ يَنْعَتَهُ رسول الله «صلى الله عليه وسلم» بأنَّهُ حواريّهُ فى حديث خاص به، فإن «طَلْحَة» قد حاز هذا الشَّرَف العظيم - أيْضا - إذْ قَرَنَهُ النبيُّ «صلى الله عليه وسلم» فى حديث آخر مع «الزُّبَيْر»، بأنهما حواريّا رسول الله «صلى الله عليه وسلم».

وهذا القران له فى حياة «طَلْحَة» آمادٌ وأبْعاد؛ ودلائل ومعاني..!.

لقد عُذِّبَ «طَلْحَةُ» فى الله تعالى يَوْم أَسْلَمَ وآمن، عذاباً نُكْرا..

ثُمَّ شدَّ - ذات يَوْم - بحَبْلٍ هو و«الصِّدّيق» - رضي الله عنهما -؛ وعُرفا منذ ذلك اليوم بـ«القرينَيْن».

واستَمر هذا اللَّقب فى حياتهما إلى أنْ لقى كلٌّ منهما وَجْه الله تعالى، وانْتَقَل إلى جواره.

ولم يكن أحَدُهما لينسى ذلك أبداً..!.

ولم تَنْسَهُ الأجيالُ من بعدهما؛ فهُوَ فى أُمِّ الكُتُب، إلى أن تقوم الساعة.

«طلحة بن عبيدالله»..

أحد العشرة المبشرين بالجنة،

أحد الستة أصحاب الشورى.

ومن السابقين إلى الإسلام، من غير لَجْلَجَةٍ ولا تردُّد.

جاهد فـي الله حق جهاده، وذبَّ عن ديـن الله الحنيف، وافتـدى رسول الله ﷺ يوم «أُحُد» بحياته.

الملقَّبُ بـ«صَقْرِ أُحُد».

«طلحة» الجود والخير، والفيَّاض..

«طلحة» الذى شهد له رسول الله ﷺ بأنه الشهيد يمشى على الأرض.

قال عنه «أبو نعيم» فى «حلية الأولياء»:

(الجواد بنفسه، الفياض بماله: «طلحة بن عبيدالله»، قضى نحبه، وأقرض ربه.
كان فى الشدة والقلة لنفسه بذولاً، وفى الرخاء والسعة بماله وصولاً).

نسبه وكنيته

ينتسب «طلحة» إلى «تيم بن مرة»، لذا يقال: القرشىُّ التيمىّ.

و«بنو تيْم» هُم قبيلة «أبى بكر الصِّدِّيق» وقومه - رضي الله عنه - وهم بَطن من بطون قُرَيش، كانت لهم عصبيَّة.

و«طلحة» و«أبو بكر» من أرومةٍ واحدةٍ؛ وجَذْر نَسَبِىّ واحد.

هو: طلحة بن عبيدالله بن عثمان بن كعب بن سعد بن تيم بن مرة.

وأمه: الصَّعْـبَةُ بنت عبيد الله بن عـباد بن مالك بن ربيعـة الحضرمى؛ أخت «العلاء بن الحضرمى»؛ الأمير الشاعر الذى كانَ لَهُ - رضي الله عنه - جهادٌ فى «البحْرين»، لم يُسبـق إليْه؛ تبشـيراً بكلمـة الله؛ وحمْلاً للواء رسـول الله - ﷺ -؛ ويكنى «طلحة» بـ«أبى محمد» .

صفاتُه

كان - رضي الله عنه - أسمـر البشرة، غزير الشعـر، حاد الذكاء، ناقذ البـصر، حسن الوجه؛ إذا مشى أسرع، إلى القصر أقرب منه إلى الطول، رَحْب الصدر، عريض

المنكبين إذا التفت التفت جميعاً، ضخم القدمين.

ولقد ساعدته هذه الصفات الخِلْقِيَّة على احتمال المشاق، وكثرة الأسفار، وسرعة الانتقال.

إسلامه

ـ يحدثنا «طلحة»ـ رضي الله عنه ـ بنفسه عن إسلامه فيقول:

(حضرت سوق بصرى، فإذا راهب[1] فى صومعته يقول: سَلُوا أهل هذا الموسم أفيهم أحد من أهْل الحرم؟ قلت: نعم، أنا فقال: هل ظهر «أحمد»؟ فقلت: من أحمد؟ قال: ابن عبدالله بن عبد المطلب، هذا شهره الذى يظهر فيه، وهو آخر الأنبياء، ومخرجه من الحرم، ومهاجره إلى «يثرب».

فوقع فى قلبى ما قال، فخرجت سريعاً حتى قدمت إلى مكة، فقلت: هل كان من حدث؟ قالوا: نعم. «محمد» الأمين، تنبأ، وقد تبعه «ابن أبى قحافة».

فخرجت حتى دخلت على «أبى بكر» فقلت: اتَّبَعْتَ هذا الرجل؟ قال: نعم، فانْطَلِقْ إِلَيْه فَادْخُل عليه فاتْبَعْهُ، فإنه يدعو إلى الحق.

فأخبرته بما قال الراهب..).

فخرج «أبو بكر» ومعه «طلحة» فدخل به على رسول الله ﷺ، فأسلم «طلحة»ـ رضي الله عنه ـ وأخبر رسول الله ﷺ بما قال الراهب، فسر النَّبى بذلك سروراً عظيماً.

فى أتون الفتنة

يروى أنه لما أسلم«طلحة، أخذ «نوفل بن خويلد»[2] «أبا بكر» و«طلحة» فشدَّهما فى حبل واحد، يعذبهما، ولم يمنعهما قومهما «بنو تيم».

---

(١) لعله الراهب «بحيرا» ؛ نفس الراهب الذي التقى «أبا طالب» وكان رسول الله ﷺ غلاماً بصُحبة عمّه، وقد اطّلع على خاتم النبوّة بين كتفى رسول الله ﷺ، ثم أوصى «أبا طالب» بالحِرْص على ابن أخيه من اليهود.

(٢) عمُّ الزبير بن العوّام، الذى عذبه على الإسلام.

فقـد كانت القبـائل آنذاك شديدة التمسـُّك بما هى عليْه من جاهليَّـة ووثنيَّة، تخـشى أنْ توصف بالتخلّى عن دين الآباء والأجْـداد، فذلك سُـبَّة الدَّهْـر وعار الأيّام.

ومن هنا ـ عزيزى القارىء ـ عرفا بلقب «القرينيْن».

وقد صبرا وصابرا، حتى أنقذهما الله تعالى من العنت والفتنة.

إذ يئس «نَوْفل» الذى كـان يعذِّبهمـا مِنْ عَوْدتهـما عمّـا هُما عليـه من اتباعٍ لرسول الله ﷺ، فتركهما وشأنهما

ولقد ثبت أن «أم طلحة» قد عذبته هى أيضاً وآذته.

يروى عن «مسعود بن خراش» ـ رضي الله عنه ـ أنه قال:

[بينما نحن نطـوف بين الصفا والمروة، إذا أناس كـثير يتبـعون شاباً مـوثقاًفى عنقه، قلت: ما شـأنه؟ قالوا: هذا «طَلْحَةُ بن عُبَيْدالله» صَـبَأَ، وأمه وراءه تُدَمْدِمُ وتَسبُّه، قلت: من هذه؟ قالوا: «الصَّعْبَةُ بنت الحضرمَى» أمّه].

هجرته

وكانت هجرة «طلحة» ـ رضي الله عنه ـ مع آل «أبى بكر»، ولقد تحمل من جفاء أهل مكة الأذى ووعثاء الطريق ما تحمل.

ويبدو أن تأخُّر هِجْرتِهِ كانَ مَقْصُوداً.

وهذا التأخر فيه دلالتان، أولاهما: أنَّه بما عُرِفَ عنه من صلابَة وقُوَّة احتمال وشجاعة فى المواجهة، جعلتْهُ فى مقام التحدّى لغَطْرسة قريش؛ وثانيهما: أنَّه كان موضع ثِقَة «أبى بكر» ـ رضي الله عنه ـ؛ كىْ يحمل لَهُ أَهْله من «مكة» إلى «يثرب»، لمعرفته بالطريق من خلال كثرة أسفاره، وأمانته..!

ولم تكن الهجرة ـ على العمـوم ـ نزهة سياحية، أو سفراً تقـصد به التجارة وكسب المال، إنما كانت فى سبيل الله، وإعلاء لكلمته.

وصل «طلحة» إلى المدينة، وكان قد سبقه إليها الكثيرون، وعلى رأسهم رسول الله ﷺ و«أبو بكر» ـ رضي الله عنه ـ فنزل ضيفاً على «أسعد بن زرارة».

المؤاخاة

عندما آخى النبى ﷺ بين المسلمين: (المهاجرين والأنصار)، كان نصيب «طلحة» أخوةً «كعب بن مالك» الأنصارى الشاعر ـ رضي الله عنه ـ؛ وقيل: بل بين «طلحة» و«سعيد بن زيد بن عمرو بن نفيل» أحد العشرة المبشرين بالجنة.

ونَحْن نميلُ إلى الرأى الأوّل، إذ كانت المؤاخاة بصفة عامة ـ وكمبدأ، بَين المهاجرين والأنصار، والهدف منها كما هُو معلوم ومشهور: توثيق الصِّلة بَيْن جناحى الإسلام فى ذلك الحين؛ والله تعالى أعلم.

ولقد زادت هذه المؤاخاة فى الترابط والتعاون بين المسلمين فى صدر الإسلام، فكان الأخُ يتنازل لأخيه عن شطر ما يملك، وعن نصف ما يزرع، أو عن قسم فى الدار التى يملكها.

أولى المهام

كانت قوافل التجارة متّصلة بين الحجاز والشام، فكانوا يأخذون البضاعة من هنا لتباع هناك، والعكس بالعكس.

وكانوا عن طريق التجارة يتحسسون الأخبار مع بعد الديار.

وكان أهل «مكة» يضعون فى هذه التجارة كثيراً من أموالهم وأرواحهم، فكانت هذه الرحلة تمثل قوة الاقتصاد المكّىّ.

ولقد بغى الطغاة كما تعلم فى «مكة» على المسلمين، فأخرجوهم من ديارهم، وصادروا أموالهم وتملكوا بالتسلط مساكنهم، بغياً وعدواناً بغير حق.

ولقد وصل إلى عِلْم رسول الله ﷺ ذات يوم أن قافلة هامة من قوافل أهل «مكة» تمر قريباً من المدينة، فأراد أن يتيقن من ذلك، فانتدب لهذه المهمة العاجلة «طلحة بن عبيدالله» ومعه «سعيد بن زيد» لينظرا هذه القافلة عند «الرّوْحاء».

وقام «طلحة» و«سعيد» - رضي الله عنهما - بهذه المهمة خير قيام، وكانا عينين نافذتين للإسلام.

ومن المعلوم أن مراقبة الطرق فى الصحراء تحتاج إلى يقظة تامة، وصبر طويل، وسهر ودأب.

فلما بلغا المكان المقصود، وعرفا أن القافلة قد تحركت، عادا على جناح السرعة إلى المدينة، ليخبرا النَّبى ﷺ، ويبلغاه بكل صغيرة وكبيرة تتعلق بالموضوع.

ولكن رسول الله ﷺ كان قد خرج بالمسلمين فعلاً وعسكر عند «بَدْر» . . ،سمع «طلحة» بالخبر، فلم يسترح من عناء السفر، بل ذهب مع صاحبه «سعيد» إلى «بدر» ليلاقيا رسول الله هناك.

لكن المعركة كانت قد وقعت، وانهزمت «قريش» وعاد رسول الله ﷺ إلى المدينة، تحفه عناية الله تعالى، وفى الطريق قابله «طلحة» و«سعيد»، فأسفا لفوات حظهما من الجهاد فى أول معركة يتقابل فيها الإيمان مع الكفر، وكان «طلحة» - رضي الله عنه - شديد الأسى، وأبدى ما فى نفسه لرسول الله ﷺ، فطمأنه النبىُّ ﷺ وصاحبه «سعيدًا» وأسهم لهما، وكأنهما كانا حاضرين.

إذ كان خُروجهما - أوّلاً - بناءً على أمْر من رسول الله ﷺ، ويتعلَّق بصميم الموضوع؛ فهو أيْضاً جهاد فى سبيل الله .

ولا يغيب عن الذِّهْن أنَّ رسول الله ﷺ قد أَسْهَم لـ«عُثمان» الذى لازم زوجه «رقية» يُمرِّضها، وكأنه - رضي الله عنه - قد حَضَرَ القتال. . !

صقر «أحد»

وكان «طلحة بن عبيدالله» - رضي الله عنه - من النفر القلائل الذين ثبتوا مع رسول الله ﷺ يوم «أُحُد».

لقد كانت الجولة الأولى للمسلمين، ثم غَرَّ الرماة ماامتلأت به أرض المعركة

من مغانم وأسلاب، فتركوا أماكنهم وخالفوا أمر رسول الله ﷺ فدارت الدائرة على المسلمين، ووقع الكثيرون منهم شهداء، على رأسهم «حمزة بن عبد المطلب» و«مصعب بن عمير» حامل اللواء، وغيرهم كثيرون، قاربُوا السبعين شهيداً.

وثبت رسول الله ﷺ، والتفّ حوله بعض أبطال المسلمين، منهم «طلحة» ـ رضي الله عنه ـ ودافع عن رسول الله ﷺ دفاعاً مجيداً.

وتحدثنا حول هذا الموضوع ابنتيْ «طلحة» فتقولان: (جرِحَ أبونا يوم «أحد»، أربعة وعشرين جرحاً، وشُلَّت إصبعه، وصارت الجراح فى سائر جسمه، ورسول الله ﷺ مكسورةٌ رباعتيه، مشجوج فى وجهه، قد علاه الغشى و«طلحة» يحتمله يرجع به القهقرى، كلما أدركه أحد من المشركين قتل دونه، حتى أسنده إلى الشّعْب).

ولعلّك ـ عزيزى القارىء ـ تُدْرِك إلى أىّ مدىً تعنى كلمة: (يَحْتَمِلُه)!!.

صحيحٌ أنَّ بَدَنَهُ الشريف قد ثَقُل وَزْناً آنذاك، ولكنَّ «طلحة» احتْملهُ ولم يجد عبئاً، بل عظم شَرَفاً.

وكذلك عندما وطئ له ظهرهُ، وَرَفَعه من الحُفْرة التى عثر فيها.! وذلك فيه ما فيه من قوة احتمال.

وتحدثنا السيدة «عائشة» أم المؤمنين ـ رضي الله عنها ـ فتقول:

(كان «أبو بكر» إذا ذكر يوم «أحد» قال: ـ ذلك كله يوم «طلحة»).

ويقول «أبو بكر» ـ رضي الله عنه ـ:

(كنت أول من جاء إلى رسول الله «ﷺ» يوم أحد فقال لى و«لأبى عبيدة»

ـ عليكُما صاحِبكُما. . ـ يريد «طَلْحة»؛ وقد نَزَف. .

فأصلحنا من شأن النبى ﷺ، ثم أتينا «طلحة» فى بعض تلك الحفار، فإذا به بضع وسبعون، أو أقل أو أكثر، بين طعنة ورمية وضربة، وإذا قد قُطعَت

إصبعيه، فأصلحنا من شأنه).

وعن «عبدالله بن الزبير» عن أبيه قال:

[كان على رسول الله ﷺ يوم «أحد» دِرْعان، فذهب لينهض على صخرة فلم يستطع، فبرك «طلحة بن عبيدالله» تحته، وصعد رسول الله ﷺ على ظهره؛ حتى صعد على الصخرة.

قال «الزُّبير»: فسمعت رسول الله - ﷺ - يقول: «أَوْجبَ «طَلْحَة»[1]].

لقد كانت البشرى بالجنَّة، من رسول الله ﷺ فى حقِّ «طلحة» - رضي الله عنه - تترى وتتتابع، وفى أكثر من مناسبة؛ حتى جَمَعَه الحديث الشريف مَعَ تسعةٍ من كرام الصحابة - رضوان الله عليهم أجْمعين -.

وعن «أبى سعيد الخدرى» - رضي الله عنه - يقول:

[إن «عتبة بن أبى وقاص[2]» رمى رسول الله ﷺ يوم أُحُد فكسرت رباعيَّته اليمنى وجرحت شفته السفلى]؛ وأن «عبد الله بن شهاب الزهرى» قال: [شَجَّه في جبْهته، وأن «ابن قميئة» جرح وجنته فدخلت حلقتان من حلق الدرع[3] فى وجنته.

ووقع رسول الله ﷺ فى حفرة من الحفر، فأخذ «علّى» بيده رضي الله عنه ورفعه «طلحة بن عبيدالله» حتى استوى قائماً].

اللهم اشفِهِ وقوِّهِ

وعن «أبى هريرة» - رضي الله عنه - قال:

[إن طلحة لما جُرِح يوم «أُحُد» مَسَحَ رسول الله ﷺ - بيده الكريمة - على جسده وهو يقول: - اللهم اشفهِ وقوِّه.

(١) اوجب : اى وجبت له الجنة بما فعل .

(٢) كان مشركاً فى صفوف قريش ، وهو اخُو « سعد » رضى الله عنه .

(٣) وفي رواية : حلقتان من المغفَر ؛ وهو ماكان يتدلى من الخوذة من حلقات حديدية تُغَطى الوجه وتحميه عند القتال من ضربات السُّيوف .

فقام «طلحة» صحيحاً، ورجع إلى العـدة يستأنف أعمال الحرب، ما استطاع إلى ذلك سبيل].

الشهيد الحي!!

وإذا كان الصحابى الجليـل «طلحة بن عبيدالله» لم تدركه الشـهادة على عهد رسول الله ﷺ لكن الرسول الأكرم ﷺ بَشَّره بالشهادة وهو على قيد الحياة؛ وصَدَق رسُول الله ﷺ .

فـعن السيـدة «عائشـة» ـ رضي الله عنها ـ قـالت: [إنى لفى بيتى ورسـول الله ﷺ وأصحـابه فى الفناء، وبينى وبينهم الستر، إذ أقبل «طلحة بن عـبيدالله»؛ فـقال رسول الله ﷺ :

ـ «من سَرَّهُ أن ينظر إلى رجل يمشى على الأرض وقد قـضى نَحْبَهُ فلينظر إلى «طَلحة»].

وفى رواية: [«من سره أن ينظر إلى شهيد يمشى على وجه الأرض فلينظر إلى «طلحة بن عبيدالله»].

حواريّ رسول الله ﷺ

وعن «زيد بن أبى أوفى» [أن النبىَّ ﷺ قال لـ«طلحة» و«الزبير»:

ـ «أنتما حوارىَّ كحوارىَ عيسى بن مريم»].

وعن «على» ـ رضي الله عنه ـ قال: [قـال رسول الله ﷺ لـ«طلحة بن عبـيدالله»: «أنتَ سِلفي[1] فى الدُّنيا وسلفى فى الآخرة»].

وذلك أن «طلحة» ـ رضي الله عنه ـ تزوج «حَمْنَة بنت جحش» أخت السيدة «زينب» أم المؤمنين ـ رضي الله عنها ـ؛ وأمهما «أميمة بنت عبد المطلب» عَمَّةُ رسول الله ﷺ .

(١) يُقال: تسالف الرَّجلان: إذا أخذ ـ (تزوَّج) ـ كل منهما اخت زوجة الآخر، فهما سِلفان.

كرمه وسخاؤه

(طلحة الخير)

كان «طلحـة» - رضي الله عنه - بطبعه قـد جُبِلَ على الكرم والجـود والسخاء وكـثرة العطاء، وصلة الرحم، وله في ذلك مواقف مشهودة، رواها عنه الكثيرون، منها:

[عن «طلحة»- رضي الله عنه - قال: **سماني رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم «أحد»: «طلحة الخير»**.

وفي غزوة «العشيرة» **«طلحة الفياض»**، ويوم «حنين»: **«طلحة الجود»**].

وعن «موسى بن طلحـة» قال: [نحر «طلحـة» جزوراً، وحفـر بئراً يوم «ذي قرد» فأطعم المسلمين وسقاهم.

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: - **«يا «طلحة» أنت الفيَّاض»**.

فَسُمِّيَ: «طَلْحَةَ الفياض»].

وعن «سعـدى بنت عوف» زوجة «طلحة» قـالت: لقد تصدق «طلحـة» يوماً بمائة ألف، وقالت أيضا:

دخلتُ على «طلحة» يوما فـرأيته مغمومـاً مهموماً فقلت: مـا شأنك؟ قال: المال الذي عندي قـد كثر فـأكربني!! فـقلت: وما عليك..، أنفـقه على فـقراء المسلمين. فأنفقه ووزعه حتى ما بقي منه درهم.

قال «طلحة بن يحيى بن طلحـة»: قلت لخازن «طَلْحة»: كم كان المال؟ قال: أربعمائة ألف).

وعن «جابر بن عبدالله»- رضي الله عنه - قال: صَحِبْت «طلحة» فما رأيت رجلاً أعطى من جزيل مال عن غير ماله فيه.

الخطيب المفوّه..

كان «طلحة بن عبيدالله» فصيحاً بليغاً..، خطيباً مفوَّهاً.

فعن «ابن مسعود»- رضي الله عنه -:

(أن «عـمـر بن الخطاب» ـ رضي الله عنه ـ شـاور الناس فى الزحف إلى قتـال ملوك فارس التى اجتمعت بـ«نهاوند».

فقام «طلحة بن عبيدالله» ـ وكان من خطباء الصحابة ـ فتشهَّد ثم قال:

ـ أما بعد ـ يا أميـر المؤمنين ـ فقد أَحْكَمَتـك الأمـور، وعَجَـمَتك البلايـا، واحْتَنَكَتْكَ التجارب، فأنت وشأنك، وأنت ورأيك، إليك هذا الأمر.

فَـمُرْنا نُطِع، وادْعُنا نُجِبْ، واحْـمِلْنا نَرْكَب، وقُـدْنا نَنْقَد، فـإنك ولِىُّ هذه الأمور، وقد بلوت واختبرت، فلم ينكشف لك عن شىء من عواقب قضاء الله ـ عز وجل ـ إلا عن خيار ثم جلس).

فى حروب الردة

لما انتـقل رسول الله ﷺ إلى الرفـيق الأعلى، ارتد كثـير من العـرب عن الإسلام، فـوقف «أبو بكر» ـ رضي الله عنه ـ فى وجهـهم، وأقسم على قـتالهم، وحين وصلت بعض هذه القبائل إلى مشارف المدينة كان «طلحة» مع «على» و«الزبير بن العوام» ـ رضي الله عنهم ـ فى مقدمة المقاتلين لهؤلاء المرتدين.

فلقد كان هؤلاء الثلاثة ـ رضي الله عنهم ـ هم أركان حَـرْب «أبى بكر» فى الحامية التى أقامت فى «المدينة» دفاعاً عن بيْضة الإسلام، وحمى رسول الله ﷺ ضدَّ القبائل التى تحرَّكت نحوها.

أحد الستة أصحاب الشورى

كان «طلحة» ـ رضي الله عنه ـ كما رأينا وقرأنا يتمتع بتقدير كبير فى نفوس الصحابة أجمعين .

فعندما طُعِنَ «عـمر» ـ رضي الله عنه ـ طُلِبَ منه اختيار خليـفة، لكنه لم يسم واحداً بعينه، بل سمـى ستة من كبار الصـحابة ليختاروا من بينهـم من يرتضونه، وكان «طلحة» ـ رضي الله عنه ـ و احداً من هؤلاء السـتة ـ مع أنه كان آنـذاك خارج المدينة فى سَفَرٍ.

وقد قـال «عمر»ـ رضي الله عنه ـ: إذا أنا مِتُّ فـتشاوروا ثلاثـة أيام، ولا يأتين اليوم الرابع إلا وعليكم أمـير منكم، ويحـضر «عبـدالله بن عـمر» مشـيراً، و«طَلْـحَة» شريككم فى الأمْر.

الشهيد المغدور يوم الجمل

عرفت ـ عـزيزى القـارئ ـ خروج «طلحـة» و«الزبيـر» إلى «البـصـرة» مع «عائشة»ـ رضي الله عنها ـ وأنهم أعلنوا نقض بيعتهم لـ«على»، لأنه لـم يقتص لـ«عثمان» من قتلته.

وفى يومٍ من أيام معركة الجمل، وقبل احـتدام القتال، أصيب «طَلْحَة»ـ رضي الله عنه ـ بِسَهْم لم يُعْرف مصدره، مما ألهب المشاعر وزكى الفتنة.

ونزف «طَلْحَةُ» حتى قضى؛ ولقى وجه ربه شهيداً مَغْدُوراً.

ولقد حزن «على»ـ كرم الله وجهه ـ لاستشـهاد «طلحة»، رغم اختلافهما فى الرأى، وكان مما قال:

(أرجو الله تعالى أن أكون أنا و«عثمـان» و«طلحة» و«الزبير» من الذين قال الله تعـالى فـيـهم: ﴿ وَنَزَعْنَا مَـا فِي صُـدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ إِخْـوَانًا عَلَىٰ سُـرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ ﴾).

وكان «طلحة»ـ رضي الله عنه ـ قد بلغ الستين من عمره، أو يزيد قليلاً.

رضى الله عن «طلحة بن عُبَيْدالله»: «صَقر أُحُـد»، و«طلحة الجود والخـير والفَيّاض» وحواريٍّ رسول الله صلى الله عليه وسلم؛ وأكـرم نزله ومثواه، وجـزاه أعظم الجزاء وأوفاه.

* * *

سعيد بن زيد رضي الله عنه

- لأن لم يُقدَّر لـ "سعيد" رضي الله عنه أن تكون حياته حافلة بالأحداث والحركة و (ذلك تقدير العزيز العليم)، فإن فيها معالم بارزة تستوقف النفسِ والعقل للتأمل والتدبُّر.
- لقد كان على منهج أبيه في التَحَنُّث والتحنُّف.
- وكان الإشعار بإسلام عمر بن الخطاب رضي الله عنه في بيته.
- وكان في الصف الأول وراء رسول الله ﷺ في الصلاة وفي المعارك.
- وكان رضي الله عنه من رجال الفتح في الشام رغم أنه لم يتول القيادة.
- وكان أول والٍ على دمشق.
- لكنه آثر ميدان المعارك على كرسي الإمارة والولاية، لأن الأولى تُورِثُ الدَعة، والأخرى تبعث الحيوية والقرب من الله تعالى.
- كان من أكثر الصحابة تأثراً بالفتنة، وعُزوفا عنها، التزاما بأمر الله، خصوصاً وقد صُمَّت الآذان ..!
- رحم الله "سعيدا" رضي الله عنه ، وهنيئاً له الجنة وبشراها.

بسم الله الرحمن الرحيم

لقد تأثَّرت شخصيَّة «سعيد» ـ رضي الله عنه ـ بشخصية أبيه «زيد بن عمرو بن نفيل» تأثراً بالغاً؛ إذْ فَتَح عينيه على رَجُلٍ متحنّف، ينأى بأخلاقياته وسلوكه عن أعراف القوْم ومألوفهم وجاهليَّتهم..!

فلمّا جاءَ الإسلام، وبُعِثَ «محمد بن عبدالله» ـ صلى الله عليه وسلم ـ بالحنيفيَّة، كان «سعيد» ـ ممَّن بادروا وسَبَقُوا؛ فقد وجد فى الدين الجديد وصاحبِه ضالَّتهُ المنشودة، وتلبَّس بذلك تلبُّسًا كاملاً، استحْوذَ على عقله ومشاعِرِه.

وزادهُ كُلُّ ذلك بُعْداً ومواجهة..!

بُعْداً عن الأوثان والأصنام، وما يستتْبع ذلك من استغراقٍ فى الآثام والفواحش.

ومواجهة عنيفة قاسية، مريرة شديدة، مع رؤوس قريشٍ ـ أقطاب الجاهلية ـ فَتَعرَّض للبلاء والأذى والفتنة.

ولكن أنّى لهذا كُلّه أنْ يجعل «سعيداً» يَسْتَسْلم. لقد كان أشَدَّ من الجبال الرواسى صلابةً ورسُوخاً، وأعظم منها رفعةً وشُموخاً.

وفضلاً عن ذلك كُلّه.. انَّ الدُّنيا بكُلِّ ما فيها من زُخرفٍ ومتاع، كانت عِنْدَهُ لا تُساوى جناح بَعُوضة.

فمالَ وحَنَفَ إلى الزُّهْد..

وهذا ـ عزيزى القارئ ـ أعْظَمُ سماتٍ ومعالم شخصيَّة «سعيد» ـ رضي الله عنه ـ.

(سعيد بن زيد) نسبُه ونشأته

(السعيد بن السعيد)

قيل عن «سعيد بن زيد» ـ رضي الله عنه ـ أنه: السعيد بن السعيد، والطيب ابن الطيب، والصالح ابن الصالح.

فقد كان والده «زيد بن عمرو بن نفيل» من الحنفاء الذين اجتنبوا الرجس من

الأوثان واجتنبوا قول الزور، ولم يشركوا بالله شيئاً.

وكان هؤلاء طبقة مرموقة فى مجتمع «قريش»، منهم - إلى جانب - «زيد» - «ورقة بن نَوْفل» -، ابن عمّ «خديجة» - أم المؤمنين - رضي الله عنها - وغيره.

إلا أن «ورقة» تَنَصَّر، وبقيِ «زيْد» يبحث عن الحقيقة، وساح فى الدُّنيا سعْياً وراء ذلك، ومات ولم يُدْرك الإسلام؛.

وعاش هؤلاء الحنفاء زمن الجاهلية، وكانوا يبحثون عن التوحيد الصادق، والعبادة المبرأة، وسط ركام من الشهوات، وزحام من مكفرات الجاهلية، تنوعت وتركزت فى المجتمعات التي سبقت سيدنا «محمداً» صلى الله عليه وسلم.

وفى تصوير هذا الوجدان الصادق، كان «زيد» والد «سعيد» ينشد:

وأَسْلَمْتُ وَجْهِي لمن أَسْلَمَتْ ... لَهُ الْحَزْنُ يحمل عَذْباً زُلالا
إذا سُقِيَتْ بلدة منْ بلاد ... سيقَتْ إليها فَسَحَّت سجالا
وأسلَمْتُ وجهي لمنْ أَسلَمَتْ ... لَهُ الأَرْضَ تَحْمِل صَخْراً ثقالا
دحاها فلما اسْتَوَتْ شَدَّها ... سواءً وأرسى عَلَيْها الجبالا

ألا ترى معى فى معاني هذه الأبيات ومدلولاتها أن نظرة التكوين فى الإنسان السويّ، لابُدَّ وأنْ تردَّهُ إلى الحقيقة من غير زيفٍ ولا بُطلان.! وهكذا كان توجُّه «زيد»؛ ولكنَّ أكثر الناس لا يعلمون!!.

عاش «زيد بن عمرو نفيل» على دين خليل الله «إبراهيم» - عليه السلام - فكان لا يأكل من الذبائح التى لا يذكر عليها اسم الله، وكان يقول للمشركين الذين يأكلونها:

(الشاة خلقها الله، وأنزل لها الماء من السماء، وأنبت لها الكلأ من الأرض، ثم تذبحوها على غير اسم الله !! أنا لا آكل إلا مما ذكر اسم الله عليه).

وتحدثنا السيدة «أسماء بنت أبى بكر» - رضي الله عنها - فتقول:

- لقد رأيت «زيد بن عمرو بن نفيل» قائماً مسنداً ظهره إلى الكعبة، يقول: - يا معشر قريش، والله ما فيكم أحد على دين «إبراهيم» غيرى.

وكان «زيد» إذا رأى أحداً من الجاهليين يؤذى ابنته، إذ يحاول وأدها، منعه من ذلك، وقال له:

- أُكْفُفْ عن هذا الفعل القبيح، وأنا أكفيك مؤونتها لو شئت!.

وكان ينهى الناس فى الجاهلية عن الفحشاء والمنكر، ويقول:

- يا معشر قريش، إياكم والزنى فإنه يورث الفقر.

ولقد تشرف «زيد» برؤية النبى ﷺ، وعاصره فترة من الزمن، ولكنه مات قبل البعثة فكان رسول الله ﷺ يستغفر له ويقول:

[- يُبْعَثُ «زيد بن عمرو» أُمَّةً وحده].

ولقد رثاه «ورقة بن نوفل» بعد موته، فقال:

رشدت وأَنْعَمت«ابن عمرو» وَإنما تجنبت تَنُّوراً من النَّار حاميا
بدينكَ ربّاً لَيْس رَبٌّ كَمِثْله وتَرْكَك أوثان الطَّواغى كما هيا
وَإِدْراكك الدِّين الذى قدْ طَلَبْتَهُ ولم تَكُ عَنْ تَوْحيدِ ربِّك ساهيا

سعيد..

مِنْ هذا العنصر الصالح وُلد «سعيد»- رضي الله عنه- وكانت أمه من «خزاعة» واسمها «فاطمة بنت بَعْجَة بن مليح»- الخزاعية.

و«سعيد» و«عمر بن الخطاب» - رضي الله عنهما - ابْنى عم، فقد كان «زيد بن عمر»و«الخطاب» ينتميان إلى «نوْفل» رأس الأسرة ونشأ «سعيد» فى بيت العبادة والتوحيد والطهر، متأثراً بمنهج الأب، فكان عفيفاً طاهراً، متحلياً بكريم الأخلاق، ونبيل الصفات.

إسلامه

في ذات يوم. . ، سمع «سعيد بن زيد» بنبأ نُبُوَّةِ «محمد بن عبدالله» ـ ﷺ ـ الذى أرسله الله تعالى للناس شاهداً ومبشيراً ونذيرا، وداعياً إلى الله بإذنه وسراجاً منيراً. . !

فأسرع إليه، وكأنه كان ينتظر النبأ العظيم، ونظر فى وجهه الشريف ﷺ، فانعكس نور النبوة المشرق على صفحة فؤاد «سعيد»، فكان ـ سعيداً ـ حقاً. فأسلم وأناب.

ثم هرول إلى الدار، حيث زوجته «فاطمة بنت الخطاب بن نفيل» ـ أخت «عمر» ـ رضي الله عنه ـ، وعرض عليها الإسلام الذى حمله من «محمد» الأمين ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ فانشرح صدرها ولبت الدعوة إلى الله، وأعلنت إسلامها.

وكان ما كان من إسلام «عمر» بعد ذلك، والسبب ـ كما سبق وعرفنا ـ هو إسلام «سعيد» و «فاطمة» وغضبة «عمر»، ثم تطامن كبريائه أمام كلمات الله تعالى التى قرأها فى بيت أخته وصهره.

وكانت الآيات فى الصحيفة، صَدْر سورة (طه). وصدق الله العظيم إذ يقول:

﴿ لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا الْقُرْآنَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ اللَّهِ . . ﴾. فما بالُك بِقَلْب إنسان «كقلب عمر بن الخطاب»!!؟.

صفته وهجرته

قال «الواقديّ» يَصِفُ «سعيداً» ـ رضي الله عنه ـ:

كان «سعيد» ـ رضي الله عنه ـ رجلاً آدم ـ أى: أسمر البشرة، طويلاً أشْعر ـ أى: غزير الشعر، وقد هاجر ـ رضي الله عنه ـ مع زوجته «فاطمة بنت الخطاب» إلى المدينة المنورة مع من هاجر من المسلمين، وفيها نزلا ضَيْفين على «رفاعة بن عبدالمنذر».

وهناك بدأ «سعيد» - رضي الله عنه - حياة جديدة مع إخوانه المؤمنين المتراحمين المتعاونين، والسابقين الأولين من المهاجرين والأنصار، الذين رضي الله عنهم ورضوا عنه -.

المتعلم المجاهد

كان «سعيد» - رضي الله عنه - لَبِنَةً هامة من لبنات المجتمع الإسلامى، إذ كان حركة دائبة مستمرة، لا يهدأ، ولا تعرف الراحة إليه سبيلاً.

فكنت تراه بشوشاً إذا غدا، باسم الثغر إذا بدا، يجلس إلى رسول الله ﷺ، ويستمع منه، ويعى عنه.

حريصا على الجماعة مع رسول الله ﷺ[1]، ملتزماً بأخلاق الإسلام، فى جميع تصرفاته وأحواله، ونموذجاً رفيعاً للمسلم فى بيعه وشرائه، وسماته وصفاته، وأخذه وعطائه.

لذا، كان لسعيد - رضي الله عنه - منزلة سامية ودرجة رفيعة عند رسول الله ﷺ .

شهادة النبى - ﷺ - له بالجنة

عن «عبد الرحمن بن عوف» - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله ﷺ :

{أبو بكر فى الجنة، و«عمر» فى الجنة، و«عثمان» فى الجنة، و«على» فى الجنة، و«طلحة» فى الجنة، و«الزبير» فى الجنة، و«سعيد بن زيد» فى الجنة، و«أبو عبيدة» فى الجنة، و«سعد بن مالك[2]» فى الجنة، و«عبد الرحمن بن عوف» فى الجنة} .

وهذا الحديث، هُو الذى استُند إليْه فى تِعْداد العشرة المبشرين بالجنة.

وقد رواه «الترمذى» فى سُنَنِه، وحسَّنه.

---

(١) روى «سعيد بن حبيب» قال: (كان مقامُ: أبى بكر وعمر وعثمان وعلي وسعد وسعيد، وطلحة والزبير وعبد الرحمن بن عوف، مع النبي ﷺ واحداً، كانوا امامه في القتال، وخلفه في الصلاة) أخرجه البخارى ومسلم.

(٢) مالك بن وهب أو «اهيب» كما جاء فى بعض الروايات.

وروى سعيد - رضي الله عنه - فقال: [كان النبى ﷺ على جبل «حراء»، فتحرك الجبل، فقال له رسول الله ﷺ :اثبت «حراء» فما عليك إلا نبى أو صديق أو شهيد].

وكان على الجبل مع النبى ﷺ «أبو بكر» و«عمر» و«عثمان» و«على» و«سعد بن مالك» و«طلحة» و«الزبير» و«عبد الرحمن بن عوف»و. . . «سعيد بن زيد»- رضي الله عنهم -.

جهاده

شهد «سعيد بن زيد»- رضي الله عنه- كل المشاهد مع رسول الله ﷺ ، ولم يتغيب عن واحدة منها، إلا ما كان من غيابه - رضي الله عنه - يوم «بدر»، وذلك أنه كان فى مهمة هو و«طلحة بن عبيدالله». ؛ وقيل: إنَّه كان فى تجارة له إلى الشام.

ولقد آلمهما أن لايشهدا قتال المشركين، وأحزنهما ذلك، فطيب النبىُّ ﷺ خاطرهما، وأسهم لهما، واعتبرهما فى جملة الحضور.

ولئن لم يؤثر عن «سعيد» أنه تسلم قيادة على مدى عمره، وجهاده فى سبيل الله، فإن مرجع ذلك إلى زهده - رضي الله عنه- فى المنصب، أياً كان هذا المنصب! وإلا فإنَه أهْل وكفؤ؛ فقد اشتهر عَنْه بأنه كان فارساً مقاتلاً شجاعاً، مُتْقِناً لفُنُون الحرب.

وكان مِمن شهدوا معركة «اليرموك» وفَتْح «دِمَشْق»؛ وقد أبْلى فى كلٍّ منهما، وغيرهما، بلاءً حسنا.

زهده

كان «سعيد»- رضي الله عنه - مع الجيوش الإسلامية فى ديار الشام؛ ينتقل من ميدان إلى ميدان، ومن بلد إلى بلد وبعد أن تم الفتح ولاه «أبو عبيدة» على «دمشق»، وكان أهلاً لهذا المنصب، بسببٍ من أمانته وصدقه.

ولكنه فى ذات يوم، وكان جالساً بمفرده أحس بالضيق. . ، وبحث فى

جوانب نفسه عن السبب، فأدرك أنه قد حرم من الجهاد بسبب الولاية، فكره ما هو فيه، فأخذ القرطاس والقلم، وكتب لأبى عبيدة:

﴿ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ﴾

(من «سعيد بن زيد» إلى «أبى عبيدة بن الجراح» سلام عليك.

فإنى أحمد الله الذي لا إله إلا هو، أما بعد: فإنى ما كنت لأُوثِرَكَ وأصحابك بالجهاد على نفسى، وعلى ما يدنينى من مرضاة ربِّى، فإذا أتاك كتابى هذا فابعث إلى عملك من هو راغب إليه منى، فإنى قادم عليك وشيكا إن شاء الله تعالى والسلام عليك).

فلما بلغ الكتاب «أبا عبيدة» دعا «يزيد بن أبى سفيان» وقال له: اكْفنى دمشق.

وعاد البطل الزاهد المجاهد إلى صفوف جند المسلمين، راضياً مرضياً.

ولقد كان خط الزهد هذا خطاً عاماً ومستقيماً فى حياة «سعيد بن زيد» ـ ﷺ ـ، فلم ينغمس فى الدنيا الواسعة، ولم يؤثر عنه فى حياته ترف عريض.

ولقد روى أن «عمر» ـ ﷺ ـ أرسل إلى «أبى عبيدة» يقول له: (أخبرنى عن حال الناس، وأخبرنى عن «خالد بن الوليد» أىُّ رجل هو، وأخبرنى عن «يزيد بن أبى سفيان» و«عمرو بن العاص» كيف هما ونصيحتهما للمسلمين، وعن أخويك «سعيد بن زيد» و«معاذ بن جبل» كيف حالهما، والسلام) فأجاب «أبو عبيدة»:

(أما بعد، فخالد خير رجل وأنصحه للمسلمين، وأشده على عدوه، و«عمرو» و«يزيد»، نصحهما وجدّهما كما تحب.

وأما عن «سعيد» و«معاذ» فكما عهدت، إلا أن (السواد)[1]. زادهما فى الدنيا

---

(١) السواد: أخصب اراضي العراق، وأكثرها عطاءً، ويعنى بها هنا: كل أرض معطاء، ذات زروع ونبات ومياه.

زهداً، وفى الآخرة رغبة).

البعد عن الفتنة

عندما دخلت دوامة الفتنة فى حياة المسلمين، واستُشْهِد «عثمان»ـ رضي الله عنه ـ انزوى «سعيد» على نفسه وانطوى على ذاته، وانصرف عن دنيا الناس إلى ربه، إذ لم تعد كلمة العقل والحق مسموعة، أولها نَبْض حياةٍ، وأخذ التزاحم على الدنيا يأخذ طريقه إلى حياتهم..

انزوى «سعيد»ـ رضي الله عنه ـ فى بيته فى «العقيق»[1]، يزور مسجد رسول الله ﷺ فيؤدى صلاته، ويذرف دمعه، ويَرْوى عن رسول الله ﷺ ما سَمعَ وحفظ.

لقدكانت الفتْنة ودماء«عثمان»أول انشاق فى حياة المسلمين، وأوَّل تصدُّع فى البناء الشامخ الذي أقامَهُ لهم رسول الله «ﷺ»، وأوَّل ضلالة عن كتاب الله وسنَّة نبيه المصطفى ـ ﷺ ـ؛ والذى حَذَرهم منه: [لقد تركتُ فيكم ما إن تمسَّكتم به لن تضلُوا من بَعْدى، كتاب الله وسنَّتى].

واستمر الصراع بين «على» و«معاوية»، فازداد «سعيد» بُعْداً وأسى.

فلما كانت سنة خمسين من الهجرة، اختاره الله تعالى إلى جواره، بعد حياة كان الإيمان فيها هو الأبرز،والجهاد هُوَ الصورة المشرقة، والزُهد عُنوانها.

ولا يمكنك ـ عزيزى القارئ ـ أنْ تتصوَّر مدى الحـزْن والانكسار الذى أصابا قَلْب «سعيد» من جراء تفاقم الخلاف والصِّراع...

أضف إلى ذلك عَدَم الاستجابة منْ كلا الأطراف لنداء الحق سبحانه وتعالى: ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ ﴾.

ولقد ذَهَبَ كُلٌّ فى غلوائِهِ إلى أنَّه الفئة ـ أو الطائفة ـ التى بُغِيَ عليها.

---

(١) العقيق: ضاحية من ضواحى «المدينة المنورة» على عهد رسول الله «ﷺ»، وتقع ما بين العوالي، حتى قباء.

وكانت وفاتُهُ يَوْم جُمعــة، وأشرف على تجهيزه ودفْنِه «سَعْد بن أبى وقاص» و«عبدالله بن عُمَر»ـ ﷺ ـ ودُفن بالبقيع.

رضى الله عن «سـعيـد بن زيد» فى الأوّلين الســابقين، والآخـرين الزاهدين العــابدين، وبوأهُ من لدُنه منازل الأبرار الصــالحين، فى مقْـعَدِ صـدقٍ عند مليكٍ مُقْتدر.

ولا يفوتنا ـ عزيزي الـقارئْ ـ أنْ ننوّه بفـضْل «سعـيد»ـ ﷺ ـ من أنَّه كـان مُجابَ الدَّعَوة.

فقد ذكر «أبو نعيم» فى (حلِيَة الأوليـاء) قصةّ «سعيد» مع «أروى بنت قيس» التى كـانت أرضهـا تجاورُ أرْضَــه، وادَّعت عليـه بأنَّهُ قد انتـقص من أرْضهـا.. وظلمها.

فقال «سعيد» داعياً ربَّه: اللهُمَّ إنها قد زعمت أنهـا ظلمت، فإن كانت كاذبةً فَأَعْمِ بَصَرها، وألقِها فى بئرها، وأظهر من حقّى نوراً بين المسلمين أنى لم أظلمها.

قال «ابن حَزْم»ـ الراوى ـ: فبيْنما هُم على ذلك، إذ سال (العقيق)ـ أى وادى العقيق بالماء ـ سيـلاً لم يَسِلْ مثله قط، فكشف الحد الذى كان يختلفـان فيه، فإذا «سعيد بن زيد» فى ذلك كان صادقاً؛ ثم لم تلبث إلاّ يسيراً حـتى عَميَتْ، فبينما هى تطوف فى أرضها تلك، سقطت فى بئرها

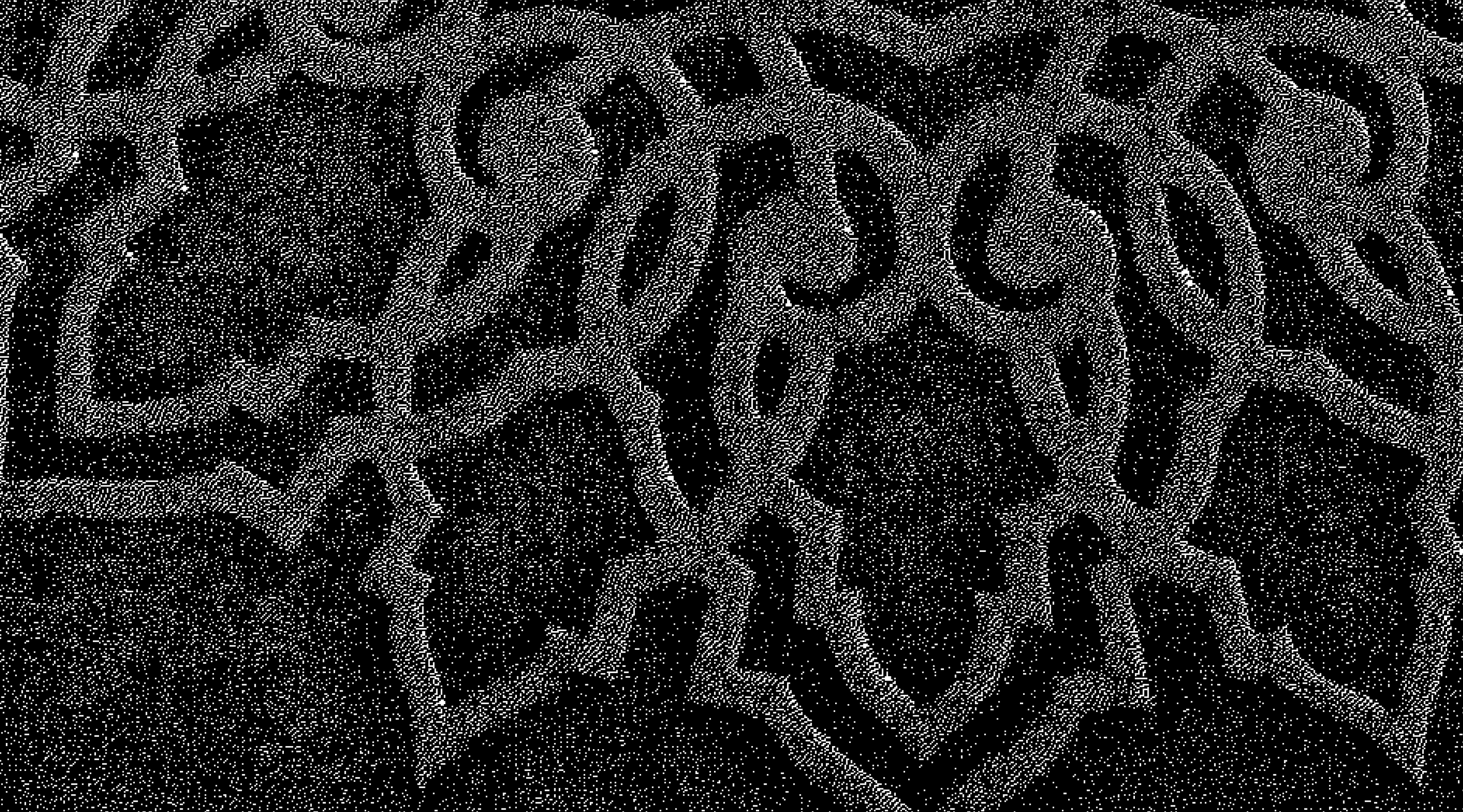
قال: فكنا ونحن غلمان نسمع الإنسان يقول لـلآخر إذا تخاصما: أعماك الله عمى «أَرْوى»، فكنا نظن أنه يريد الوحـشيـة، وهو كان يريد مـا أصاب «أرْوى» بدعوة «سعيد».

* * *

الفهـــــرس

****





دار الدعوة
للطبع والنشر والتوزيع
٢ ش منشا محرم بك - الاسكندرية
تليفاكس ت.٣٩٠١٩١٤ ٣٩٠٧٩٩٨/٠٣